حسين العودات

العرب النصارى

«عرض تاريخي»

العرب النصارى

* العرب النصارى
* حسين العودات
* الطبعة الأولى نيسان ١٩٩٢

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف : ٤٢٠٢٩٩ ـ ص.ب ٩٥٠٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
* التوزيع :
قسم التوزيع ـ الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف: ٢١٣٩٦٢ ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

الإهداء

إلى ذكرى فيليب جلاب

لسنا كلنا مسلمين ولكننا كلنا إسلاميون، بمعنى أن هناك حضارة واضحة جداً هي الحضارة العربية ـ الإسلامية ونحن كلنا ننتمي إليها.

المطران جورج خضر

تقـــديـــــم

يعرض هذا الكتاب مواقف الأنظمة السياسية والاجتماعية في البلدان العربية من العرب النصارى، منذ ما قبل الاسلام حتى بداية القرن العشرين، اعتماداً على ما كتبه الاخباريون والمؤرخون العرب وغير العرب. أما علاقات الفئات الاجتماعية والدينية بعضها مع البعض الآخر، فقد كانت انعكاساً لضعف الدولة أو قوتها، وللتمايز الطبقي والاجتماعي وشدته. ولذلك كانت المظالم التي تطال النصارى من بعض المتنفذين، تطال بالدرجة نفسها المسلمين من الفئات الدنيا، مما يؤكد أن أسبابها اجتماعية واقتصادية وسياسية وليست دينية.

لقد أطلقت كلمة النصارى على المسيحيين العرب حتى بداية العهد العثماني، لأن العرب كانوا يطلقون عليهم هذه التسمية، كما سميت الغزو الفرنجي بالغزو الصليبي، لأن هذه التسمية هي الأكثر تداولاً، مع أن المؤرخين العرب تبنوا التسمية الأولى.

اقتصرت في عهد النهضة (الفصل السادس) على استعراض أفكار بعض رواد النهضة الأوائل، بما يكفي لإعطاء صورة عن التيارات الفكرية والسياسية التي كانت موجودة في القرن الماضي وبدايات القرن الحالي، ولم أتعرض لمجموع رواد النهضة أو مجموع آرائهم ونشاطاتهم، ذلك لأن الغاية

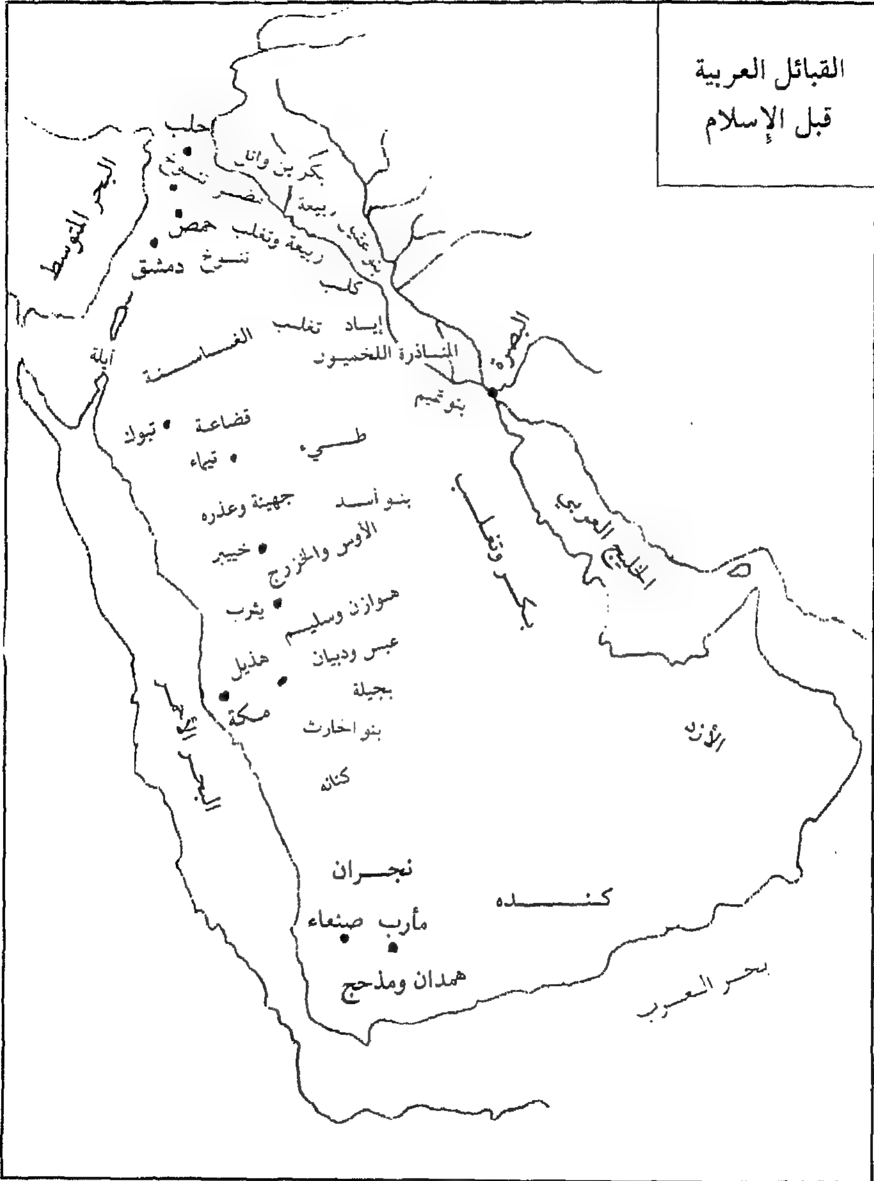
من الفصل كله هي تقديم خلاصة عن دور النهضويين العرب وخاصة العرب المسيحيين، وموقفهم من قضايا الأمة الأساسية وحركتها النهضوية والتحررية.

لقد أعددت هذا الكتاب للقارىء غير المتخصص، وهدفت من وراء إعداده إلى عرض مواقف وسياسات تاريخية تلقي ضوءاً على موضوع له علاقة بحياتنا الراهنة.

وأود أخيراً توجيه الشكر لمن ساعدني في إعداد الكتاب، ولمن كان دافعاً لإعداده.

دمشق ١٠/٤/ ١٩٩٢

المؤلف


القبائل العربية
قبل الإسلام
حلب
بكر بن وائل
مضر
ربيعة
حمص
ربيعة وتغلب
تنوخ
دمشق
البحر المتوسط
كلب
إياد
تغلب
الغساسنة
المناذرة اللخميون
أيلة
البصرة
بنو تميم
قضاعة
تبوك
طي
تيماء
بنو أسد
جهينة وعذره
الأوس والخزرج
خيبر
بكر وتغلب
الخليج العربي
هوازن وسليم
يثرب
عبس وذبيان
هذيل
بجيلة
مكة
بنو الحارث
كنانه
الأزد
نجران
كنده
مأرب
صنعاء
همدان ومذحج
بحر العرب

الفصل الأول

العرب النصارى قبل الاسلام

العرب قبل الاسلام ـ ديانات العرب قبل الإسلام : الوثنية، اليهودية، الحنيفية، النصرانية ـ الفرق النصرانية : الآريوسية، أصحاب الطبيعتين، أصحاب الطبيعة الواحدة ـ انتشار النصرانية في بلاد العرب : نجران واليمن ـ سورية ـ اللخميون ـ نجد والحجاز ـ الأقباط ـ الموارنة والمردة ـ الخاتمة .

كريتيون وعرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله

«أعمال الرسل ٢/ ١١»

كان أهل ثلاث بيوتات يتبارون في البيع وربها: أهل المنذر بالحيرة، وغسان بالشام، وبنو الحارث بن كعب بنجران. وبنوا دياراتهم (أديرتهم) في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران، وجعلوا في حيطانها الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور.

«البلاذري»

ومن قبائل العرب المتنصرة بكر وتغلب ولخم وبهراء وجذام (السيرة الحلبية) وكانت النصرانية في ربيعة (ابن قتيبة)، وكان بنو كلب كلهم من النصارى. (ابن عساكر).

العرب قبل الإسلام:

سكن العرب قبل الإسلام مناطق نجد والحجاز واليمن وحضرموت وظفار وشرق شبه الجزيرة العربية وشمالها، ومناطق غرب الفرات (حتى خط المدن المحاذية للبادية غرباً)، وأنشأوا إمارات وممالك في حمص وتدمر والبتراء وفي خوانق لبنان وجنوب الشام وبراري حوران. وأقاموا في بلادهم مجتمعات امتد تواجدها من أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية (عاد وثمود وسبأ وحمير) إلى بلاد الشام (الأنباط والتدمريون والغساسنة واللخميون والقبائل العديدة التي سكنت بادية الشام والجزيرة السورية حتى ديار بكر وربيعة وجبال طوروس شمالاً). وبين جنوب الجزيرة العربية وشمالها، قامت تجمعات في مدن مثل مكة والطائف ويثرب ودومة الجندل وتيماء وغيرها. وهكذا امتدت مجتمعاتهم جغرافياً من المحيط الهندي إلى بلاد الشام، وامتدت تاريخياً طوال آلاف السنين، وتنوعت البيئات الاقتصادية والاجتماعية لهذه المجتمعات. فكان بعضها يشبه دول المدن، وبعضها قبلي صرف، ولم تكن كلها من نسيج واحد، وتعايشت فيها البداوة والحضارة، في إطار الثقافة العربية واللغة والآداب.

اصطلح على تقسيم العرب إلى قسمين: عرب الجنوب، وعرب الشمال. كما اصطلح على تسمية عرب الجنوب بالقحطانيين وعرب الشمال

بالعدنانيين. وكانت لكل من القسمين فروع تضم قبائل وأفخاذاً متعددة، لها مناطق سكناها ونفوذها. وكانت بين الشمال والجنوب علاقات متينة ومتداخلة متفقة أو متعارضة، بسبب الهجرات والتجارة والحروب، واستمرت العداوات القبلية حتى عصور لاحقة للإسلام. كما استمرت الهجرات من الجنوب إلى الشمال حتى مجيء الإسلام، الذي تبعته هجرة كثيفة. وكان معظم عرب جنوب سورية والعراق وغرب الفرات يعودون بأصولهم إلى عرب الجنوب. ومن القبائل العربية قبيلة طيء القحطانية التي سكنت جبلي أجا وسلمى، وبنو الحارث سكنوا الجنوب الشرقي للطائف، وعاملة وجذام سكنتا بادية الشام، ولخم أسست مملكة الحيرة في جنوب العراق، والأزد ومنهم الغساسنة سكنوا حوران، وخزاعة جاورت قريشاً، وقضاعة سكنت شمال الحجاز والشام، وتنوخ وكلب استوطنت بادية الشام وشمالها. (أحمد أمين، فجر الإسلام ص ٧)، وسكنت تغلب في أكثر من مكان في نجد وبلاد الشام، كما استوطنت كنده وجنوب الجزيرة العربية.

توفرت مجموعتان من الظروف في شبه الجزيرة العربية، حددتا أشكال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات العربية التي قامت فيها: الأولى وجود الصحراء الواسعة وقلة مواردها، واعتماد السكان على الرعي وتربية الإبل والماشية، ومانشأ عن ذلك من صفات للقبيلة وتقاليدها وأنماط تفكيرها وعقليتها وعلاقاتها الاقتصادية والاجتماعية. والثانية الموقع الجغرافي الذي أتاح للعرب العمل بالتجارة، مع سومر وبابل والهند وفارس وروما وحوض المتوسط ومصر، أي مع حضارة المتوسط وما بين النهرين ومع حضارة النيل، فضلاً عن القارة الهندية، مما ساعد على قيام مدن هامة على طرق التجارة، وأنماط حياة ومجتمعات، تتناسب بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع طبيعة المجتمعات التجارية. وقد قال إنجلز في هذا المجال

(يبدو أن العرب، حيثما وجدوا وجوداً حضارياً في الجنوب الغربي كانوا شعباً متمدناً على نحو ما كان المصريون والآشوريون . . . تدل على ذلك منشآتهم العمرانية) (حسين مروة ١٧٩). وقد كان اليمنيون أسياد التجارة، ثم سلموا هذه المهمة للحجازيين في المراحل اللاحقة ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. قريش ـ ٤﴾. وقد بلغت التجارة مبلغاً عظيماً، سواء من حيث حجمها أم أساليبها وطرقها وتقاليد ممارستها وآلية عملها، حتى بلغت إحدى القوافل (١٥٠٠) جمل، كما روى الطبري. وكان للتجارة طريقان أحدهما من حضرموت إلى البحرين إلى الحيرة وبلاد الرافدين، والثاني من حضرموت إلى البتراء بطريق سواحل البحر الأحمر ومكة، ومن هناك إما إلى غزة فسواحل المتوسط أو إلى بصرى. وقبيل ظهور الإسلام، اتسعت قريش في التجارة وكثرت أموالها. وساعدت العلاقات التجارية مع البلدان الأخرى على تأثر العرب بالحضارات والثقافات المجاورة لهم.

كان العرب سكان وبرومدر، منهم الرحل ومنهم المستقرون، فقد كانوا مستقرين في اليمن ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ (سبأ ١٥). كما كانوا مستقرين في الحيرة وغسان، ومكة ويثرب، وقبل ذلك في البتراء منذ ما قبل الميلاد. وفي تدمر في قرون لاحقة.

جاورت الإمبراطورية الساسانية العرب من الشمال الشرقي، وكانت واحدة من الإمبراطوريتين الأعظم في العالم قبل الإسلام، وظلت دائماً تطمع بالسيطرة على خط التجارة الشرقي مع بلاد العرب (خط البحرين إلى حضرموت)، ومدّ نفوذها على الجزيرة العربية. ولذلك ساعدت على

إقامة إمارة عربية على التخوم بينها وبين الجزيرة هي إمارة الحيرة. ووضعتها تحت نفوذها غير المباشر في البدء ثم المباشر فيما بعد، وكلفتها برعاية مصالحها لدى عرب الجزيرة، وحماية قوافلها وقوافل التجارة القادمة إليها، والقيام بدور المصد بوجه أي غزو أو توسع يقوم به عرب الجزيرة. وقد حاول الفرس الساسانيون السيطرة على الجزيرة عدة مرات (غزوا اليمن وجنوب الجزيرة والشام ومصر ونجحوا واستقروا في بعضها) تحت مختلف المبررات، لكن المبرر الحقيقي لم يكن إلا محاولة نشر النفوذ والتوسع والهيمنة، كما هي مطامع الدول الكبرى منذ أول التاريخ حتى الآن.

أما الإمبراطورية البيزنطية التي ورثت إمبراطورية روما، وهي الإمبراطورية العظمى الثانية في ذلك الوقت، فقد حرصت دائماً على مد نفوذها على تخومها الجنوبية (الجزيرة العربية) وشاطىء البحر الأحمر، وعلى حدودها الشرقية (مع الإمبراطورية الساسانية)، وحفظ أمنها والسيطرة على خط التجارة مع الحجاز واليمن وصولاً للمحيط الهندي. وجبي الضرائب من قوافل التجار، التي كانت تجبى في أول مدينة تابعة لبيزنطة تصلها هذه القوافل. وكانت في الغالب مدينة أيلة (العقبة)، باعتبارها محطة رئيسية على طريق التجارة الغربي.

كان للحبشة ـ المتحالفة غالباً مع الدولة البيزنطية ـ أطماعها أيضاً في مد نفوذها على الساحل الشرقي للبحر الأحمر وعلى اليمن، والسيطرة على الطريق البحري للتجارة وعلى الطريق البري أيضاً. ولذلك غزت اليمن مرات عديدة، وأقامت فيها دويلات تابعة لها. وتمكنت من الوصول إلى مكة في إحدى غزواتها (غزوة أبرهة ٥٧٠ م)، ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾ (الفيل ١ ـ ٥).

وسواء كانت علاقات العرب مع الشعوب المجاورة علاقات تجارية أم غير تجارية، علاقات تحالف أم تعارض، سلمية أم حربية، فمن البديهي أن تؤدي هذه العلاقات إلى تأثيرات متبادلة وتماس حضاري وثقافي، وتبادل أفكار ومعتقدات وآراء. وقد استفادت المجتمعات العربية من هذه الصلات، وأطلعت من خلالها على جوانب عديدة من ثقافات الشعوب المجاورة، حيث انتقل كثير من تلك الثقافات والمعتقدات إلى بلاد العرب، وما وجود كلمات من أصول فارسية ورومانية ومصرية وحبشية وسريانية وحتى هندية مستعملة في اللغة العربية، وفي القرآن الكريم نفسه إلا دليل على هذا التماس الحضاري.

لقد ساعدت هذه الصلات الواسعة دخول التأثيرات الثقافية الخارجية، ومكنت الثقافات الأخرى من الدخول إلى بلاد العرب وبذر بذورها فيها، كما ساعدت المجتمعات العربية أوشرائح اجتماعية منها، على تبني هذه الثقافات وتمثلها. وبالتالي لم يكن العرب معزولين في قلب جزيرتهم بل كانوا منتشرين جغرافياً في بلاد الشام والعراق واليمن وحضرموت وسيناء ومصر، وفي هذا الصدد من المهم أن نلاحظ أن عرب الحجاز ونجد كانوا يشكلون نسبة قليلة من مجموع العرب.

ديانات العرب قبل الإسلام:

كان للعرب قبل الإسلام ديانات مثل غيرهم من الشعوب، ومن هذه الديانات: الوثنية واليهودية والحنيفية والمسيحية إضافة إلى بعض المجوس.

يقال إن الوثنية وعبادة الأصنام دخلت إلى الجزيرة العربية بطريق

عمرو بن لحي ، الـذي خرج إلى أرض الشـام وبها قوم من العمالقة يعبدون الأصنـام ، فقـال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الـذي تفـد إليـه العرب . فأعطوه صنماً يقال له هبل ، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة فكان أول صنم وضع بمكة . ثم وضعوا به إساف ونائلة كل واحـد منهـما على ركن من أركـان البيت . فكـان الطـائف إذا طاف بدأ بإسـاف فقبله وختم به . ونصبـوا على الصفـا صنـماً يقـال له (مجاور الريح) وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير) . فكانت العرب إذا حجت البيت فرأت تلك الأصنـام سألت قريشـاً وخزاعة فيقولون : نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى . فلما رأت العـرب ذلـك ، اتخـذت أصناماً فجعلت كل قبيلة لها صنماً يصلون له تقـربـاً إلى الله فيـما يقولون . فكان لكلب بن وبرة وأحياء قضاعة (ود) منصـوبـاً بدومـة الجنـدل بالجوف ، وكان لحمير وهمدان (نسر) منصوباً بصنعاء ، وكان لكنانة (سواع) ، وكان لغطفان (العزى) ، وكان لهند وبجيلة وخثعم (ذو الخلصـــة) ، وكـان لطيء (الفلس) منصـوبـاً بالظـائف ، وكـان للأوس والخـزرج (منـاة) منصـوبـاً بفدك مما يلي ساحل البحر ، وكان لدوس صنم يقـال له (سعـد) وكـان لقـوم من عذرة صنم يقال له (شمس) ، وكان للأزد صنم يقال له (رئام) . (الشهرستاني) .

وقـد فرضت قريش من خلال هذه الأصنـام ولأسبـاب أخرى هيمنة على قبائل العرب المحيطة باعتبار أن قريشاً سيدة البيت . وهناك آراء عديدة حول موقف العرب من هذه الأصنام ، فمن الإخباريين من يرى أنها كانت وسيلة للتقـرب من الله ﴿مـا نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ (الزمر ٣) . ومنهم من يعتبرها نوعاً من الشرك ، خاصة وأنه كان لبعضهم أكثر من وثن ، وهناك خلاف بين الدارسين حول مدى احترامهم لها . وكتب التاريخ مملوءة بالقصص والـروايـات عن تعاملهم معها ، من أقصى درجات الاحترام إلى

أقصى درجات الاستهانة. ولابد أن نشير إلى أن تبني القبيلة صنماً لايعني أن مجموع أفرادها وثنيون ويؤمنون به ويعبدونه، فقد كانت الوثنية كغيرها من الديانات محط إيمان بعض أفراد القبيلة وليس القبيلة كلها.

دخلت اليهودية مبكرة إلى الجزيرة العربية، وهناك عدة آراء في طريقة دخولها، حيث يرى البعض أن اليهود عرب تهودوا (ياقوت الحموي)، ويرى آخرون أنهم جاءوا مهاجرين من فلسطين (الأغاني، الأصبهاني) بسبب اضطهاد الرومان لهم (٧٠ م و١٣٢.م)، ويبدو أنهم من المهاجرين والمتهودين معاً (أحمد أمين فجر الإسلام ٢٤)، وكان لهم تجمعات في تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى، وأهمها كانت في يثرب وفي اليمن حيث أقاموا دولة، ومشهورة قصة ذي نواس اليهودي الذي اضطهد النصارى في نجران ﴿قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ (البروج ٤ ـ ٨). إلا أن انتشار اليهودية في شبه جزيرة العرب بقي محصوراً على بعض (المثقفين) وفي شرائح من الأرستقراطية والفئات العليا من المجتمع وفي المدن خاصة، وبين الصناع والتجار. ولم تكن اليهودية ديانة منتشرة انتشاراً جماهيرياً، باستثناء بعض مناطق اليمن.

عمل اليهود بالزراعة والصناعة والحرف، ونشروا تعاليم التوراة من لاهوت (البعث والحساب) وقصص (قصص بعض الأنبياء). وكان لهم أثر على الثقافة العربية وعلى اللغة العربية، التي أدخلوا عليها كلمات كثيرة ومصطلحات دينية مثل جهنم والشيطان وإبليس. إلا أن دينهم كما أشرت لم يكن للناس جميعاً، ولذلك لم يهتموا بنشره، وبقوا يعيشون في دائرة مغلقة تقريباً: انغلاقاً اقتصادياً بسبب نوعية مهنهم ومصادر عيشهم، إذ عملوا بالصناعة والحرف كالحدادة والنسيج وصنع السلاح كما عملوا بالزراعة، بينما

كان العرب الآخرون في الجزيرة العربية يعملون أساساً بالتجارة والرعي والزراعة. وانغلاقاً ثقافياً لأنهم كانوا يعتبرون دينهم ملكاً خاصاً لهم ولا يطمحون بدخول أناس جدد فيه، وبالتالي فلا يعتبرون التبشير من مهامهم. وفي الوقت نفسه يرون الآخرين أقل ثقافة منهم (أميون).

أما الحنيفية فهي توحيدية عربية صرفة، وصفها القرآن الكريم بأنها لا يهودية ولا نصرانية بل ملة إبراهيم ﴿وقالوا كونوا يهوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (البقرة ١٣٥). و﴿ماكان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ (آل عمران ٦٧). وفيهم قال الرسول (لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة) (مسند ابن حنبل).

والحنيف عند أهل الجاهلية من اختتن وحج البيت (لسان العرب) والذي استقام على ملة إبراهيم واتباعه لها، واعتزل الأصنام واغتسل من الجنابة (تفسير الطبري) وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان وكل ما أهل لغير الله وحرم الخمر، وتأمل في خلق الله (ابن الكلبي). وكانوا يختنون أولادهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة. ويتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً. (معجم البلدان ٥/١٨٤).

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء واضحة، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية (جواد علي ٦/٤٥٤). ويعدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية، وعدوهم نصارى عرباً زهاداً كيفوا النصرانية بعض التكييف، وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها (جواد علي ٦/٤٥٦) ولم يكن الحنفاء على رأي واحد ودين واحد. بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة. إنما كان أولئك الأحناف نفراً

من قبـائـل متفـرقـة لم تجمع بينهم رابطة، إنما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الأصنام وفي الدعوة إلى الإصلاح. (جواد علي ٦/٤٦٣).

يقال إنه كان من الأحناف عبيد بن الأبرص والأفوه الأودي وعنترة بن شداد وحـاتم الطـائي ودريـد بن الصمة والمرقش والنابغة الذبياني وطرفة بن العبـد وعـروة بن الـورد وزهـير بن أبي سلمى وزيـد بن عمـرو بن نفيـل وحنظلة بن صفـوان وسـويـد بن عامر المصطلقي وعامر بن الظرب العدواني وعـلاف بن شهـاب التميمي والملتمس بن أمية الكناني وعبد الله القضاعي وغـيرهم. (المسعـودي، مروج الـذهب) وقـد أشار بعض المؤرخين إلى أن هؤلاء وغـيرهم هم من النصـارى، بينـما أشـار آخرون أن معظم من قالت كتب الأخبـار أنهم نصـارى هم أحنـاف. ورأى بعض الكتـاب والمؤرخـين والـلاهـوتيـين النصارى الأوروبيين، أن الحنيفية تعود بالأصل إلى المذهب الآريوسي الذي انشق مبكراً عن كنيسة إنطاكية، ثم شرد أنصاره في مختلف البلدان ومنها الجزيرة العربية، حيث كانوا بمأمن من ملاحقة كنيسة انطاكية وأتبـاعهـا. ويرى آخرون أن الحنيفية بالأصل جاءت إلى نجد والحجاز بعد أن هدم الهيكـل عام ٧٠ م، وكـانـوا فئـة منشقـة مبكـراً عن اليهـوديـة والنصرانية، ولها مذهب مأخوذ من الديانتين. واضطهدوا من قبل أصحاب الديانتين معاً.

النصرانية في بلاد العرب:

إن موضـوع الكتـاب يجعلنـا نورد تفصيـلات عن النصارى العرب، ومـذاهبهم وأمـاكن وجودهم، وعلاقتهم بما حولهم من التجمعات السكانية العربية وغير العربية، وموقعهم الحقيقي من القبائل العربية قبل الإسلام.

التسميــة: لم يعـرف العـرب لفظـة مسيحي أو مسيحيـة، بل كانــوا يطلقون كلمتي نصراني أو نصرانية بدلاً منها، وتعود هذه التسمية في الغالب إلى النسبة لمدينة الناصرة (لسان العرب، تاج العروس). وقد عرفت كلمة النصـرانيـة قبـل الإسـلام وكانت معروفة لدى جميع قبائل العرب وبطونها، ووردت في أبيـات عديـدة من شعـر العـرب، وضم الشعـر العربي إشارات عديـدة إليهـا، على لسـان شعـراء من مختلف المنـاطق، من اليمن والحجاز ونجد والعراق وبلاد الشام وغيرها. وهناك آراء عديدة حول أصل التسمية والنسبة إليها.

الفرق النصرانية في بلاد العرب:

كانت الانقسـامـات عديدة لدى كنائس المشرق في القرون المسيحية الأولى، وكـان الجدل اللاهوتي يسيطر على سلوك الناس وحياتهم، ويخبرنا غريغـوريـوس النيسي، وقـد رفعته الكنيسة بعد وفاته إلى مرتبة آباء الكنيسة، عن هذا الشغف بشكــل من الطــرافــة التي لاتخلو من الانــزعـاج نتيجـة مشـاهـدات في العـاصمـة ذاتها، بقوله: (إذا ما سألت أحدهم كم هو ثمن هذه السلعـة، فيجيبـك بالمنـاقشـة حول المولود وغير المولود، وإذا سألته عن ثمن الخبـز أجـابـك إن الآب أعلى والابن إنـما يأتي بالـدرجة الثانية، وإذا سألتـه عما إذا كان الحـمام معـداً أجـابـك أن الابن إنما هو مخلوق من العدم) (أدمون رباط ١٧). وما هذا القول إلا تعبير عن اتساع الجدل والحوار، ثم الانقسام والتشرذم.

كان الموقف من طبيعة السيد المسيح (الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية والعـلاقـة بينهـما) من أسباب الانقسامات المذهبية النصرانية في بلاد المشرق

منذ وقت مبكر، حيث عقدت عدة مجامع كنسية لبحث الخلافات حول هذا الموضوع (مجمع نيقيا ٣٢٥ م مجمع أفسس ٤٣١ م مجمع خلقيدونية ٤٥١ م). وبينما كانت الكنائس في المشرق تتصارع وتنقسم، بقيت شعوب الامبراطورية البيزنطية، في القسطنطينية والأناضول وأفريقيا الشمالية وأوروبا متمسكة بوحدتها (أدمون رباط).

إن أول انقسام حصل بعد القرن الخامس الميلادي كان في القرن الحادي عشر، حيث انفصلت الكنيسة الشرقية عن الغربية، وحصل الانقسام الثاني، في القرن السادس عشر حيث نشأت البروتستانتية وانفصلت. ولم تكن الانقسامات المبكرة والمتعددة، لدى الكنيسة المشرقية لأسباب لاهوتية فقط، بل أدت إليها أيضاً أسباب إثنية وثقافية وسياسية. لذلك كان أتباع المذاهب المنشقة من السكان المحليين وليسوا من البيزنطيين، وكان انقسامهم عن الكنيسة الملكية التي تبنتها بيزنطة.

ومن أهم فرق النصرانية قبل الإسلام:

الآريوسية:

تنسب الآريوسية للكاهن آريوس، المصري (الجنسية) الليبي المولد، الذي ولد عام ٢٥٦ م. وبدأ ينشر آراءه في مطلع القرن الرابع الميلادي، وذهب آريوس إلى أن الله الواحد لم يولد، وهو الواحد السرمدي، ليست له بداية، وهو وحده الحق، وهو وحده الذي لايموت، وهو وحده الحكيم اللطيف. أما ابن الله فليس في وسعه أن يحوز على الصفات المتفردة للأب، فهو مولود، وله بداية، وجاء زمان لم يكن فيه موجوداً (أبو سيف يوسف ٦٦). وكان يقول إن الله واحد غير مولود، لا يشاركه شيء في ذاته تعالى،

فكل ما كان خارجاً عن الله الأحد هو مخلوق من لاشيء بإرادة الله ومشيئته. أما الكلمة (اللوغوس ـ المسيح) فهو وسط بين الله والعالم، كان ولم يكن زمان، لكنه غير أزلي ولاقديم، بل كانت مدة لم يكن فيها (الكلمة) موجوداً. فالكلمة مخلوق بل إنه مصنوع، وإذا قيل إنه (مولود) فبمعنى أن الله (تبناه)، ويؤدي ذلك إلى أن (الكلمة) غير معصوم طبعاً، ولكن استقامته حفظته من كل خطأ وزلل، لكنه دون الله مقاماً (جورج قنواتي ٢٦) ولموقف آريوس من طبيعة السيد المسيح عقد مجمع نيقيا بحضور الإمبراطور قسطنطين شخصياً، وأصدر هذا المجمع المسكوني المعروف بالنيقاوي (نسبة إلى نيقيا) قانون الإيمان النيقاوي كما يلي: نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق كل ما يرى ومالا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد مولود من الآب أي من جوهر الآب إله من إله نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء ما في السماء وما على الأرض الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل وتجسد وتأنس وتألم. وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وسيجيء ليدين الأحياء والأموات وبالروح القدس. (أسد رستم ج ١ ص ٢٠٢). وفي المجمع القسطنطيني الأول (٣٨١) أكمل هذا القانون. وأدان المجمع النيقاوي الآريوسية معتبراً أن أولئك الذين يقولون أنه كان زمن لم يكن فيه وأنه لم يكن قبل أويولد وأنه صار من العدم أومن أقنوم آخر أوجوهر آخر أو أن ابن الله مخلوق أومتغير أومتحول، فهؤلاء جميعهم تفرزهم الكنيسة. وحرم الآباء آريوس وأتباعه فأيدهم قسطنطين في ذلك وحكم على آريوس بالإبعاد والنفي.

أصحاب الطبيعتين: النساطرة:

هم أتباع الراهب نسطوريوس (نسطور) الذي انتخب بطريركاً لكرسي القسطنطينية عام ٤٢٨ م، وهو لاهوتي من خريجي مدرسة انطاكية، كان يؤمن بوجود طبيعتين في الكلمة: اللاهوت والناسوت. ويفصل بينهما فصلاً كاملاً (مسيحاً إلهياً ومسيحاً بشرياً) واحداً قبل التجسد وآخر بعده، وقد ربط بينهما اتحاد أدبي بسيط، وقال إن عذاب الصليب لم ينل من الطبيعة الإلهية، بل انتصر على الطبيعة البشرية فحسب، وأنه (لايحق لمريم العذراء أن تدعى والدة الإله بل أم يسوع لاغير).

وبسبب آراء نسطور هذه، ولأن الكنيسة الرسمية اعتبرتها خطرة على القانون النيقاوي ومخالفة له، عقد مجمع أفسس عام ٤٣١ م واعتبر نسطوريوس هرطوقياً وحرمه وعزله عن رتبته البطريركية، فلجأ النساطرة إلى البلاد التي تحكمها الدولة الساسانية غير المسيحية، والتي لم تكن تهتم كثيراً بالتبشير الديني أو بانتشار دياناتها، بل ربما وجدت بالنساطرة اللاجئين أعواناً لها محتملين ضد الإمبراطورية البيزنطية عدوتها التاريخية، ولذلك استقبلت النساطرة وساعدتهم، وقد أسس النساطرة مدرسة في الرها وأخرى في نصيبين وهي مدارس لاهوتية ومراكز دراسات وبحث، وقوي نفوذهم وانتشر مذهبهم في العراق في (إمارة الحيرة والقبائل العربية) وفي شبه جزيرة العرب، وبلاد الهند والتركستان والتيبت والصين.

المونوفيسية : أصحاب الطبيعة الواحدة :

لقد تصدى بعض اللاهوتيين من كنيسة انطاكية للنسطورية وأعلنوا إيمان الكنيسة وعقيدتها بسر التجسد في كتابات ومؤلفات عدة، وترأس هذه الحملة بطاركة الاسكندرية. ويعود الفضل في نهضة أصحاب الطبيعة الواحدة إلى الناسك والمطران (مار يعقوب البرادعي)، أما الذي عزز شأنها بمؤلفاته اللاهوتية وبدفاعه عن عقيدتها فهو البطريرك مار سويريوس الكبير بطريرك انطاكية (٥١٢ ـ ٥٣٨ م).

يقول المؤمنون بالطبيعة الواحدة باتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية بدون اختلاط وامتزاج أو تبلبل، وقد رفض المجمع الخلقيدوني (٤٥١ م) هذا الإيمان فانشطرت الكنيسة إلى شطرين، أحدهما مع هذا الإيمان وهي الكنائس السريانية في سورية وبلاد فارس والقبطية في مصر والأرمنية في أرمينيا، والثاني الكنائس البيزنطية والغربية وكانت مع الاعتقاد بطبيعتين للسيد المسيح. وهكذا تشكلت ثلاث كنائس في الشرق : الكنيسة الملكية أي اتباع الملك في القسطنطينية، والكنيسة اليعقوبية نسبة إلى مار يعقوب البرادعي وتتألف من السريان والأقباط والأحباش والأرمن، والكنيسة النسطورية.

وقد انتشرت النسطورية في إمارة الحيرة وجنوب العراق وبادية الشام وبعض مناطق الجزيرة السورية، وشرق الجزيرة العربية ولدى بعض

نصارى اليمن والحجاز، كما انتشرت عقيدة الطبيعة الواحدة لدى الغساسنة وفي بادية الشام ولدى بعض القبائل العربية وفي الجزيرة السورية العليا وبعض اليمن والحجاز أيضاً، وكانت القبطية في مصر وساحل إفريقيا الشرقي، والسريانية في إرمينيا وفي بعض المناطق السورية. وكانت هذه الكنائس جميعها على عداء دائم مع الكنيسة الرسمية (الملكية)، يصعده الخلاف اللاهوتي، والتنوع القومي، والصراع الاجتماعي، خاصة وأن أتباع هذه الكنائس جميعها كانوا من غير البيزنطيين، فكلهم مشارقة إما عرب أو سريان من بلاد الشام من أصول عربية أو من أقباط مصر أو من الأرمن.

انتشار النصرانية في بلاد العرب:

جاء في أعمال الرسل (كريتيون وعرب نسمعهم يتكلمون بألسنتنا بعظائم الله) (أعمال الرسل ٢/ ١١). وهذه إشارة واضحة إلى وجود عرب في أيام المسيحية الأولى كانوا على تماس بما يجري في فلسطين. وسواء تنصر هؤلاء العرب المشار إليهم أم لا، فإن وجودهم نفسه يؤكد علمهم بالدين الجديد ومعرفتهم به منذ سنواته الأولى. وقد كتب جرجس أسقف القبائل العربية في بابل، وكان معاصراً وصديقاً ليعقوب الرهاوي، تعليقات على الكتب المقدسة، ويرى شبرنجر أن في كتاب محمد بن إسحق فقرة مأخوذة من ترجمة للإنجيل تمت قبل الإسلام، وهذه الفقرة تتضمن الفقرات ٢٣ ـ ٢٧ من الإصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنا. (جواد علي ٦/ ٦٨١، لويس شيخو).

انتشرت النصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام انتشاراً كبيراً، ولكن

كان النصارى أفراداً في قبيلة أو مجموعة منها، ونادراً ما كانت القبيلة بكاملها على النصرانية. كما تفاوت تنصر العرب بين منطقة وأخرى، فقد كان تنصرهم كثيفاً نسبياً في نجران والحيرة وغسان وبادية الشام وشمال سورية، بينما كان فردياً تقريباً في الحجاز. إلا أن النصرانية كانت موجودة ومعروفة لدى العرب جميعهم. ولابد من الإشارة إلى أمر آخر هام، وهو أن تنصر الأفراد كان يأتي تلقائياً غالباً إذا تنصر ملوكهم أو أمراؤ هم أو رؤ ساء قبائلهم (فالناس على دين ملوكهم). ولم يكن التنصر في أحيان كثيرة نتيجة اقتناع فردي أو مبادرة فردية. وكان تنصر رئيس القبيلة نفسه يعود لأسباب عديدة، قد تكون إيماناً دينياً أو أسباباً سياسية أو اقتصادية أو قومية أو شخصية: فقد تنصر زعيم قبيلة الضجاعمة بعد أن دعا أحد الرهبان الله أن يرزقه ولداً، وتنصر النعمان ملك الحيرة بعد أن شفي من مرض عصبي على يد أسقف نصراني، والأمثلة كثيرة. وفي الوقت نفسه كان الحوار اللاهوتي يتم بين الأساقفة والمقربين منهم وأغنياء القبيلة وقادتها. أما أفرادها فكان تنصرهم بسيطاً دون تعمق باللاهوت. وغالباً ما أقلمت القبائل العربية النصرانية وطبعتها بطابعها، وأخضعتها لظروفها، وتأثرت بتراثها الثقافي وبتقاليدها، وبعلاقاتها بجيرانها، فكانت نصرانيتهم كأنها نصرانية (خاصة)، ابنة الظروف المحيطة بأتباعها من العرب.

كان الصراع موجوداً بين القبائل العربية التي على المذهب النسطوري والقبائل العربية على مذهب الطبيعة الواحدة، وكان ظاهره ديني وأسبابه الحقيقية سياسية واقتصادية، تعود إلى الصراع بين القبائل، خاصة بين غسان التي كانت على مذهب الطبيعة الواحدة ومن والاها من القبائل العربية الأخرى وبين الحيرة النسطورية ومن والاها. وما انقطعت الحروب بين المناذرة والغساسنة طوال عشرات السنين، وكانت تحركها

مصالح دنيوية أساساً وليست دينية. كما كانت هذه الصراعات تعود لأسباب (دولية خارجية) تغذيها الصراعات بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية، حيث ناصرت الأولى (مملكة) غسان اليعقوبية، لتكون رأس حربة لها موجهة للجزيرة العربية للأسباب المعروفة (حماية طرق التجارة، حراسة التخوم)، وناصرت الثانية (مملكة) الحيرة النسطورية، وجعلتها وسيلتها لتحقيق الأهداف نفسها.

لقد تم انتشار النصرانية في بلاد العرب بطرق عديدة، تختلف حسب المناطق الجغرافية وظروف القبائل والإمارات والممالك العربية:

ففي **نجران** انتشرت النصرانية انتشاراً واسعاً، ويروي الإخباريون قصصاً متعددة ومتنوعة عن تنصر أهل نجران، فبعضهم يعزي ذلك إلى رجل صالح كان من أصحاب الحواريين اسمه (فيميون)، جاء إلى اليمن مختفياً، فأظهر عجائب أمام حكامها أدت إلى إيمان الناس بدينه وأصبحوا نصارى. وتزعم المصادر السريانية والنسطورية أن تاجراً من أهل نجران اسمه (حنان أو حيان) قام أيام يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠ م) بسفرة تجارية إلى القسطنطينية، ثم ذهب منها إلى الحيرة، وفيها تلقى مباديء النصرانية ودخل فيها، فلما عاد إلى نجران بشر فيها بالنصرانية حتى تمكن من نشرها بين حمير. وترجع تواريخ البطاركة هذه الحادثة إلى حوالي عام ٤٢٠ م. وذكر أنه في عهد البطريق (سيلاس) ٥٠٥ ـ ٥٢٣ م هرب لاجئون من أصحاب الطبيعة الواحدة إلى الحيرة، غير أن النساطرة أجلوهم عنها، فذهب قسم منهم إلى نجران، فنشروا مذهبهم بين الناس (جواد علي ٦/ ٦١٤، الطبري، المسعودي) ولذلك كان في نجران مؤمنون من مذهب الطبيعة الواحدة إلى جانب النساطرة كما تؤكد الروايات.

أما المؤرخون النصارى (لويس شيخو وآخرون) فيذكرون أن الرسل

والمبشرين قدموا إلى اليمن بطريق مصر والحبشة منذ القرون الأولى من المسيحية، ويذكرون من هؤلاء الرسل والمبشرين (متى الرسول، والقديس برتلماوس والقديس توما والفيلسوف بنتانوس).

يبدو أن التبشير الفردي لعب دوراً ثانوياً في تنصر أهل نجران وأهل اليمن عامة، وذلك لسببين:

الأول: وجود اليهودية في اليمن منذ وقت مبكر، ومحاولة العرب المتهودين السيطرة على نجران، بسبب أهميتها التجارية وأهمية موقعها، فضلاً عن الصراع القبلي الدائم، ورغبتهم السيطرة على اليمن كلها. مما جعل النجرانيين يبحثون عن سبل كفيلة بصد هذه المحاولات، وحفظ استقلالهم أمام تهديد القبائل المتهودة، فتطلعوا إلى التعاون مع الخارج، أي مع الأحباش على الطرف الآخر من البحر الأحمر، فتنصروا بكثافة، خاصة وأن النصرانية كانت موجودة فيهم. وتلاقت رغبتهم هذه مع المطامع التاريخية للأحباش في احتلال اليمن والهيمنة عليها واتباعها لهم. ولذلك كان الأحباش عوناً لنصارى نجران، وحلفاء أقوياء خارج الحدود. وكثيراً ما تدخل الأحباش في شؤون اليمن بعد تنصر نجران بتشجيع من الإمبراطورية البيزنطية وبمساعدة منها، تحت مزاعم نصرة النصارى. وكان آخر تدخل لهم بعد أن سيطر ذو نواس الحميري على نجران واضطهد النصارى، ﴿قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود﴾ (البروج ٧). ثم تقدم الأحباش وتغلبوا عليه، وأقاموا دولة في اليمن تحت حكمهم عام ٥٢٢ م، بقيت قائمة حوالي نصف قرن حتى ٥٧٥ م، وحاولوا توسيع نفوذهم في جنوب شبه الجزيرة العربية، وفي شمالها. حيث غزوة أبرهة لمكة عام ٥٧٠ م التي فشلت، ثم تراجع النفوذ الحبشي بعد أن طردهم الفرس متحالفين مع أهل اليمن.

الثاني: هو أن اكتشاف الرومان لطرق الملاحة في البحر الأحمر، ذي الجزر المرجانية الكثيرة، والتي كانت أسرارها (أي الطرق) بيد اليمنيين، هذا الاكتشاف أفقد اليمنيين السيطرة على الطريق التجاري البحري، وترافق ذلك مع خراب متتابع لسد مأرب (خرب عدة مرات آخرها في القرن السادس الميلادي)، مما جعل تجارتهم (وهي المصدر الرئيس لعيشهم) مرهونة بالخط التجاري البري مع الشام ومصر. مما يضطرهم للتعامل مع الحجازيين بزعامة قريش التي تسيطر على البيت الحرام مجمع أصنام العرب، ومع العرب الآخرين في جنوب سورية، فكان لابد لهم من إحياء الصلات وتمتينها مع قبائل عرب الجنوب التي كانت قد هاجرت إلى الشمال (الجزيرة العربية والشام) وتمتين الروابط وخاصة الدينية. وهذا يفسر محاولة نصارى نجران، بناء كنيسة مزاحمة للكعبة سموها (كعبة نجران) زينوها بالحلي وقال فيها الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليك ... حتى تناخي بأبوابها
تزور يزيداً وعبد المسيح ... وقيساً هم خير أربابها

كما بنو كنائس في صنعاء (القليس) وفي مأرب وظفار. وفي رواية لابن الكلبي في أديان العرب أن كعبة نجران كانت قبة من أدم من ثلاثمئة جلد، كان إذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفد أرفد، وكانت لعظمتها عندهم يسمونها كعبة نجران، وتقع على نهر نجران، وهي لعبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار، كانت القبة تستغرقها. أي كان ينفق عليها من غلة ذلك النهر (جواد علي ٦/ ٦١٦ تاج العروس). ويروى أن قس بن ساعدة الأيادي كان أسقفاً عليها (جواد علي ٦/ ٦١٦ عن لامانس).

ربما كانت علاقات أهل نجران بالقبائل العربية من أصول جنوبية التي سكنت شمال الجزيرة والشام (اليعاقبة) والعراق (النساطرة)، هي واحدة من أسباب تواجد اليعاقبة والنساطرة معاً في نجران، وهذا ما يفسر تواجد الخط الآرامي إلى جانب الخط المسند في بعض مناطق اليمن، والتزاماً بهذه الصلة كان أساقفة نجران وحكامها يشجعون الناس على زيارة القديس سمعان العمودي في شمال سورية، الذي كان يعظ على عمود وله عجائب كثيرة يرويها المؤرخون العرب.

وبعد الإسلام، صالح الرسول (ص) نصارى نجران، وعقد معهم اتفاقاً شاملاً صار أساساً لعقود الذمة فيما بعد، بين المسلمين والنصارى في البلدان التي فتحها العرب والمسلمون. وكان لعمر بن الخطاب شأن مع نصارى نجران، كما سنرى.

أما في سورية: فقد سكن العرب قبل الإسلام بمدة طويلة (رينيه داسو) واستوطنوها منذ القرن الثاني الميلادي، وقد شدتهم إليها خصوبة الأراضي السورية. وكانوا يأتونها على شكل موجات هجرة من الجزيرة العربية. ولم يلبثوا أن تمثلوا لغة السوريين الآرامية وحضارتهم وعبادتهم، فأسماؤهم وأسماء آلهتهم كانت أحياناً آرامية، وكانوا يستعملون اللغة الآرامية في مراسلاتهم الدبلوماسية (لامانس، لويس شيخو). وكانت المسيحية قد انتشرت بكثافة في سورية الطبيعية بعد أن تنصر القيصر قسطنطين عام ٣١٣ م، وصارت الدولة هي الراعي الرسمي للديانة النصرانية، تشجع أتباعها وتساعد كنائسها، وتدعم القبائل المتنصرة دعماً مالياً وسياسياً وعسكرياً. وفي الوقت نفسه تستخدم هذه القبائل لتحقيق مصالحها، وتنفيذ استراتيجيتها.

يقول اليعقوبي إن قضاعة أول من قدم الشام من العرب فصارت

إلى ملوك الـروم فملّكـوهم ، فكـان أول الملك لتنـوخ بن مالك بن فهم . . فدخلوا في دين النصـرانيـة فملّكهم ملك الـروم على من ببـلاد الشـام من العـرب . ويقـول المسعـودي : وردت سليح للشـام فتغلبت على تنـوخ وتنصـرت فملكهـا الروم على العرب الذين بالشام . وذكر مؤرخو النصرانية أسـماء مطـارنـة عرب في مطلع القـرن الثـالث الميـلادي ، كما أشـاروا إلى المساعدات التي كانت تقدمها كنيسة روما إلى كنائس الديار العربية (جورج قنـواتي ٤٥ ، لويس شيخـو ٣١) ووصل أحد العرب وهو (فيليبوس ، فيليب العـربي) إلى عرش إمـبراطورية روما ٢٤٤ ـ ٢٤٩ م . وهومن مواليد شهبا (جنـوب سوريـة) التي كانت بلدة صغـيرة تابعـة لبصرى ، ورغم أن فيليب تصـرف كإمـبراطور وثني ، إلا أنه كان في الواقع نصرانياً ، ومشهورة قصته في إنطـاكيـة عنـدمـا أراد المشـاركة في صلاة سبت النور ، فمنعه بطرك انطاكية (بابيلاس) إلا بعد أن يعترف ، وقد قبل الإمبراطور ، الذي يُظَنْ أن زوجته كانت نصرانية أيضاً ، وقد تحولت بلدته شهبا إلى مدينة وبنيت وتوسعت في عهده وسميت باسمه (فيليبوبولس) ، وقد حضر مطارنة عرب جميع المجامع التي عقـدت لبحث شؤون الـديـانـة النصـرانيـة ، وانقسامات رجال الدين والكنـائس ، وذلـك منـذ بدأت هذه المجامع . (جورج قنواتي ٤٥ ومابعد ، لويس شيخو) .

أما الغساسنة فهم قبائل عربية هاجرت من اليمن وسكنت جنوب سورية (حـوران والبلقـاء) وتغلبت على قضـاعـة وسليـح وتنصـرت . وهم من آل جفنـة . شكلوا ـ بعـد انتصارهم ـ إمارة في جنوب سورية وامتد نفوذ إمارتهم على جميع القبائل العربية في سورية من الرصافة حتى يثرب ، وسيطروا على هذه المنـاطق جميعهـا ، وكـانوا حلفاء للدولة البيزنطية ، تدعمهم وتساعدهم وتحـرضهم على العـرب الآخـرين ، كما كانـوا على صلات بعـرب الحجـاز

واليمن. وقد منح الإمبراطور جستنيان، الحارث بن جبلة الغساني عام ٥٢٩ م لقب فيلارك وبطريق وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور نفسه. وأعطاهم حكماً ذاتياً يديرون من خلاله شؤون حياتهم، وكان الإمبراطور البيزنطي يعمد أميرهم بالألقاب إلى أن ألغت بيزنطة الحكم الذاتي في نهاية القرن السادس وحكمتهم حكماً مباشراً.

قامت صراعات وحروب طويلة طوال القرن السادس بين الغساسنة اليعاقبة المتحالفين مع البيزنطيين وبين اللخميين النساطرة المتحالفين مع الفرس، ومن أشهر المعارك معركة وقعت جنوب تدمر في النصف الأول من القرن السادس حوالي ٥٣٠ م، وأخرى قرب قنسرين عام ٥٥٤ م، وثالثة بالقرب من (الحيار) وسماها الحارث بن حلّزة في معلقته المشهورة (يوم الحيارين)، ويرى نولدكه أنها نفسها معركة (يوم جليمه). وأخيراً معركة (عين أباغ) المشهورة، هذا فضلاً عن المناوشات بين الطرفين التي لم تنقطع، وعن التهديد المتبادل، والافتخار المتبادل والعداء الذي لم يفتر. ولعب الأساقفة الغساسنة دوراً هاماً في نشر النصرانية في بلاد العرب، وبناء الأديرة، سواء في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم أم على طريق التجارة بين الحجاز والشام، وقد سكن رهبان هذه الأديرة، وجعلوها محطات استراحة للقوافل، فيها الماء والطعام والشراب، ومراكز لنشر الدعوة النصرانية بين رجال القوافل خلال إقامتهم. ومازالت آثار هذه الأديرة باقية حتى الآن في مناطق جنوب سورية وشمال الحجاز، من دمشق حتى تخوم الجزيرة العربية على طريق التجارة القديم. مما كان له أثر على التبشير بالنصرانية بين رجال القوافل، وعلى نقل الثقافة النصرانية إلى الجزيرة العربية. وأرسلت الكنيسة والأساقفة الغساسنة عشرات الأساقفة إلى بلاد العرب المجاورة، وإلى الجزيرة العربية ليبشروا بالنصرانية، وسمي هؤلاء الأساقفة أساقفة

الخيام أو أساقفة أهل الوبر، وكان مطران بصرى وحده يشرف على عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان . وكانت الكنيسة البيزنطية ، تمول الأديرة وبعثات الأساقفة رغم خلافاتها مع الكنيسة المونوفيسية . وما هذا التمويل إلا لأسباب سياسية .

كان في جملة ما أسهم فيه رؤ ساء أديرة إقليم العربية وضع رسالة مضمونها دستور الإيمان ، كتبها أولئك الرؤ ساء ووجهوها إلى يعقوب البرادعي ، ردوا فيها على رأي يحيى النحوي في تثليث الجوهر الفرد ، وذلك بين السنتين ٥٧٠ و٥٧٨ للميلاد ، وقد وقعها ١٣٧ رئيساً لـ ١٣٧ ديراً في إقليم العربية الممتد من شرقي بلاد الشام إلى الفرات . (جواد علي ٦/ ٦٢٦ ، لويس شيخو) وهذا العدد يؤ كد الانتشار الكثيف للنصرانية وللأديرة في بلاد العرب .

لقد تأقلم الغساسنة بسرعة مع الثقافة والتقاليد السورية فتنصروا وكتبوا بالآرامية وكانوا ركيكي اللغة (أبو الفرج ، الأغاني) ولذلك لم يظهر بينهم شعراء فحول ، وكانوا يشجعون قدوم شعراء من مناطق أخرى مثل النابغة الذبياني والأعشى والمرقش وحسان الذي أصبح شاعر الرسول فيما بعد وغيرهم ، ليمدحوهم ويخلدوا أعمالهم . وكانت لهم لهجة خاصة بهم غير لغة قريش التي سادت الحجاز (أحمد أمين ، فجر الإسلام ٢٢) .

أما عرب سورية الآخرون فقد كانوا منتشرين في البادية السورية ، ومناطق غرب الفرات ، والجزيرة العليا . وشمال سورية ، وبعض مناطق البقاع وحمص وحلب وديار بكر وهي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل . . . وحدّها ما غرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة . . وقد يتجاوز دجلة إلى سعرت وحيزان وحيني وما تخلل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل . . . . وديار ربيعة بين الموصل إلى رأس عين نحو

بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين ودنيسر والخابور جميعه، وما بين ذلك من المدن والقرى، وربما جمع بين ديار بكر وديار ربيعة وسميت كلها ربيعة لأنهم كلهم ربيعة. وهذا اسم لهذه البلاد قديم، كانت العرب تحله قبل الإسلام في بواديه. واسم الجزيرة يشمل الكل.. وديار مضر هي ما كان في السهل بقرب من شرقي الفرات نحو حران والرقة... (ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤/ ٤٩٤).

وكان يسكن هذه الديار بنو نزار وفيهم ربيعة وتغلب القبيلة التي قيل في أهميتها (لو تباطأ الإسلام لأكلت تغلب العرب) وبنو بكر. أما بنو كلب فقد كانوا يسكنون غرب الفرات، والسماوة ووصلت ديارهم إلى تدمر والسلمية وحمص. وكانت حران لبني تميم والرها لبني سليم والخابور لبني عقيل في أعاليه ولبني مالك وحبيب الباقي. وسكنت تغلب في الأسفل وبهراء وقسم من تنوخ في حمص، وكنانة (وهي من كلب) سكنت في حماه وشيزر. وكان السواد والجزيرة نصارى من إياد. وكان حاضر قنسرين لتنوخ مذ أول ماتنخوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتغوا به المنازل: فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان.. وإن جماعة من أهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة أمير المؤمنين المهدي (البلاذري ١/ ١٥٠). وكان بقرب مدينة حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم، صالحهم أبو عبيدة على الجزية (البلاذري ١/ ١٥١). أي أنهم كانوا نصارى. كما كانت النصرانية في ربيعة (ابن قتيبة) ومن قبائل العرب المتنصرة بكر وتغلب ولخم وبهراء وجذام (السيرة الحلبية ٣/ ٩٥). وكان القديس سرجيوس شهيد الرصافة شفيع بني تغلب، فقد قال الأخطل:

لما رأونـا والـصـليـب طالعـا	ومـار سرجيس ومـوتـاً ناقعـا
وأبـصـروا رايـاتنـا لوامعـا	خلوا لنـا راذان والمـزارعـا

وقال جرير:

فبـالصليب ومـار سرجيس تتقي	شهبـاء ذات منـاكب جمهـورا

وعـدد ياقـوت في معجم البلدان (ج ٢) عشـرات الأديـرة في منـاطق سكنى القبـائـل العـربيـة. وقـد اكتشف أثـر نصراني قرب حلب كتب عام ٥١٢ م بثلاث لغات هي اليونانية والسريانية والعربية، حيث نقر على حجر تذكـار الشهيـد القـديس سرجيـوس (لـويس شيخو١٠٣) وقال ياقوت عن القـريتـين إن سكانها كلهم نصارى (ياقوت٤ / ٣٣٦). ويقول ابن عساكر إن بنو كلب كانوا كلهم نصارى (ابن عساكر، تاريخ دمشق) وأسلمت كلب غير مدرهـا كانـوا نصـارى (يـاقوت) وهم مسلمون في أخلاق نصارى (ابن الفقيـه، كتـاب البلدان) وإن بعض من أسلم منهم كانوا يضربون الناقوس ويترددون إلى الكنيسة التي تعمدوا فيها (ابن قتيبة).

وبـالاجمـال كان عرب سوريـة يدينـون بالنصرانية (دوزي المستشرق الهولندي) وطبيعي أن يكون انتشار النصرانية في العرب ببلاد الشام واضحاً ظاهـراً أكثـر منـه في أي مكـان آخـر. . . فقـد كان لعرب هذه الديار علاقة مبـاشـرة واتصال ثقافي بغيرهـم من سكان هذه البلاد الذين دخل أكثرهم في الـديـانـة النصرانية، والذين صارت هذه الديانة ديانة بلادهم الرسمية بعد دخول الروم فيها واتخاذهم النصرانية ديناً رسمياً للدولة منذ تنصر أول قيصر

من القياصرة، فكان من أول واجبات الروم السعي في تنصير الشعوب الخاضعة لهم، لاتقرباً إلى الله وحده، بل لتمكين سلطانهم عليهم، وإخضاعهم روحياً لهم. ولهذا كان من سياسة البيزنطيين نشر النصرانية بين أتباعها في الخارج وإرسال المبشرين والإغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير. (جواد علي ٦/ ٥٩٠).

إذن لقد وجدت النصرانية لها سبيلاً بين عرب بلاد الشام والعراق، . . . وانتشرت بين عرب بلاد الشام بنسبة تزيد على نسبة انتشارها بين عرب بلاد العراق، وهو شيء طبيعي، فقد كانت بلاد الشام تحت حكم البيزنطيين وديانتهم الرسمية هي الديانة النصرانية، وكانوا يعملون على نشرها وترويجها بين شعوب (إمبراطوريتهم) وبين الشعوب الأخرى، لاسيما التي لها مصالح اقتصادية معها. ففي نشر النصرانية بينهم وإدخالهم فيها، تقريب لتلك الشعوب منهم، وتوسيع لنفوذهم السياسي بينهم، وتقوية لمعسكرهم المناهض لخصومهم الفرس. . ولهذا سعت القسطنطينية لإدخال العرب في النصرانية، وعملت كل ما أمكنها عمله للتأثير على سادات القبائل لإدخالهم في دينها، بدعوتهم لزيارة كنائسها وبإرسال المبشرين اللبقين إليهم، لإقناعهم بالدخول فيها، وبإرسال الأطباء الحاذقين لمعالجتهم، وللتأثير عليهم بذلك في اعتناق النصرانية. (جواد علي ٦/ ٥٩٠ ـ ٥٩١). وقد نشرت النصرانية تعاليمها بين العرب، وأوجدت فيهم من يميل إلى الرهبنة ويبني الأديرة. . . وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب، ويعظون ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب، والجنة والنار. وقد ورد في القرآن كثير من الآيات تحكي أقوالهم وتفند مذاهبهم، مما يدل على انتشار هذه التعاليم بينهم. (أحمد أمين، فجر الإسلام ٢٧).

اللخميون وعرب جنوب العراق وغرب الفرات : أقام اللخميون مملكتهم في الحيرة بين الجزيرة العربية والعراق ، وهم عرب يمنيون هاجروا من جنوب الجزيرة العربية ، وتنصروا على المذهب النسطوري . ورغم أن النصرانية لم تكن ديانة الفرس إلا أنها انتشرت في العراق لأن الفرس لم يكونوا يبشرون بدينهم ، ولم يكن يهمهم دخول الناس فيه ، إذ عدت المجوسية ديانة خاصة بهم . . ثم إن النصرانية التي انتشرت فيها لم تكن من النصرانية المتشيعة للروم ، ولهذا لم تجد الدولة الساسانية ما يهدد سياستها بالأخطار ، فغضت النظر عنها . (جواد علي ٦/ ٥٩٥) . وكان النظام المتبع أن عرب الحيرة يقدمون الطاعة لملك فارس ، وهويولي عليهم أميراً من أنفسهم ، وعليهم أن يحموا فارس من كل مغير من نواحيهم ، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الأتاوة (أحمد أمين ، فجر الإسلام ١٦) . وفوق هذا كان عرب الحيرة أكثر استقلالاً ، فهم لا يرتبطون بفارس إلا بما توجبه المعاهدات عليهم ، وقد اعتاد ملك الفرس أن ينصب أميراً من قبيلة لخم ، وإذا مات الأمير عين من يختاره من بيته . وكان عرب الحيرة إذ ذاك في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب لخصب أرضهم ، وغنى إقليمهم ، وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة ، يحملون إليهم التجارة الفارسية ويبيعونها في أسواقهم ، ويبشرون بالفرس ومدنيتهم . (أحمد أمين ، ١٧) .

وكما رأينا ، كان المناذرة على صراع وحروب مع الغساسنة في جنوب سورية ، وقامت بينهم معارك عديدة دامية ، وكان الصراع قبلياً ودخل فيه العامل الديني (المناذرة نساطرة والغساسنة يعاقبة) ، كما أثرت فيه المصالح الحيوية لكل من الطرفين المتصارعين ، وتشجيع حماتهما الفرس والبيزنطيين على استمرار الصراع ، وكأنها حرب بالوكالة عن الدولتين العظميين . واستمر تحالف اللخميين مع الفرس حتى ظهور الإسلام ، إذ كان عليهم

حماية خط التجارة مع جنوب الجزيرة والمحيط الهندي ، إلا أن علاقتهم بالفرس كانت علاقة تعاقدية حسب معاهدات واتفاقات ، تضمن لهم حكماً ذاتياً تحت أمير منهم يعينه الفرس ، ولكن هؤلاء مالبثوا أن ألغوا هذه الاتفاقيات ، وعينوا حاكماً فارسياً مباشراً على اللخميين في عام ٦٠٢ م ، وأسروا النعمان الثالث ، وألغوا إمارة اللخميين . وكان المنذر بن النعمان هو آخر أمراء اللخميين عند مجيء الفتح الإسلامي ، وصالح خالد بن الوليد المنذر على دفع الجزية .

لم يكن اللخميون وحدهم في الحيرة ومناطقها ، فقد كان هناك بنو تنوخ (وتنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين وتحالفوا على التناصر وأقاموا هنا وسموا تنوخاً) (ابن خلكان) ، وهي قبيلة هامة من قبائل العرب ، وكانت هناك أيضاً بهرة وبعض إياد ووائل ومن قادتهم المشهورين حنظلة بن ثعلبة من بكر بن وائل وقد سادهم في ذي قار ، وهناك شيبان كعب بن عدي التنوخي (وهو من نصارى الحيرة ، كان أبوه أسقفاً على مدينة الحيرة ، وكان هو يتعاطى التجارة ، وله شركة في التجارة في الجاهلية مع (عمر بن الخطاب) في تجارة البز ، وكان (عقيداً) له ، قدم المدينة في وفد من أهل الحيرة إلى النبي) (جواد علي ٦ / ٥٩٦) ، وجميع هذه القبائل صالحت خالد بن الوليد على دفع الجزية عند فتح الحيرة ٦٣٢ م ، أي أنها كانت نصرانية .

يختلف المؤرخون حول تاريخ دخول النصرانية إلى الحيرة ، فبعضهم يعيده إلى وقت مبكر (أواسط القرن الرابع الميلادي) والبعض الآخر يجعله بالقرن الخامس ، ومن المرجح أن هذا التاريخ هو الأصح ، لأنه القرن الذي انشقت فيه النسطورية ، وبدأت تنتشر في العراق بعد هجرتها من سورية ، واعتبارها مذهباً هرطوقياً . وعلى أية حال فمن المؤكد أن النصرانية كانت على انتشار واسع في الحيرة في القرن السادس الميلادي .

نشطت كنيسة الحيرة النسطورية نشاطاً تبشيرياً واسعاً، فأرسلت المبشرين إلى مختلف المناطق العربية: إلى البحرين وهجر وحضرموت واليمن وغيرها، وقامت ببناء الأديرة في مختلف هذه المناطق: كان أهل ثلاثة بيوتات يتبارون في البيع وربها، أهل المنذر بالحيرة وغسان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران، وبنوا دياراتهم (أديرتهم) في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران، وجعلوا في حيطانها الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور. (البلاذري ٢/ ٥٣٨).

وأدرج ياقوت بين طيات معجمه أسماء عشرات الأديرة (الديارات) التي كانت قائمة في مناطق التجمعات القبلية أوعلى طريق التجارة إلى جنوب الجزيرة العربية والمحيط الهندي. وما من شك في أن هذه الأديرة لعبت دوراً تبشيرياً كبيراً بين القبائل العربية، بسبب اختلاط الرهبان بالناس، ولأن معظم الأديرة كانت محطات استراحة إلزامية لقوافل التجارة بسبب مواقعها وإمكانياتها، فضلاً عن أن بناءها وتزيينها كانا يدهشان أهل الوبر، ويجعلانهم يحسون بعظمة الدين الذي يعود إليه الدير. ومن أهم الأديرة وأشهرها دير هند الكبرى وهو بالحيرة، بنته هند أم عمرو بن هند (ابن المنذر بن ماء السماء)، وكان في صدره مكتوب: بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده، في ملك ملك الأملاك خسرو أنو شروان في زمن مار أفرايم الأسقف، فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها، ويقبل بها وبقومها إلى إقامة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر. (البلاذري ٢/ ٥٤٢).

وقد خرجت مدينة الحيرة عدداً من رجال الدين، مثل مار إيليا وأصله من الحيرة، والقديس حنا نيشوع، وهو من عرب الحيرة ومن عشيرة الملك

النعمان، والقديس ماريوحنا، وهوشاع الذي حضر مجمع اسحق الجاثليق عام ٤١٠ م، وشمعون الذي أمضى أعمال مجمع (يهبالا) الذي انعقد ٤٨٦ م، وشمعون الذي حضر مجمع (أقاق) و(إيليا) المنعقد سنة ٤٨٦ م، وأمضى في سنة ٤٩٧ م مجمع (أباي)، و(ترساي) الذي تحزب سنة ٥٢٤ م لنرساي الجاثليق ضد (اليشاع) و(افرام) و(يوسف)، وقد حضر مجمع (أيشو عياب الأرزني) الذي انعقد سنة ٥٨٥ م، وشمعون بن جابر الذي نصّر الملك النعمان الرابع في سنة ٥٩٤ م. (جواد علي ٦/ ٥٩٧).

كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير في الأدب العربي والحياة العقلية للعرب عامة، فأحاديث جذيمة الأبرش وأساطير الزباء (وهما من الحيرة قبل إنشاء إمارتها) والخورنق والسدير والتغني بهما وبعظمتهما، والأقاصيص حول سنمار باني الخورنق والأمثال التي ضربت فيه، ويوما النعمان: يوم نعيمه ويوم بؤسه، كل هذه وأمثالها شغلت جزءاً كبيراً من الأدب العربي، وكلها تتعلق بعرب الحيرة وحياتهم. (أحمد أمين، فجر الإسلام ١٨).

الحجاز ونجد: كانت التشكيلة الاجتماعية العربية في الحجاز ونجد تختلف عن المجتمعات الثلاث الرئيسة الأخرى: اليمن، بلاد غسان، الحيرة. فقد كانت هذه المجتمعات الأخيرة أكثر تمدناً وتحضراً من سكان الحجاز ونجد الذين كان أغلبهم من أهل الوبر، بينما كانت في مناطق المجتمعات الثلاثة الآنفة الذكر مدن مستقرة إلى جانب القبائل المتنقلة مثل نجران وظفار وبصرى وتدمر. ولكن لم تكن الحجاز ونجد خالية من المدن بل كان بها مكة ويثرب والطائف وغيرها.

إن موقع المجتمعات الثلاثة على تخوم الجزيرة، مجاورة لإمبراطوريات كبرى: فارس وبيزنطة والحبشة، جعلها تعقد صلات

تجارية وثقافية وحضارية مع هذه الإمبراطوريات، وأدى ذلك مع أسباب أخرى، إلى اختلاف تقاليدها وثقافتها ولهجاتها وكتابتها ودياناتها عن مثيلاتها في الحجاز ونجد، وقد كان هناك في الواقع مجتمعات لكل منها خصوصيته، رغم الإطار العام الذي يجمعها.

سكنت الحجاز ونجد قبائل عربية كبيرة، فقبيلة طيء كانت تسكن جبلي أجا وسلمى (جبلي طيء)، وطيء من أشهر القبائل العربية، حتى أن السريان والفرس كانوا يسمون العرب طيئاً. (أحمد أمين). وكان بنو الحارث يسكنون الجنوب الشرقي للطائف، وبنو وائل وبنو حنيفة في اليمامة، وخزاعة في الحجاز ومنهم الأوس والخزرج، وجهينة وعذرة في وادي إضم في الحجاز، وأسد في اليمامة وشمال وادي الرمة، وقيس غيلان ومنها هوازن وسليم، ومنهم غطفان (عبس وذبيان) في الجزء الغربي من نجد، وهذيل سكنت جبالاً قريبة من مكة، وكنانة (ومنها قريش) كانت تسكن جنوب الحجاز.

لم تنتشر النصرانية في الحجاز ونجد كما انتشرت في مناطق التخوم العربية، لا من حيث عدد المتنصرين، ولا حتى بالمفهوم اللاهوتي نفسه، أو أسلوب التعامل معها إيماناً وسلوكاً، ولكن الإخباريين يؤكدون وجود نصارى في نجد والحجاز قبل ظهور الإسلام. انتشرت النصرانية بينهم بطرق ثلاث:

الأولى: الهجرة والتبشير، حيث بدأ التبشير النصراني نتيجة لهجرة النصارى المبكرة إلى جزيرة العرب، ويرى بعض المؤرخين أن أول هجرة نصرانية بدأت عام ٧٠ م بعد تدمير أورشليم، ثم توالت الهجرات كلما حصل اضطهاد في فلسطين، وهجرات نصرانية ويهودية. وهجرات مجموعات عقائدها مزيجاً من اليهودية والنصرانية وجدت سبيلها إلى جزيرة العرب مثل الأبيونيين والناصريين والكسائيين. فالأبيونيون جماعة من قدماء

اليهود المتنصرين، معتقداتهم مزيج من اليهودية والنصرانية، وهم يعتقدون بوجود الله الواحد خالق الكون، وينكرون رأي بولس الرسول في المسيح، ويحافظون على حرمة يوم السبت. وبعضهم آمن أن المسيح بشر وأنكر الصلب، وأن الذي صلب هوغير المسيح وقد شبه على من صلبه. والناصريون اعترفوا بألوهية المسيح وحافظوا على شريعة موسى، أما الكسائيون فقد كانوا يحافظون على الختان وحرمة يوم السبت، وكانوا يتوجهون بصلاتهم نحو بيت المقدس، ويعتقدون بوجود إله واحد وباليوم الآخر وبالملائكة. (جواد علي ٦/ ٦٣٤ - ٦٣٦). وبالإجمال كانت هناك هجرات لنصارى اضطهدتهم بيزنطة أو اختلفت معهم، بالإضافة إلى أن المناذرة والغساسنة، بشروا في الجزيرة وبنوا أديرة على خطوط التجارة وفي المدن الحجازية، وأرسلوا رهباناً، قاموا بعمليات تبشير.

الثانية: الرقيق الذي كان كثيراً في نجد والحجاز، بعضه من الحبشة ومعظمه من أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، وكان معظم الأرقاء نصارى لهم دينهم وثقافتهم المتطورة، وكانوا يقرأون ويكتبون، مطلعين على حضارة الرومان واليونان والفرس، وقد لعبوا دوراً هاماً في نشر المسيحية. وقد ذكرت كتب الأخبار عديداً من أسماء هؤلاء الرقيق، وفصلت في الأدوار التي لعبوها، وبدورهم الديني والثقافي، حتى أن المشركين اتهموا الرسول في بدء الدعوة بأنه يأخذ منهم ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ (النحل - ١٣).

الثالثة: التجارة حيث كان الحجازيون والنجديون يسيطرون على مقاطع هامة من طرق التجارة بين المحيط الهندي وجنوب الجزيرة العربية من جهة، وبين بلاد الشام والعراق ومصر من جهة أخرى. ثم مالبثوا أن سيطروا هم أنفسهم على العملية التجارية برمتها، وأخذوا يسيّرون

القوافل، حتى أصبحت التجارة مصدراً هاماً من مصادر عيشهم إضافة إلى الرعي وبعض الزراعة. وكانت مكة وسيدتها قريش في نهاية القرن السادس الميلادي، سيدة لخط التجارة الغربي بلا منازع. وقد جعلتهم التجارة يتصلون بعرب اليمن وعرب بلاد الشام ومعظمهم من النصارى، فضلاً عن اتصالهم بأطراف الدولة البيزنطية وأقباط مصر، مما أدى بهم إلى الاطلاع على النصرانية وفلسفتها ولاهوتها وانقساماتها، وعلى حضارات وثقافات أخرى غير ثقافتهم وأكثر منها تقدماً، فضلاً عن تماسهم مع الرهبان في الأديرة على طريق القوافل، ويشير المؤرخون والإخباريون العرب جميعهم إلى لقاء محمد بن عبد الله مع راهب بصرى (بحيرى)، عندما كان محمد فتى يافعاً يرافق قافلة قريش المتجهة إلى دمشق.

انتشرت النصرانية بين قبائل نجد والحجاز فكان نصارى في بني شيبان ومنهم النابغة الشيباني، وكانوا في إياد ومنهم قس بن ساعدة الأيادي، ويقال إنه كان أسقف نجران، والبعض يقول أسقف مكة، وهو أول من قال (أما بعد) و(البينة على من ادعى واليمين على من أنكر)، وكان خطيب العرب كافة، وأن الرسول قال فيه (يحشر أمة وحده) أو يرحم الله قساً، إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة واحدة) (جواد علي ٦/ ٤٦٦، الأغاني) وتنصر من العرب قوم من قريش من بني أسد بن عبد العزي منهم عثمان بن الحويرث بن أسد الذي قدم على قيصر فتنصر وحسنت منزلته عنده، ومنحه لقب بطريق وأراد تنصيبه ملكاً على مكة، ولكن قومه أبوا عليه ذلك، فلم يتم له مراده (ابن هشام ١/ ٢٤٣) وبعث له من دس له السم وهو في ديار الغساسنة، ومنهم أيضاً ورقة بن نوفل بن أسد: وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل (موجز ابن هشام ٤٨) وكان يكتب الكتاب العربي، والكتاب العبراني من الإنجيل. (اليعقوبي ١/ ٢٩٨،

ابن الأثير ٢ / ٢٣٨). وتنصر من بني ثقيف أمية بن أبي السلط، وهو أول من قال (باسمك اللهم). وترى ديوانه مشحوناً بتعاليم النصارى مع منقولات متعددة عن الأسفار المقدسة، كسفر الخليقة وخلقة آدم، وسقوط الأبوين الأولين بإغراء الحية والطوفان وذكر الأنبياء والملائكة والسيد المسيح ومريم العذراء. (لويس شيخو ١٢٠). وكان شاعراً مات دون أن يسلم، وسافر إلى الشام واتصل بأهلها، وآوى إلى الأديرة ورجال الدين يسألهم مايهمه من مشكلات دينية، وكان قارئاً كاتباً (الأغاني ٤ / ١٢١). ومن ثقيف أيضاً تنصر الحارث بن كلدة طبيب العرب في وقته. ومن الخزرج كان على النصرانية أبو قيس صرمة بن أنس بن مالك من بني عدي بن النجار من الخزرج، وروى ابن الأثير في أسد الغابة عنه أنه (ترهب في الجاهلية ولبس المسوح) وكان يلقب بالراهب، وتنصر كثرة من بني طيء منهم عدي بن حاتم الطائي الذي بقي على نصرانيته حتى بعد مجيء الإسلام؛ وقابل الرسول وصليبه المذهب على صدره. وقد نقل لويس شيخو عن الأزرقي (في أخبار مكة ٥٠١) أنه كانت توجد مقبرة للنصارى في مكة في دير المقلع على طريق بئر عينه بذي طوى، والمقلع هو الجبل الذي بأسفل مكة على يمين الخارج إلى المدينة، وأنه كانت توجد كنيسة نسطورية في عكاظ، وأخرى في طيء وثالثة في كنده في نجد، وكان دير سعد في بلاد غطفان ودير عمرو في جبال طيء (لويس شيخو ١١٨)، ويرى بعض المؤرخين والنصارى منهم خاصة أنه لولا وجود نصارى في يثرب لما جاء في رثاء شاعر الرسول حسان:

فرحت نصارى يثرب ويهودها — لما توارى في الضريح الملحد

وروى بعض الإخباريين أن الرسول وضع يده في الكعبة على صورة مريم العذراء والسيد المسيح عندما أريد إزالة الصور من جدرانها، وتحطيم الأصنام. ويروي ابن الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي عن هذه الحادثة الرواية التالية: فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فبلّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست. قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال: إمحوا جميع الصور إلا ماتحت يدي فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه.... (الأزرقي ١١١ عن لويس شيخو ١١٧).

وعلى كل حال كان للنصارى في الحجاز ونجد وجود دون شك، كما كان لهم علم باللغات الأخرى كالسريانية والعبرية واليونانية، واطلاع على التيارات العلمية والثقافية.

الأقباط: سكن الأقباط مصر منذ آلاف السنين، وقد اختلف الباحثون في أصل تسميتهم، فبعض المؤرخين يرى أن هذه التسمية أتت من الكلمة اليونانية (إيجبتوس) التي أطلقها اليونان على مصر والنيل، ويرى البعض الآخر أنها أتت من كلمة (كوبتوي) التي أطلقها الإغريق على سكان مصر لأنهم كانوا يختنون أطفالهم وتعود إلى كلمة قفط المشتقة من كلمة حكْفَت المصرية القديمة (حكوفتاع وتعني أرض الإله فتاع وهي منفيس القديمة)، ومهما كان أصلها فقد أطلقت بالنهاية على المسيحيين المصريين الذين بقوا على ديانتهم بعد مجيء الإسلام. (أبو سيف يوسف ١٦). وكذلك اختلف المؤرخون في تحديد أصول الأقباط، فيما إذا كانت أصولاً سامية أم حامية أم خليطاً من الإثنين، وأورد كل طرف استدلالات عديدة لإثبات فرضيته. وعلى أية حال فمهما كانت أصولهم العرقية، أو

ثقافتهم المحلية، فإن علاقاتهم بشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام لم تنقطع أبداً. وكان التأثير المتبادل قائماً بين هذه المناطق الجغرافية وتكتلاتها السكانية، في مختلف جوانب الحياة التجارية والثقافية فضلاً عن الهجرات المستمرة طوال التاريخ، والحروب والصراعات العسكرية. وكان البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء أدوات الوصل بين هذه المناطق. ولعب البحر دوراً كبيراً بشماله وجنوبه في عقد الصلة بين الأقباط وبين الأحباش، وبينهم وبين سكان الحجاز واليمن، كما لعبت سيناء مثل هذا الدور بينهم وبين سكان بلاد الشام منذ أول التاريخ.

كانت الصلات بين هذه الأقوام صلات تجارية، وكذلك حصلت نتيجة الهجرات لأسباب اقتصادية، أو بسبب الاضطهاد، هذا إضافة إلى الحروب والصراعات العسكرية. والمستعرض لأحداث التاريخ يلاحظ عدم انقطاع هذا الاتصال، وبالتالي يدرك عمق النتائج الثقافية والاجتماعية والاقتصادية النابعة عنه.

سكن العرب الشاطىء الأعلى للنيل، واستوطنوا جبال سيناء والمنطقة الصحراوية الممتدة بين مصر وفلسطين. وتركزت قبائل عربية قبل الإسلام في إقليم الشرقية (وخاصة من جذام ولخم)، ودعت الإدارة الحكومية هذا الإقليم (الإقليم العربي). (أبو سيف يوسف ٤٩). ويقول المقريزي إنه (كان العرب جالية في الاسكندرية قبل الإسلام، وأن حاكم مصر أقطع بعض نصارى غسان منطقة تنيس). (أبو سيف يوسف، نفسه). ثم جاءت الفتوحات الإسلامية وتدفقت موجات الهجرة العربية، حاملة معها دينها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها. وانطلاقاً من متانة العلاقات واتساعها وعمق الصلات بين الأقباط وسكان شبه الجزيرة العربية طوال التاريخ، ونتيجة انطباع لغة المصريين القديمة بالطابع السامي في وقت مبكر

من التاريخ، فقد رأى بعض الباحثين أن عروبة مصر ليست ظاهرة حديثة، ولا ترجع إلى عهد الفتوح الإسلامية، بل ترجع إلى ما قبل التاريخ المسجل المكتوب . . . وحتى إذا لم نشأ القول بأن المصريين القدماء عرب، فإن عوامل الامتزاج قد عملت بينهم . (محمد عوض محمد . الشعوب والسلالات الإفريقية، عن الأقباط ٣٣٠ ـ ٣٣٢) .

إن العلاقات القبطية العربية قديمة العهد، فقد كانت مع الأنباط الذين تكاثروا على العدوة الغربية من البحر الأحمر، حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في أعالي الصعيد، وحتى أصبح نصف سكان مدينة (قفط) منهم، وكانت لهم جمال ينقلون عليها التجارة بين البحر والنيل.. (أبو سيف يوسف ٤٩)، كما كانت مع العرب التدمريين أيضاً وإن بشكل أقل، حيث بسطت تدمر بقيادة أذينة قائد جيوش روما في الشرق في العصر الروماني نفوذها بصورة رسمية على مصر، ثم تحدت تدمر روما أيام زوجته زنوبيا (أواخر القرن الثالث الميلادي) وغزت مصر وحكمتها لفترة قصيرة، ونودي بابنها ملكاً على البلاد، (فيليب حتي، ١٠٣ ـ ١٠٧) .

كان القبط فلاحين، ولهم حضارتهم وخصوصيتهم الثقافية، وكان ارتباطهم بأرضهم وبلادهم متيناً وراسخاً في كل مراحل التاريخ، وما زال حتى الآن . وبدأ انتشار النصرانية بينهم في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، على يد القديس مرقس، الذي بدأ دعوته في مصر عام ٦٨ م، ويرى الدكتور جمال حمدان أن المصريين طوعوا المسيحية وطبعوها بطابعهم القومي . (أبو سيف يوسف ٣٣)، ويرى مجمل المؤرخين رأيه، وقد أثبت الأقباط ذلك على مدى الألف والخمسماية عام الماضية، وخاصة في مواقفهم المعادية للبيزنطيين والصليبيين وحملة نابليون وغيرها كما سيأتي . وقد كان الأقباط من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيسية) مثلهم مثل السريان

والأرمن والأحباش والغساسنة. وتبنوا هذا المذهب ودافعت عنه كنيسة الاسكندرية في المجامع المسكونية كلها. ولم تستطع الكنيسة الملكية وهي الكنيسة البيزنطية الرسمية أن تزحزحهم عن مذهبهم هذا. وصار مذهب الطبيعة الواحدة ديانة قومية للأقباط، ولذلك كانت علاقاتهم حسنة دائماً مع أتباع هذا المذهب في بلاد الشام (الغساسنة والسريان)، وكان الأقباط ملجأ لهاتين الفئتين ومضيفاً لهما على الدوام، وأقاموا معهما علاقات واسعة ومتعددة الجوانب.

استمر الخلاف والتناقض دائماً بين أباطرة روما وبيزنطة وبين القبط، بسبب الخلاف المذهبي من جهة، واضطهاد الحاكم للمحكوم من جهة أخرى، وعندما دخل القبط القرن السابع الميلادي كانت أزمة المجتمع قد استعصت على الحل، وهنا حاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) أن يعيد الوحدة إلى جسم الإمبراطورية الممزق، فطرح مذهباً دينياً جديداً هو (المونوثيلية) أي (وحدة المشيئتين الإلهية والإنسانية في المسيح)، وحاول أن يفرضه فرضاً على كنيستي الإسكندرية وإنطاكية، غير أن محاولته أخفقت، فلجأ إلى استخدام أشد العنف، وهنا دخلت مصر في الفترة التي سبقت الفتح العربي بسنوات قليلة، والتي يسميها بعض المؤرخين (عهد العذاب الأعظم). وفي هذا العهد أجبر البطريرك بنيامين الأول (٦٢٣ - ٦٦٢ م) على ترك كرسيه وتخفى قرابة عشر سنوات، وتشرد الأساقفة والقسس، وأرغم الكثيرون من الأهالي - بما في ذلك عدد من رجال الدين - على التنكر لعقيدتهم. وحدث هذا كله في وقت احتدم فيه سخط الشعب، واختل الأمن وتردت التجارة والصناعة «وكانت هذه الأحوال كلها باعثاً للمصريين على الترحيب بالعرب، يحدوهم الأمل في أن يتمتعوا بحياة فيها راحة وطمأنينة». (أبو سيف يوسف ٤٣).

كانت الكنيسة الملكية تضطهد أضحاب الطبيعة الواحدة وتمارس عليهم العسف والحيف؛ وكان هؤلاء يحقدون على الملكيين، ويضمرون لهم الانتقام والشر. وكان بنيامين بطرك الاسكندرية قد ابهظه نير الملكيين، ويستثقل سلطتهم على أصحاب الطبيعة الواحدة ويتحيّن الفرصة للثأر منهم، فعاهد المسلمين، واتفق معهم، وسلّم إليهم الاسكندرية وبلاد مصر؛ فأكرموه وأحسنوا إليه، وأفازوه بأمانيه. وصار الأقباط عوناً للمسلمين على الملكيين وكتب الخليفة عمر بن الخطاب لبنيامين البطريرك أماناً في سنة اثنتين وأربعين وستمائة. وخرج إلى عمرو بن العاص عامل عمر بن الخطاب، من الأديرة التي ببرية الأسقيط والصعيد، سبعون ألف راهب يعقوبي، بيد كل راهب عكاز، وسلموا عليه، فكتب لهم عهداً. فتغلب اليعاقبة على كنائس مصر ودياراتهم كلها، وانفردوا بها دون الملكيين. وهرب جاورجيوس بطريرك الملكيين إلى القسطنطينية، وتضعضع أمر الملكيين في الاسكندرية ومصر؛ وبقوا سبعاً وتسعين سنة بغير بطريرك، من عهد عمر بن الخطاب إلى هشام بن عبد الملك. (الأب بولس سباط ١١).

أما المردة فقد سكنوا منطقة وعرة شمال غرب سورية على جبل اللكام كانت تسمى جرجومة فسموا بالجراجمة، وكانوا يتمتعون أيام البيزنطيين بما يشبه الحكم الذاتي. وهم نصارى سوريون. وعندما فتح أبو عبيدة إنطاكية صالحهم على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً لهم، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينقلوا أسلوب من يقتلون من عدو المسلمين، إلا أن الجراجمة كانوا (يستقيمون للولاة مرة ويعرجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم). (البلاذري ١٦٤)، وكان الروم يرسلونهم مع جيوشهم لغزو البلاد التي فتحها المسلمون، واختلطوا في شمال لبنان بالموارنة. ثم اضطر معاوية أن يدفع لملك البيزنطيين فريضة لئلا يحرضهم على غزو بلاد المسلمين وفريضة

أخـرى لهم، ومثله فعـل عبـد الملك بن مروان، فكـان يدفع لهم ألف دينار أسبوعياً. وأخيراً أرسل لهم الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك فدمر عاصمتهم جرجومة، وانضمت جماعة منهم إلى جيوش المسلمين، وفي عهد يزيد الثاني شاركوا في إخضاع فتن قامت في العراق.

ويعـود الموارنـة، إلى القـديس مارون وهـو راهب متعبـد متقشف لايعـرف عن حيـاتـه الكثير عاش بين انطاكية وقورشية، وكانوا منتشرين في منبج وحمص والبلدان الجنـوبيـة أي الـواقعـة جنـوب حمص بما فيها لبنان، (بطـرس ضو)، ثم لجأوا بعـد حروب مع اليعـاقبـة إلى لبنـان الشمالي حيث امتزجوا بالمردة. وتشبث الموارنة بالعزلة، وأنشأوا ضرباً من الفردية التي طالما تميـز بها أبنـاء الجبـال، (فيليب حتي ٢ / ١٤١). وربـما كانـوا من أصحاب الطبيعـة الـواحـدة، لكنهم عادوا إلى حضـيرة الكنيسـة الكـاثـوليكيـة عام ١١٨٠ م. وحافظت كنيستهم على طقسها السرياني حتى الآن، وقد لجأوا بعـد خلاف مع اليعـاقبـة إلى معاوية بن أبي سفيان ليحكم بينهم، وحكم ضد اليعـاقبـة وفـرض عليهم دفـع عشـرين ألف دينـار سنـوياً إليه احتفاظاً بحـمايتـه وحتى يأمنـوا الاضطهاد. (بطرس ضو، تاريخ الموارنة، عن فكتور سحاب ١٣٧).

الخاتمـة:

كان النصارى العرب معادين بالتأكيد للدولتين الفارسية والبيزنطية، لأن الـدولـة البيـزنطيـة، أخـذت تسعى منـذ أواخـر القرن الرابع الميلادي (خـاصـة أيـام الإمبراطور تيودوسيوس) إلى محاربة جميع المذاهب النصرانية الأخـرى. . . ففي مجزرة بيـزنطية واحدة قتلت الدولة مئتي ألف قبطي من

أنصـار الطبيعـة الـواحـدة . . . . وعندما فتح العرب مصر كان الاكليروس القبطي مختبئاً في الصحارى هرباً من التصفية . . . ولم تنتشـر اليعقوبية إلا في المجتمعـات العـربيـة ـ الآرامية ـ القبطية وفي أرمينيا ، وهي جميعاً مجتمعات كانت تسعى إلى التخلص من الحكم البيـزنطي والسـاسـاني . (فيكتـور سحاب ١١ و١٤ و١٨) . وكان النصارى المشارقة يتعرضون دائماً للاضطهاد والظلم من البيزنطيين ، ويقول البطريرك ميخائل السرياني بهذا المجال (لأن الله هو المنتقم الأعظم ، الذي وحده على كل شيء قدير ، والذي وحده إنما يبـدل ملك البشـر كيفما يشاء ، ويرفع الوضيع بدلاً من المتكبر ، ولأن الله قد رأى ما كان يقـترفـه الـروم من أعمال الشـر ، من نهب كنـائسنـا وديـاراتنا ، وتعـذيبنـا بدون أيـة رحمـة ، فإنـما قد أتى من منـاطق الجنـوب ببني اسماعيل لتحـريـرنا من الروم . . . . وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الروم وشرورهم ، وحقدهم واضطهاداتهم وفضاغاتهم نحونا) ، (عن ادمون رباط ٢٦) . ويقول دي غوج المستشرق الهولندي : منذ أبعد الأزمنة كانت سورية موطنـاً للعـرق السامي ، وعلى الرغم من أن الحكومة كانـت في عهد بيزانطيا متمـركـزة في القسطنطينيـة ، فإن الشعب كان بمعظمـه سامياً وحتى عربياً ، ولذلك لم يكن من أثر الفتح العربي الاستيلاء على قطر غريب ، الغاية منه جبـايـة الضـرائب من سكانه ، وإنما تحرير جزء من الوطن العربي الذي كان رازحـاً تحت طغيـان الاحتـلال الأجنبي ، وبـالتـالي استعادة عدد عظيم من المـواطنـين المهيئـين نفسياً لإشراكهم بالدفاع عن مجد الله ونبيه . (عن ادمون رباط ٢٧) .

لقـد رأينـا الحـال الـذي كان عليـه أقبـاط مصـر قبيـل الفتح العربي الإسـلامي ، ولم يكن حال الغسـاسنـة بأفضـل منهم ، فقـد أقـال الـرومـان (البيزنطيون) المنذر بن الحارث الغساني وقبضوا عليه بمناسبة تدشين كنيسة

ونفوه إلى صقلية عام ٥٨١ م، وكان لابنه النعمان الذي خلفه نفس المصير، مما يدل على أن الثقة بين روما والغسانيين انعدمت، فحل الرومان هذه الدويلة، واختارت القبائل قادة لها وحاولت أن تعيش حياة قبلية مستقلة. (جورج قنواتي ٥٢). أما اللخميون، فإثر خلاف النعمان الثالث مع خسرو، أسر الفرس النعمان ونقلوه إلى بلادهم فمات فيها سنة ٦٠٢ م، وانتهت هكذا إمارة اللخميين، وأصبحت مقاطعة فارسية يحكمها حاكم فارسي، ولم تعد تستطيع أن تلعب دورها السابق، كإمارة أو دولة شبه مستقلة. إلى أن جاء الإسلام فأتى رؤساء السواد وفيهم ابن الرفيل إلى عمر بن الخطاب فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا قوم من أهل السواد، وكان أهل فارس قد ظهروا علينا وأضروا بنا، ففعلوا وفعلوا ـ حتى ذكروا النساء ـ فلما سمعنا بكم فرحنا بكم وأعجبنا ذلك، فلم نرد كفكم عن شيء، حتى أخرجتموهم عنا، فبلغنا أنكم تريدون أن تسترقونا. فقال عمر: فالآن إن شئتم فالإسلام، وإن شئتم فالجزية. فاختاروا الجزية وبقو على دينهم. (يحيى القرشي ١٣١). وهكذا كانت المجتمعات العربية في جنوب العراق وغرب الفرات وجنوب سورية، إضافة للمجتمع القبطي، على علاقة سيئة بالبيزنطيين والساسانيين قبيل مجيء الإسلام، مما مهد الطريق للفتوحات العربية الإسلامية، وجعل سكان هذه المناطق ينظرون للمسلمين كمخلصين لهم من ظلم هاتين الإمبراطوريتين وحكامها الكبار والصغار.

الفصل الثاني

ظهور الاسلام وعصر الخلفاء الراشدين

موقف الإسلام من النصارى ـ عقود الذمة والجزية ـ العقود التي كتبها الرسول ـ عقود الخلفاء الراشدين ـ الموقف من نصارى تغلب ـ الموقف من حرية الفكر والعبادة ـ التملك والتنقل والحقوق السياسية ـ حق العمل ـ التهجير من الجزيرة العربية .

من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه .

حديث نبوي

. . . . وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام .

من كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة

وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين ، ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة ، بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة .

إدمون رباط

موقف الإسلام من النصارى:

حمل العرب رسالة الإسلام، ورغم أن الإسلام جاء للناس جميعاً، إلا أن القرآن الكريم أنزل عربياً، وكان الرسول عربياً، فالإسلام الذي نزل بلغة العرب، وعلى نبي منهم، وفي بلادهم ومجتمعهم، وتبنى ثقافتهم ومفاهيمهم وطورها، كان سبيل العرب لتوحيد قبائلهم، وإقامة دولتهم في جزيرتهم، ثم الانطلاق برسالتهم إلى العالم كله. فانتشروا خارج الجزيرة، وقضوا على إمبراطورية فارس وتغلبوا على بيزنطة وقلصوها إلى ما وراء جبال طوروس، وفتحوا بلاداً في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وصارت الإمبراطورية العربية الإسلامية خلال نصف قرن، من أعظم إمبراطوريات ذلك الزمان.

كان المذهب الديني هو الأساس الإيديولوجي والفلسفي والسياسي للدول، والسلاح الفعال الذي تستخدمه لبناء الوحدة الداخلية، وإقامة الدولة، وتحقيق التوسع الخارجي، ولم يكن العرب بعيدين عن هذا التوجه عندما حملوا شعلة الإسلام، في منطقة فقيرة، وضمن محيط واسع من الإمبراطوريات العظمى التي تركت وراءها مئات السنين من التراكم الثقافي والحضاري والمعرفي والتجارب الإدارية والعسكرية، ولم يكن بإمكان

أي متنبيء في مطلع القرن السابع مهما كان مبالغاً، أن يتصور أن قبائل مكة سوف تتغلب خلال عشرين عاماً على هذه الإمبراطوريات.

كان الدين إذن هو الإيديولوجيا والفلسفة والشعار لدول ذلك العصر، وما كان بإمكان أمة أو مجتمع أو شعب النجاح بدون تبني عقيدة دينية متكاملة، ذات فهم شامل للكون والحياة (وكان مبدأ الجمع بين الدين والسياسة، تقليد سامي قديم، وليس من محدثات الإسلام) (حتى ٢ / ٩٩). وعلينا أن نقيس الأمور بمقاييس ذلك الوقت لا بمقاييسنا بعد أربعة عشر قرناً من التطور العلمي والثقافي والحضاري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن نتفهم مواقف الدولة العربية ـ الإسلامية من خلال الظروف التي كانت سائدة، والمفاهيم التي كانت قائمة.

لم يكن أمام العرب المسلمين بد من نشر الإسلام، لأن بناء دولتهم مرتبط بانتشاره، وأن يلزموا الناس على الدخول في الدين الإسلامي، أو مهادنته على الأقل، وإلا ما استطاعوا، دون شك، توحيد قبائلهم، وبناء دولتهم، وتحقيق أهدافهم ورسالتهم، ولكنهم لم يقوموا بذلك على غير هدى، فقد فرقوا بين الناس، وتعاملوا معهم بطرق مختلفة، فلم يهادنوا الوثنيين والمشركين، وألزموهم: إما بالدخول في الإسلام أو خوض الحرب؛ وما من حل ثالث. أما بالنسبة لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) فقد خيروهم بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية والبقاء على دينهم.

رأى الإسلام بالنصرانية ديناً سماوياً، وبالنصارى أهل كتاب: ﴿. . . . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾، (المائدة ـ ٨٢). والمسيح هو رسول الله وكلمته ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته. ألقاها إلى مريم وروح منه﴾، (النساء ـ ١٧١): ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول

قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة﴾، (المائدة ـ ٧٥). ولم يحاول الإسلام إجبار أهل الكتاب على تغيير دينهم، وطالب دائماً الحوار معهم (المجادلة) ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾. (العنكبوت ـ ٤٦). أي ضمن لهم حرية الفكر حسب مفهومنا المعاصر ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله. وهو أعلم بالمهتدين﴾، (النحل ـ ١٢٥). وترك لهم حق اتخاذ القرار ﴿وقل الحق من ربك فمن شاء فليؤ من ومن شاء فليكفر﴾، (الكهف ـ ٢٩). و(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة ـ ٢٥٦). وقد كان موقف القرآن الكريم بشكل عام إيجابياً من المسيحية من الناحيتين السياسية والسلوكية. (رضوان السيد ٣٦).

عقود الذمة والجزية:

كان المسلمون يعتبرون أصحاب الكتاب أهل ذمة. وعقد الذمة هو عقد بين المسلمين أو الدولة الإسلامية وبين فئة من المجتمع كتابية، حددت بموجبه الحقوق والواجبات لكل من الطرفين، أي حقوق الدولة على أهل الكتاب باعتبارهم جماعة منها، وحقوقهم على الدولة باعتبارها دولتهم، ويعتبر غير المسلم بمقتضى هذا العقد في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد، ويسري هذا العقد على الأبناء والأحفاد مالم يفسخوه، ولايحق للمسلمين أو لدولتهم فسخه، وإن فسخه ذمي فرد فلا تقع المسؤولية على طائفته بل عليه شخصياً. والسبب الوحيد القاطع لفسخه من قبل الدولة الإسلامية هو تعاون الذمي مع العدو، أما أخطاؤه

السلوكية أو مواقفه السياسية أو مشاركته في انتفاضة داخلية أو عصيان فتقع في إطار (البغي) ولا تلغي العقد. (فإذا جرى عقد الذمة بين المسلمين والكتابيين فإن هذا العقد مؤبد لا يستطيع المسلمون أن ينقضوه أو يعلنوا حله لمخالفة ذلك للتوحيد الذي دعا إليه القرآن والذي هو الذي يملك نقض العقد وحده إما صراحة أو بقرينة مثل قتال المسلمين مع محاربيهم. . . . فإذا انعقد عقد الذمة فإن المقيم على أرض الإسلام من السكان الأصليين يعتبر حكماً جزءاً من الأمة لأنه جزء (من أهل دار الإسلام)، أما إذا كان طارئاً فإن عقد الذمة يعتبر بمثابة جنسية له تحوله إلى عضو في الجماعة السياسية الإسلامية الموجودة). (رضوان السيد ٣٩).

يدفع أهل الذمة بموجب عقد الذمة جزية، هي مبلغ من الأموال أو الأمتعة يتفق عليها في العقد، وهي غير محددة بل تفرضها ظروف التعاقد ومدى يسر أهل الذمة المتعاقدين، تقع على كل فرد باستثناء النساء والأطفال والرقيق والرهبان والعميان وغير القادرين، وكان يشترط دائماً توفر (الذكورة والبلوغ والقدرة على الدفع) ويعفى من لم تتوفر فيه هذه الشروط، وكانت الحقوق والواجبات واضحة في عقود الذمة التي عقدها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون، إلا أن باب الاجتهاد، ورغبة الحكام، وحاجة خزينة الدولة إلى الأموال، وضعف الدولة العربية ـ الإسلامية فيما بعد، أدى إلى سوء استغلال الجزية، وإلى الإخلال بعقود الذمة.

إن عقد الذمة هو عقد بين الدولة (وهي دولة إسلامية أساساً) وبين مجموعة من رعاياها لهم دين آخر، حددت بموجبه (أي العقد) حقوق كل من الطرفين وواجباته. أما المسلمون فكانوا بالمقابل يدفعون الزكاة ويدفعون الصدقة أيضاً لبيت المال، ويعفى الكتابي منهما.

كان المسلم يحارب في سبيل أهداف الدولة بينما يعفى أهل الكتاب

من المشاركة في الحرب، ولذلك فإن (الجزية في حق المسلمين خلف عن النصرة) كما يقول السرخسي. فقد وجبت عليهم بدلاً عن نصرتهم لدار الإسلام لأن الذميين لما صاروا من أهل دار الإسلام بقبولهم عقد الذمة، ولهذه الدار دار معادية، وجب عليهم القيام بنصرتها لأن من هو من أهل دار الإسلام يلزمه القيام بنصرة هذه الدار. (رضوان السيد ٤١). وفي الحالات التي شارك فيها أهل الكتاب بالحرب مع المسلمين أعفوا من الجزية. فمن الثابت ـ حسب الإخباريين ـ أن بعض أهل الذمة صاحب الرسول في الحروب. ويروي أبو عبيد عن الزهري أن بعض اليهود رافقوا الرسول في بعض الحروب التي خاضها، وأنه اعتاد أن يعطي لهؤلاء المحاربين غير المسلمين حصتهم من الغنيمة، (حسن الزين ١١٨، ابن سعد ١/ ٥٠٢). وقد شارك النصارى العرب المسلمين القتال زمن عمر في بلاد فارس ومصر، وأعفوا من الجزية ونالوا حصتهم من الغنائم، وقد روى الطبري (١/ ٢٦٦٥) أن ملك (الباب) في أرمينيا واسمه شهربراز طلب من سراقة بن عمرو إعفاء رعاياه من دفع الجزية، متعهداً بأن يفعل مايريده المسلمون من أجل الانتصار على عدوهم (فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصفوي (ميلي) معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم) فكتب سراقة بعد موافقة عمر بن الخطاب (هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينتقضوا، وعلى أهل أرمينية والأبواب، الطراء منهم والثناء (المقيمين) ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر ناب أولم ينب رآه الوالي صلاحاً، على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر، والحشر عوض من جزائهم،

ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أذربيجان من الجزاء والدلالة والنـزل يومـاً كامـلاً ، فإن حشـروا وضع ذلك عنهم ، وإن تركوا أخذوا به) .
ومن الواضح من هذا الاتفاق أنه أعفاهم من الجزية مقابل المشاركة في الحرب .

يرى بعض الفقهـاء أن الجـزيـة وضعت بدل الحـماية من الغـزو الأجنبي ، واستدلوا على ذلك بأن أبا عبيدة بن الجراح أعاد الجزية لدافعيها في بعض مدن بلاد الشـام ، لما رأى تعـذر الـدفاع عنها (فكتب أبو عبيدة إلى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجـزيـة والخـراج ، وكتب إليهم أن يقـولـوا لهم : إنـما رددنا عليكم أمـوالكم لأنـه قد بلغنـا ما جمع لنـا من الجمـوع ، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنـا لا نقـدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشـرط ومـا كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم) ، (أبو يوسف الخراج ١٣٩) .

عقود الرسول :

كان الـرسـول هو أول من كتب عقـود الذمة مع أهل الكتاب ، ولعل أهم هذه العقود وأكثرها وضوحاً هو عقده مع أهل نجران ، ذلك لأن نصارى نجران كانوا تجمعاً كبيراً ، وكانت الدولة الإسلامية في بدء نهوضها ، والعقد نفسه بالغ التفصيل .

خرج وفـد نجـران إلى الـرسول وكان مؤلفاً من أربعة عشر رجلاً من أشـرافهم (والبعض يقـول ستـين رجلاً) ، فيهم العاقب وهو (أمير القوم وذو رأيهم وصـاحب مشـورتهم) والسيـد وهـو (صـاحب رحلهم ومجتمعهم)

والأسقف (وهو حبرهم وصاحب مدارسهم) فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحيرة، وأردية مكفوفة بالحرير، فقاموا يصلون في المسجد نحو الشرق، فقال رسول الله : دعوهم. ثم أتوا النبي، وتجادلوا معه جدالاً طويلاً يقال إنه استمر ثلاثة أيام وشارك فيه يهود، ثم سألوه عن قوله في عيسى فقال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾، (آل عمران ـ ٥٩). ثم دعاهم إلى المباهلة فرفضوا، وقبلوا الصلح على شروط اشترطها عليهم واشترطوها هم، وكتب لهم بذلك كتاباً. وبعث إليهم عمر بن حزم وإلى غيرهم، وكتب لهم عهداً. يقول أبو يوسف: حدثني محمد بن اسحاق أن النبي كتب لعمرو بن حزم حين بعثه إلى نجران بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمان من الله ورسوله، يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، عهد من محمد النبي لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، آمره بتقوى الله في أمره كله، وأن يفعل ويفعل، وزوده بعقد نجران التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران ـ إذ كان عليهم حكمه ـ في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق، فأفضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وماقضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب. وعلى نجران مؤونة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة. وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلي حتى يؤدوه إليهم. ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم

وشاهدهم وعشيرتهم (وعبادتهم حسب التيمورية) وبيعهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنية، ولادم جاهلية ولا يحسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين. ومن أكل ربى من ذي قيل فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر. وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله أبداً حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير متفلتين بظلم. شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة، وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر. (أبو يوسف، الخراج ٧٢، الطبري، البلاذري). لقد كان الاتفاق بين الرسول ﷺ وأهل نجران، اتفاق بين دولة ومجموعة دخلت في رعايتها، وانتسبت إليها، لكنها تدين بدين آخر غير دين هذه الدولة، ويلاحظ أنه يعطي حقوقاً ويقرر واجبات على الطرفين المتعاقدين:

فالعقد من جهة أولى يلزم أهل نجران بدفع الجزية للدولة الإسلامية أي دفع ضرائب باعتبارهم أصبحوا مواطنين في هذه الدولة، وهذا حق للدولة حدد الاتفاق مقداره، وكانت اتفاقات الذمة اللاحقة تحدد مقادير مختلفة. فمقدار الجزية كان يرتبط بظروف الفتح، ومدى يسر أهل الذمة المتعاقدين، ويترك تقديره للوالي أو القائد العسكري أو المفوض بذلك. ويلاحظ أن مقدار الجزية يختلف من عقد إلى آخر، وقد جرت محاولات لاحقة لتحديد مقدار واحد، إلا أنها ارتبطت دائماً برأي الموقع على العقد من طرف الدولة. وكان على أهل نجران أيضاً إضافة للجزية أن لا يأكلوا

ربى ، (فمن أكـل ربى . . . فذمتي منـه بريئة) . وقد وقعوا بمشكلة في وقت لاحق عندما أكلوا الربى أيام عمر بن الخطاب وخالفوا العقد فهجرهم .

والعقد من جهة ثانية يعطي حقوقاً لأهل الذمة يلزم الدولة بها ، فلهم على الـدولـة مقـابل دفعهم للجزية حق أن تحمي الدولة (أموالهم وأنفسهم وأرضهم وحلتهم وغـائبهم وشـاهـدهم وعشيرتهم) وقال السرخسي في هذا المجـال : لأنهم قبلوا عقـد الـذمـة تكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم . وأن تضمن لهم الحرية الدينية وحرية العبادة وحماية أماكن العبادة (لا يغـير أسقف من أسقفيتـه ولا راهب من رهبـانيتـه ولا كاهن من كهانته) وكـذلـك على الـدولـة واجب حمايتهم من الغـزو الخارجي (ولا يطأ أرضهم جيش) . وإذا ما نفذ أهل الذمة مضمون هذا العقد ، يصبحون كالمسلمين في الحقـوق والـواجبـات (ولهم مالنـا وعليهم ما علينا) كما ألزم الرسول نفسه دائماً . ويقول الأب لامانس عن معاهدة نجران : لم تكن معاهدة نجران عقد إذعان فرضه الرسول على أهل نجران ، ولكنها إتفاق متوازن تمت المفاوضة بشأنـه وأبـرم برضى الفريقين وعلى وجه المساواة بين قوتين كانتا تتوسمان فيه خيراً ومصلحة لهما (أوضاع ٤١) .

لقـد تكـرر مثـل هذا العقد بين الرسول وأهل الذمة في مناطق أخرى فتحها المسلمون ، قالوا : لما توجه رسول الله إلى تبوك من أرض الشام لغزو من انتهى إليـه أن قد تجمـع له من الروم وعاملة ولخم وجذام وغيرهم وذلك في سنـة تسـع من الهجـرة لم يلق كيداً ، فأقام بتبوك أياماً فصالحه أهلها على الجـزيـة وأتـاه وهـو بها يوحنا بن رؤ بة صاحب أيلة فصالحه على أن جعل له على كل حالم بأرضـه في السنـة دينـاراً فبلغ ذلـك ثلاثـمائـة دينـار ، واشترط عليهم قرى من مر بهم من المسلمين ، وكتب لهم كتاباً بأن يحفظوا ويمنعوا . (البلاذري ٧١) . وبعث رسول الله خالد بن الوليد بن المغيرة إلى أهل دومة

الجندل، وكانوا من عباد الكوفة فأسر أكيدر رأسهم فقاضاه على الجزية. (البلاذري ٧٤). وكتب إلى أهل البحرين: أما بعد، فإنكم إذا أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ونصحتم لله ورسوله وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب ولم تمجسوا أولادكم فلكم ما أسلمتم عليه، وإن أبيتم فعليكم الجزية. (البلاذري ٨٩).

لقد حافظ الرسول (ص) على عهده (ذمته) محافظة دقيقة، وأوصى المسلمين بالمحافظة على هذه العهود، وفي الوقت نفسه سن لهم سنة تضمنت قواعد التعامل مع أهل الكتاب، وكان يؤكد دائماً أن (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه إلى يوم القيامة)، وروى يحيى بن آدم القرشي أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الكتاب فرفع إلى النبي فقال رسول الله: أنا أحق من وفى بذمته، ثم أمر به فقتل. كما روى عبد الله بن مسعود أن من كان له عهداً أو ذمة فديته دية المسلم.

عقود الخلفاء الراشدين:

لم تختلف العقود اللاحقة والاتفاقات التي عقدها الخلفاء الراشدون مع أهل الذمة عن مضمون هذه العقود، ففي دمشق مثلاً تحصن أهل المدينة وأغلقوا بابها فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة آلاف ضمهم إليه أبو عبيدة: . . . وسمي الدير الذي نزل عنده خالد دير خالد، ونزل عمر بن العاص على باب توما ونزل شرحبيل على باب الفراديس، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير إلى الباب الذي يعرف بكيسان، وجعل أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مسلحة ببرزة، وكان الأسقف الذي أقام

لخالـد النـزل في بدأتـه ربـما وقف على السـور فدعـا له خالد فإذا أتى عليه وحـادثـه ، فقـال له ذات يوم : يا أبـا سليمان إن أمركم مقبل ولي عليك عده فصالحني عن هذه المدينة فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب :

بسم الله الـرحمن الـرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلهـا . أعطـاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهـدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلـك عهـد الله وذمـة رسـول الله (ص) والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية (البلاذري ١٢٧ ـ ١٢٨) . فلما رأى الأسقف أن أبـا عبيـدة قد قارب دخول المدينة بدر إلى خالـد فصـالحه وفتح له الباب الشرقي فدخل والأسقف معه ناشراً كتابه الـذي كتبـه له ، فقـال بعض المسلمـين : والله ما خالـد بأمـير فكيف يجوز صلحـه ، فقـال أبـو عبيـده : إنـه يجيز على المسلمين أدناهم ، وأجاز صلحه وأمضـاه ولم يلتفت إلى ما فتـح عنـوة فصارت دمشق صلحاً كلها ، وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر (ابن الخطاب) فأنفذه ، وفتحت أبواب المدينة فالتقى القـوم جميعـاً . (البـلاذري ١٢٩) . ويرى بعض الإخباريين أن خالداً دخل دمشق عنـوة من البـاب الشـرقي ، فصالح أهلها أبا عبيدة من باب الجابية ، دون أن يدري بدخول خالد ، ولكنهم يجمعون أن فتح دمشق اعتبر صلحاً . ويـروي مؤرخـون آخـرون نصـاً لصلح مع أهـل دمشق باسم (عهد عمر) ويفترضون أن عمر بن الخطاب هو الذي وافق عليه (ابن عساكر) . والواقع أن هذا الصلح المفـترض وضـع أيـام عمـر بن عبد العزيز، وهو مخالف كلياً لمضمـون الاتفـاقيـات التي وقعهـا الرسول مع أهل الذمة ، والتي وقعت أيام الخلفـاء الـراشـدين في مختلف المنـاطق ، وبه جور على أهل الذمة ، ولذلك يرى بعض الباحثين أنه كتب في عصر لاحق ونسب إلى عمر بن الخطاب ، وهو ليس كذلك .

لم يقتصر الأمر بالخلفاء على الالتزام بعقود الذمة والاتفاقات التي عقدها الرسول، وإنما بادروا هم أنفسهم لعقد اتفاقات مشابهة لها، بل وطوروا في هذه الاتفاقات لما فيه صالح أهل الذمة وصالح الدولة الإسلامية، في إطار تحقيق الغاية الأساسية التي تحافظ على جوهر موقف الإسلام من أهل الكتاب، وعلى حقوق الدولة ومصالحها. ونلاحظ ذلك في العقود والاتفاقات التي وقعت أيام الخلفاء الراشدين مثلاً مع أهل الحيرة وجنديسابور وأرمينيا وغيرها. (انظر الملاحق).

الموقف من نصارى تغلب:

كان عمر بن الخطاب يسعى جاهداً ليتحول النصارى العرب إلى مسلمين، لأن العرب هم حاملوا شعلة الإسلام والمكلفين بنشره وبناء الدولة العربية الإسلامية، وتمتين بناها وترسيخ قوتها، ولم يترك عمر فرصة إلا واستخدمها ليتحول نصارى العرب إلى الدين الجديد، في إطار أساسيات الموقف الإسلامي، والأسلوب الإسلامي في التعامل مع أهل الكتاب: قال زياد بن حوير إن أول من بعث عمر بن الخطاب على العشور إلى ههنا أنا . . . قال وأمرني أن أغلظ على نصارى بني تغلب، قال إنهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب فعلهم يسلمون، قال وكان عمر قد اشترط على نصارى بني تغلب أن لاينصّروا أولادهم. (أبو يوسف الخراج ١٢٠).
وقد روى أبو يوسف قصة الاتفاق مع بني تغلب: كما يلي: حدثني بعض المشايخ عن السفاح عن داود بن كردوس عن عبادة بن نعمان التغلبي أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن بني تغلب من قد علمت شوكتهم وإنهم بإزاء العدو فإن ظاهروا عليك العدو اشتدت مؤنتهم

فإن رأيت أن تعطيهم شيئاً فافعل. قال: فصالحهم عمر على أن لا يغمسوا أحداً من أولادهم في النصرانية ويضاعف عليهم الصدقة. قال وكان عبادة يقول: قد فعلوا فلا عهد لهم. وعلى أن يسقط الجزية عن رؤوسهم. فكل نصراني من بني تغلب له غنم سائمة فليس فيها شيء حتى تبلغ أربعين شاة فإذا بلغت أربعين سائمة ففيها شاة إلى عشرين ومائة، فإذا زادت شاة ففيها أربع من الغنم، وعلى هذا الحساب تؤخذ صدقاتهم. وكذلك البقر والإبل إذا وجب على المسلم شيء في ذلك فعلى النصراني التغلبي مثله مرتين ونساؤهم كرجالهم في الصدقة. فأما الصبيان فليس عليهم شيء. وكذلك أرضوهم التي كانت بأيديهم يوم صولحوا فيؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم.... ولا شيء عليهم في بقية أموالهم ورقيقهم. وأضاف أبو يوسف: حدثنا أبو حنيفة عن عمر بن الخطاب أنه ضاعف الصدقة على نصارى بني تغلب عوضاً عن الخراج (الخراج ١٢٠).

إن اتفاق عمر مع بني تغلب لا يتطابق مع اتفاقيات الرسول مع النصارى، صحيح أنه يحقق الغاية الأساسية منها وهي التعامل الخاص مع أهل الكتاب وضمان حقوق الدولة، لكنه يختلف عنها في مقدار الضريبة وفي الشروط المفروضة تلاؤماً مع الظروف المستجدة ومع حاجة الدولة. فقد رأى عمر وأصحابه أنه من المهم عقد صلح مع بني تغلب، ولكن هؤلاء نظراً لمكانتهم بين العرب، رفضوا دفع الجزية وهم صاغرون وهددوا بالهرب خارج حدود الدولة الإسلامية الناشئة، فاستبدل عمر الجزية بالصدقة، ومعروف أن الصدقة تقع على المسلم لا على الكتابي، وهي نسبة من الأرباح والأموال لا ضريبة على الفرد كالجزية، لكنه ليفرق بينهم وبين المسلمين من جهة، وليغلظ عليهم ليدخلوا في الإسلام من جهة أخرى، ضاعف مقدار الصدقة المتوجب دفعه، فكان واحدهم يدفع ضعف ما يدفع

المسلم، كما أنه ألـزم النسـاء بالـدفـع (ونسـاؤ هم كرجالهم) والجزية تعفي النساء، وفرض عليهم عدم تعميد أطفالهم (أن لايغمسوا أحداً من أولادهم في النصرانية)، وذلك ليوجد ظروفاً تهيء لهم الدخول في الإسلام.

وكـان لعمـر مبـادرات مماثلة كمـوقفـه عنـد فتـح جلولاء الـذي رواه البـلاذري قائـلاً: حدثنـا محمـد بن الصبـاح البزاز. . . . عن قيس بن أبي حازم قال: كانت بجيلة ربـع النـاس يوم القادسية وكان عمر جعل لهم ربع السـواد. . . . وحـدثني الـوليـد بن صالـح. . . . . عن جريـر بن يزيد بن جرير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن عمر جعل له ولقومه ربع ماغلبوا عليه من السواد فلما جمعت غنائم جلولاء طلب ربعه فكتب سعد إلى عمر يعلمه ذلك، فكتب عمر إن شاء جرير أن يكون إنما قاتل وقومه على جعل كجعل المؤلفة قلوبهم أعطوهم جعلهم وإن كانوا إنما قاتلوا لله واحتسبوا ما عنده فهم من المسلمـين لهم مالهم وعليهم ما عليهم، فقـال جرير صدق أمير المؤمنين وبـر لاحـاجة لنا بالربع. . . . . فقالت امرأة من بجيلة يقال لها أم كرز: إن أبي هلك وسهمه ثابت في السواد وإني لم أسلم، فقال لها يا أم كرز إن قومك قد أجـابـوا فقـالـت له ما أنـا بمسلمة أو تحملني على ناقة ذلول عليها قطيفة حمراء وتملأ يدي ذهباً ففعل عمر ذلك. (البلاذري ٢٦٧).

لقد أوصى عمر بن الخطاب بأهل الذمة خيراً أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لايكلفوا فوق طاقتهم (القرشي ٢٣٢). وعندما استعمل علي بن أبي طالب عامله على بزرج سابور قال له: لاتضربن رجلاً سوطـاً في جبـايـة درهم. ولاتبيعن لهم رزقـاً، ولا كسوة شتاء ولا صيفاً، ولا دابـة يعتملون عليهـا، ولا تقيمن رجـلاً قائماً في طلب درهم. قال: قلت يا أمـير المؤمنـين إذاً أرجـع إليـك كما ذهبت من عندك. قال: وإن رجعت كما

ذهبت. ويحك إنا أمرنا أن نأخذ منهم العفو، يعني الفضل. (يحيى القرشي ٢٣٤).

حرية الفكر والعبادة:

احترم الإسلام أيام الرسول والخلفاء الراشدين حرية الفكر والمعتقد لأهل الكتاب انطلاقاً من ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (البقرة ـ ٢٥٦). وقد حرص الرسول في كتابه لأهل أيلة (. . . أن لا يفتن أسقف عن أسقفيته) كما حرصت المعاهدات والاتفاقات التي أبرمها الرسول والخلفاء مع أهل الكتاب على ضمان حرية معتقدهم. وقد جاء في وصية أبي بكر للجيوش العربية (. . . . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له) (الطبري، ١ ـ ١٨٥٠). وأكد عمر بن الخطاب دائماً على حرية المعتقد. ووجه عمرو بن العاص، وهو أول حاكم عربي مسلم لمصر رسالة إلى البطريرك القبطي بنجامين (بنيامين)، نشر نصها في جميع أنحاء البلاد يدعوه فيها إلى العودة بأمان وإدارة سياسة طائفته، وعلى أثر هذه الرسالة عاد البطريرك إلى مقره بعد أن ظل متخفياً خلال مدة الحاكم البيزنطي المقوقس. واستقبله عمرو بن العاص بحفاوة ومنحه صلاحية كاملة في إدارة شؤون طائفته (حسن الزين ٥٧). وسهل كل ذلك عودة الكثيرين ممن تركوا مذهبهم تحت الضغط والإرهاب كما عاد إلى البلاد كل الذين هربوا منها خوفاً من الظلم والإكراه ليحتفظوا بمذهبهم ويصونوا عقائدهم الدينية (ضحى الإسلام ١/ ٣٨٢).

إن سماح الرسول لوفد نجران بالصلاة بالمسجد هو اعتراف بمبدأ

حرية المعتقد، وقد جاء في النص الذي أورده (ابن العبري) لمعاهدة نجران التي أبرمها الرسول أنه إذا وجدت امرأة نصرانية في بيت مسلم، فليس له أن يحملها على ترك دينها ولا يمنع صيامها وإقامة صلاتها والتقيد بقواعد عقيدتها. (أوضاع ٦١). وعندما صالح أبو عبيدة أهل دمشق تعهد (أن تترك كنائسهم وبيعهم....). (الخراج ١٣٨) وقال عمر لأبي عبيدة عند تصديقه على اتفاقيته مع أهل دمشق: .... ووف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم. وأما إخراج الصلبان في أيام عيدهم فلا تمنعهم من ذلك (الخراج ١٤١). وجاء في خطاب خالد بن الوليد الموجه لأهل عانات (.... على أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلوات، وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم). (الخراج ١٤٦). وجاء في صلح عمر مع أهالي القدس (.... أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم... أنه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم، ولاينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم.... ولا يكرهون على دينهم). (الطبري، ١ - ٢٤٠٦). وعندما وصل عمر بن الخطاب إلى كنيسة القيامة كان وقت الصلاة قد حان فدعاه البطريرك إلى الصلاة في الكنيسة فرفض قائلاً: (لأن كنيسة يصلي فيها سوف تصبح يوماً ما ملكاً للمسلمين، وأنه لا يريد نزعها من يد النصارى) (المقريزي ٤/٣٤٩). وأن صلاتهم بعده تقام لواحد بعد الآخر دون الجماعة، ولا يمكن تغيير شيء في المكان.

التملك والتنقل والحقوق السياسية:

حافظت الدولة الإسلامية أيام الرسول والخلفاء الراشدين على

أملاك أهل الكتاب، وأعطتهم الحق في التملك والتنقل داخل دار الإسلام وخارجها، فقد كتب الرسول إلى أهل أيلة (.... ولايحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يردونها من بر أو بحر.....)، كما تعهد بعدم طردهم. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بعد صلحه مع بعض مدن الشام، فمنع استرقاقهم وسبيهم، وأعطى حق الملكية لهم ولأولادهم من بعدهم، وأبقيت الأرض لأصحابها في خيبر والبحرين ومقنة ونجران مقابل دفع جزء من الغلة (بنسبة تختلف عن النسبة التي كان يدفعها المسلمون)، ومنع ابن الخطاب بيع أرض الخراج. وأنشأ الأقباط الكنائس بعد الفتح الإسلامي بعد أن كانت ممنوعة، ورمموا ما تهدم منها، وبنيت كنيسة في فسطاط مصر في ولاية حاكمها مسلمة بن مخلد، وقال يوحنا النيقي وكان معادياً للإسلام، إن عمرو بن العاص لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس، ولم يرتكب شيئاً من النهب والسلب، بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر حياته (حسن الزين ٢٧).

في الوقت نفسه لم تعط الدولة العربية الإسلامية لأهل الكتاب الحقوق السياسية نفسها التي كانت للمسلمين، فقد منعت عليهم بعض المسؤوليات السياسية التي تمس جوهر الدولة وفلسفتها كدولة دينية إسلامية. فلم يكن يحق للكتابي أن يكون خليفة للمسلمين، أو أن يشترك في اختيار الخليفة (والاختيار هذا على كل حال لم ينفذ بالنسبة للمسلمين إلا أيام الخلفاء الراشدين)، كما لايحق له أن يكون وزير تفويض، لأن هذا الوزير وكيل خليفة رسول الله، والمسؤول الأول عن القضاء، وهو الذي يسير الجيوش وينظم البعثات ويدير أموال بيت المال ويطبق أحكام الشرع. ولايمكن للكتابي أن يكون والياً لأن هذا ممثل لخليفة رسول الله في ولايته، وعليه واجبات دينية منها: أن يكون إماماً في الصلاة، وخطيباً في

الأعياد. . . . (ولا يحق للكتابي أن يكون إماماً فالإمام خليفة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا). ولعلنا الآن في القرن العشرين نلاحظ أن الأحزاب الحاكمة في مختلف بقاع الأرض وعلى مختلف النظم السياسية، لاتخرج عن هذا الإطار في تكليفها المسؤولين عن هذه المهمات.

ماعدا هذه (الاستثناءات) كان للكتابي من رعايا الدولة كامل الحقوق الأخرى في المجال السياسي التي للمسلم، فله الحق أن يكون وزير تنفيذ أو موظفاً كبيراً (ويجوز أن يلي غير المسلم من الذميين الوزارة أو قيادة الجند في قتال البغاة عند بعض الفقهاء) (رضوان السيد ٤٠)، بل حرض الرسول على استخدام الكتابيين في أعمال الدنيا، والاستفادة من خبراتهم المتراكمة فقال (. . . . وهم ـ أي الأقباط ـ أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم، قالوا: كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله؟ قال: يكفونكم أعمال الدنيا) (حسن الزين ١٠٥، ضحى الإسلام ١ / ٣٥٩ المقريزي ١ / ٢٤ ـ ٢٥). وقد أبقى الخلفاء الراشدون الإدارة كما هي في البلدان المفتوحة، كما أبقوا موظفيها الكتابيين على رأس أعمالهم، وعينوا حاكماً (أميراً) مسلماً، وعاملاً (مسؤولاً مالياً). بل زاد عدد الموظفين الكتابيين في إدارة الدولة، وشاركوا مشاركة فعالة في وضع سياستها والإشراف على تنفيذ هذه السياسة، وتبوأوا أرفع المناصب التي سمح بها التشريع الإسلامي. فقد عين عمرو بن العاص والي مصر أيام عمر بن الخطاب موظفاً نصرانياً كبيراً في خدمته (القلقشندي). كما ثبت شخصاً نصرانياً يدعى مناس حاكماً لمقاطعة مصر الشمالية، وعندما عزله عين نصرانياً آخر مكانه هوجان الدمياطي (حسن الزين ١٠٩)، وقد أصبحت هذه الحالة شبه دائمة ومستقرة بعد عهد الخلفاء الراشدين (الفصل التالي)، واحتل الموظف الكتابي مركزاً هاماً في الإدارة الإسلامية في جميع العصور

وجميع المناطق، وهذا ما فتح الأبواب بسعة أمام دخول أهل الذمة في مجال الوظيفة العامة، وتبوأ واحدهم أهم المراكز في بعض عصور التاريخ الإسلامي (حسن الزين ١٠٩). كما سنرى لاحقاً.

حق العمل:

من ناحية أخرى كان نصارى شبه جزيرة العرب يمارسون جميع المهن التي يريدونها أيام الرسول، بما في ذلك مهنة التعليم على خطورتها، فقد كان معظم معلمي المدارس في المدينة من النصارى، ويذكر أن جفينة، الذي كان يعلم الخط، هو أحد نصارى الحيرة. (مروج الذهب ٢/ ٣٢٠ الطبري ١ ـ ٢٧٢٢/ ٢٧٩٧).

وعندما أرسل الرسول عاملاً إلى اليمن طلب إليه الاهتمام بالتعليم مع أنهم أي سكان اليمن كانوا أهل ذمة، وكذلك كانت تعليماته إلى خالد عندما أوفد لنجران (الطبري ١ ـ ١٨٥٢). وكان المدرسون عادة من النصارى في عهد الرسول. (المقريزي عن حسن الزين ٥١).

أما في مصر، فقد جاء المسلمون مزودين بأمثلة هامة عن تعامل الرسول مع النصارى وأهل الكتاب عامة، وبموقف متوازن ومتفهم لأوضاعهم ولحقوقهم ككتابيين، فضلاً عن معرفتهم بأحوال مصر وأحوال القبط خاصة، كما جاءوا بموقف ودي مسبق تجاههم، قال عبد الله بن عمرو: قبط مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً بالعرب عامة وبقريش خاصة، ولاشك أن التنويه بقرابة الرحم هنا تعود للتذكير بأن هاجر أم اسماعيل جد قريش كانت مصرية، وأن مارية القبطية زوجة الرسول وأم ابراهيم كانت قبطية أيضاً، فضلاً عن الأحاديث

المنسوبة إلى الرسول : إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً ، أي أن لهم حقوقاً كأهل كتاب وحقوقاً كأقرباء وأنسباء ، وقوله كذلك : الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وعوناً في سبيل الله . وهذا ما زاد الوداد العربي الإسلامي ـ القبطي ، وجعل موقف العرب المسلمين من القبط متسامحاً ، كما سهل ـ في الوقت نفسه ـ انتشار الإسلام بين أقباط مصر، الذين رحبوا به لتسامحه من جهة ، وخلاصاً من الروم من جهة أخرى، فقد كتب حنا النيقوسي : ويقول الناس إن هزيمة الروم وانتصار العرب ، كانت بسبب ظلم الإمبراطور هرقل واضطهاده للأرثوذكس بواسطة قورس ، وهي الأمور التي أدت إلى هزيمة الروم وسيادة العرب على مصر (أقباط ٦٤)، فضلاً عن متانة الصلات والعلاقات بين الأقباط وبين العرب في جزيرتهم وفي بلاد الشام وقدم عهدها . ويرى بعض المؤرخين أن الأقباط اعتقدوا في باديء الأمر أن الإسلام لكثرة تسامحه هو مذهب جديد من المذاهب النصرانية التي كانت عديدة في ذلك الوقت، وأنه انشقاق جديد على الكنيسة الرسمية الملكية ، وربما افترضوا أن الإسلام عودة للآريوسية ، ولم يكونوا معادين له على أية حال .

كانت الأرض في مصر قبل قدوم المسلمين بيد الدولة ، وقرر عمر بن الخطاب بعد فتح مصر أن تكون الأرض في مصر فيئاً للمسلمين، ورفض توزيعها على المحاربين كما رفض ذلك قبلاً في أرض سواد العراق، وأبقى (رقبة الأرض بيد الدولة) (أبو سيف يوسف ٥٥) . وتصالح عمرو بن العاص مع صاحب الاسكندرية بعد أن كتب إليه طالباً الصلح (إني قد كنت أخرج الجرية إلى من هو أبغض إلي منكم معشر العرب، لفارس (كانت فارس احتلت مصر في مطلع القرن السابع الميلادي)، فإن أحببت

أن أعطيــك الجــزيـة على أن ترد علي ما أصبتم من سبـايـا أرضي فعلت) (الطبري ١ ـ ٢٥٨١)، فقبلها عمرو بعد أن أخذ موافقة عمر بن الخطاب. وهكـذا أخذ مركز عمرو يقوى، وعمل على تحصيل الضرائب. . . . ولكنه لم يأخـذ شيئـاً من ممتلكـات الكنـائس، وكـذلـك لم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب بل قام بحمايتها. . .

التهجيـر:

اختلف المؤرخـون والإخبـاريـون في أمر تهجير أهل الكتاب (اليهود والنصـارى) من الجـزيـرة العـربيـة إلى خارجهـا. فقـد روي عن الـرسول (لا يجتمع دينان في الجزيرة) (البلاذري ٩٠). ومن الواضح أن هذا الحديث مخالف للعقـود التي وقعهـا الـرسول مع أهل الكتاب في الجزيرة، والتي تعهد فيها بحمايتهم وحماية أملاكهم والدفاع عنهم، وأبقاهم في بلادهم. ولم يعهد بالرسول الكريم مخالفة عهد أو ذمة، وهذا مايشكك بصحة هذا الحديث، خاصـة وأن الـرسـول لم يهجّـر كتـابياً في عهده. لكن من المؤكد أن عمر بن الخطاب هجّر نصارى من نجران اليمن إلى جنوب العراق، وهجر يهوداً من يثـرب إلى جنـوب سورية، فعلى أي تشريع استند ابن الخطاب؟. خاصة وأن عمـر لم يسمـع بحـديث رسـول الله بل نقـل له عن طريق رجـل. (ابن هشام ٢/ ٧٧٩) ثم لماذا لم يهجرهم أبو بكر الصديق الورع المتصلب لو كان الرسول قال مثل هذا الحديث. يقول البلاذري في هذا الموضوع: كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفاً فتحا سدوا بينهم: فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنـه فقـالـوا: أجلنـا، وكـان عمـر قد خافهم على المسلمـين فاغتنمهـا فأجلاهم) (البلاذري ٧٨). ونوهنا سابقاً إلى سياسة عمر الدائمة بمضايقة

النصارى العرب والإغلاظ لهم ليتحولوا إلى الإسلام (كان المسلمون أقل تساهلاً بشأن النصارى المنحدرين من أصل عربي) (حتي ٢ / ٩٩). وعندما قرر عمر إجلاءهم حيث أسسوا فيما بعد بلدة سموها نجران العراق، كتب لهم الكتاب التالي: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ماكتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران، من سار منهم آمن بأمان الله لايضره أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبي (ص) وأبوبكر، أما بعد: فمن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسقهم من حرث الأرض، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله وعقبة لهم مكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولامغرم. فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً، بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم، شهد عثمان بن عفان، ومعيقيب وكتب) (الخراج ٧٣ - ٧٤). وفي عهد عثمان بن عفان التزم عثمان مجدداً بما كتب لهم عمر، فكتب إلى عامله الوليد بن عقبة (. . . . وإني وفيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن، فاستوصي بهم خيراً فإنهم أقوام لهم ذمة) وتبنى الخليفة علي موقف سابقيه وكتب لهم (. . . . فمن أتى عليهم من المسلمين فليف لهم ولا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقص حق من حقوقهم . . .) (أبو يوسف، الخراج ٧٤).

لقد حصل التهجير بالفعل، وأعطي المهجرون أرضاً تماثل أرضهم في مناطق أخرى، كما أعفوا من الجزية سنتين بدءاً من تاريخ إقامتهم في الأرض الجديدة، ولكن هذا التهجير الذي حصل لاعلاقة له بعقود الذمة وغير منطلق منها أو معتمد عليها، بل هو إجراء سياسي رأت السلطة السياسية ضرورته للدولة.

قال أبــو يوسف عن أسبــاب التهجـير (. . . . أنهم تحاسـدوا بينهم و . . . . كان عمــر قد خافهم على المسلمـين فاغتنمهـا . . .) أي أنــه كان يرغب في تهجـيرهـم ولكنــه يعـوزه المبر ر فقدموه بأنفسهـم ، وهـذا يؤ كد ـ إن كان هـذا هو السبب ـ أن القـرار سيـاسي . ويرى إخباريون آخرون أن أهل نجران أخذوا يتعاطون الربى وهو ممنوع عليهم حسب العقد المتفق عليه مع الـرسـول (ومن أكـل ربى من ذي قبل فذمتي منهم بريئة) ولما رأى عمر ذلك تبرأ من عقد الذمة وأجلاهم . ولكن رسالته إليهم لاتشير إلى تبرئة من هذا العقـد ، فقـد أكـد فيهـا (. . . . فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقــوام لهم الــذمـة وجـزيتهم عنهم متر وكـة أربعـة وعشـرين شهـراً . . .) . وعنـدما حاول أهل نجران العودة إلى بلادهم أيام الخليفـة علي رفض بمـبر رواحـد هو أن هذا هو قرار عمـر ولا يريـد الغاءه أو الـتراجـع عنـه ، ولم يعـط مبر رات شرعية أو دينية ، وهـذا مايؤ كد كذلك أن القرار جاء في إطار سياسي ولهدف سياسي ارتأته السلطة الحاكمة .

ان الاختـلاف حول الأسبـاب يلقي ظلالاً من الشك حول مقولة أن التهجـير كان مطلقـاً لكـل أهل الكتاب ويؤ كد أنه كان لبعض منهم فقط . وبـالفعـل فقـد روى المؤ رخـون استمـرار وجود النصارى في الجزيرة العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، فهناك عدة شواهد على وجود النصارى في اليمن في مراحـل متأخـرة ، من ذلـك ما ورد في أعمال طيموتاوس الكبير ، بطـريـرك النسـاطـرة ، أنـه سام أسقفاً على نجران وصنعاء اسمه بطرس في أواخر القرن الثامن الميلادي (لويس شيخو ٦٧) ، وجاء في كتاب الفهرست لابن النـديم (٣٤٩) أن مؤ لفـه اجتمـع براهب من نجـران في اليمن يدعى حسـان كان أنفـذه جاثليق النسـاطـرة إلى الصـين فعـاد منها سنة ٣٧٧ هـ ـ ٩٨٨ م وأخـبره بعجـائبهـا (لـويس شيخـو ٦٧) ، وجاء في تقويم الكنائس

النسطورية الذي طبعه الخوري بطرس عزيز الكلداني أن البطريرك يوحنا الخامس أرسل كتاباً إلى حسن قسيس اليمن عام ٩٠١ م يجاوب فيه على ٢٧ سؤ الاً ألقاها عليه، وقال في الجدول إنه كان في صنعاء اليمن سنة ١٢١٠ م خمسة أساقفة للنساطرة: لصنعاء وزبيد ونجران وعدن (لويس شيخو ٦٧). ومازال يهود في اليمن حتى عصرنا الحاضر مع أنهم كتابيون، وما من سبب لبقائهم لو كان الأمر دينياً. وفيها بعد (في منتصف القرن الهجري الثاني)، عندما قام بعض النصارى في لبنان بانتفاضة ونهبوا بعض قرى البقاع، شردهم ونفاهم الوالي صالح بن علي، ونشرهم في المناطق السورية على اختلافهم، ولأن الكثيرين منهم لم يساهموا في الفتنة، فقد رفع الإمام الأوزاعي الفقيه المشهور احتجاجه إلى الحاكم، وطالب بإجلاء المخطيء فقط فقال: (وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان، ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وهو أحق ما وُقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله (ص) فإنه قال: من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه). (حتي ٢ / ١٦١).

ونختم هذا الفصل برأي للدكتور أدمون رباط حول موقف الإسلام من أهل الكتاب يقول: فمن الممكن وبدون مبالغة القول بأن الفكرة (الموقف من الأديان الأخرى) التي أدت إلى انتجاع هذه السياسة الإنسانية، «الليبرالية»، إذا جاز استعمال هذا الاصطلاح العصري، إنما كانت ابتكاراً عبقرياً، وذلك لأنه للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة، هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، ودينية في هدفها، ألا وهو نشر

الإسلام، من طريق الجهاد، بأشكاله المختلفة، من عسكرية ومثلية وتبشير ية، إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم، أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد إكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم، بل وحتى على الانتماء إلى الشكل الخاص الذي يرتديه هذا الدين، كما كان الأمر عليه في المملكتين العظميين اللتين كان يتألف منهما العالم القديم.

فتلك الجماهير الكثيفة، التي تشكل أغلبية أهالي سوريا ومصر والعراق، إنما كانت تدين بالمسيحية، وقد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة، منذ القرن الأول من الهجرة، بملء حريتها، في حين أن من بقي من هؤلاء النصارى، موزعين إلى طوائفهم المعروفة بتسمياتها المختلفة، إنما هم شهود عدل، عبر التاريخ، ليس على سماحة الإسلام، وهو تعبير لا يفي بالواقع، لأن وجودهم كأهل ذمة في الماضي، إنما كان مبنياً على قاعدة شرعية وليس على شعور ـ من طبيعته أن يتضاعف أو يضعف ـ وإنما على إنسانية هذا الدين العربي الذي جاء في القرآن، وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين، ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية الكاملة، بل وأيضاً بالمواطنية الشاملة. (رباط ٢٨ ـ ٢٩).

الفصل الثالث

الأمويون العباسيون، الفاطميون

بنيـة الـدولـة الجديدة ـ الموقف من النصارى ـ إجراءات عمر بن عبد العزيز والمتـوكـل والحـاكم (المظالم) ـ الاعتماد على النصارى في إدارة الدولة ـ حرية الحوار الإسلامي ـ المسيحي ـ دور النصارى في الترجمة والآداب والعلوم والثقافة .

كان ضجيج أجراس الكنائس، أيام معاوية، يقطع
على هذا الخليفة المتقدم في السن، قيلولة يحتاج إليها.

ابن قتيبة ـ عيون الأخبار

الوليدة، وبالتالي لم يكن لدى الدولة في مرحلتها الجديدة أجوبة وعلاجاً لكل المستجدات، فلجأت إلى التفسيرات الفقهية والاجتهاد فيما لم يعالجه القرآن الكريم أو تتناوله السنة، لحل المشاكل وتسيير أمور الدولة.

انهارت الإمبراطورية الفارسية أمام جحافل جيوش الدولة العربية الإسلامية وأمام عقيدتها ونهجها، كما تراجعت الإمبراطورية البيزنطية عن بلاد العرب، وخسرت قسماً من ممتلكاتها الآسيوية، وأصبحت مهددة دوماً بالقوة العربية الإسلامية المتنامية، حتى أن الأمويين حاولوا أكثر من مرة فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية نفسها ووصلوا أطرافها، هذا من الناحية العسكرية والسياسية إلا أن ثقافات شعوب هاتين الإمبراطوريتين وحضارتها، وأساليب إدارة الدولة ونظمها التي كانت مطبقة فيهما، والتراث العلمي والفلسفي والأدبي لهما، بقيت جميعها ـ بطبيعة الحال ـ تراثاً للدولة العربية الإسلامية، وأخذت هذه الجوانب تفعل فعلها في التأثير على هذه الدولة وعلى شعوبها، خاصة وأن السكان الأصليين ـ عرباً أم غير عرب ـ بقوا في ديارهم، مع عمقهم الحضاري والثقافي والديني، وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية، مما كان له تأثير كبير على التطور اللاحق للدولة العربية ـ الإسلامية.

زادت مداخيل الدولة بزيادة إيرادات الجزية والخراج والضرائب والرسوم، فأصبحت دولة غنية قادرة، ونُظمت الهيكلية السياسية والإدارية للدولة واستقرت. كما نُظمت الجيوش والشؤون العسكرية لتصبح جيوشاً دائمة ومحترفة (كان عدد أفراد الجيش النظامي خمسة وعشرين ألفاً أيام مروان بن الحكم وخمسة وأربعين ألفاً أيام الوليد بن عبد الملك) ماعدا المتطوعين والقوات غير النظامية، قادرة على التحرك السريع والفعال لصد محاولات البيزنطيين استعادة التخوم التي لم تتوقف أبداً، والقضاء على الفتن

في أطـراف الإمـبراطـوريـة، وفتح مزيد من البلدان. ولم يكن وجود الجيش النظامي ليلغي مشاركة آلاف المتطوعين بالحروب وخاصة التي كانت تهدف تحقيق فتوحات جديدة، سواء كان هؤلاء المتطوعون يطمعون بالغنائم، أم كانـوا يهدفـون للجهـاد في سبيـل الله. وأقيمت في الـدولـة الجديدة صروح علمية للدراسات الفلسفية والفقهية والترجمة والطب والهندسة والرياضيات والفلك ومختلف جوانب العلوم الأساسية والتطبيقية، وتطور العلم في مختلف الجـوانب التي أملتهـا حاجـات الـدولـة، وانتشر التعليم، وتم تحديث إدارة الدولة وأقلمتها مع الواقع الجديد والظروف الجديدة والحاجات الجديدة. أما الـدواوين فقـد بقيت باليـونانية أو الفارسية أو القبطية أو السريانة حتى عهد عبد الملك بن مروان (٦٧ هـ ـ ٦٨٦ م) حيث بدأ التعريب، وذلك حسب المنـاطق وحسب اللغـة التي كانت تستخـدم فيهـا قبـل الفتـح العـربي ـ الإسلامي، وباعتبارها إرثاً من البيزنطيين أو الفرس أو الأقباط أو السوريين مواطني البـلاد الأصليـين. ولكن تعـريب الـدواوين بدأ منذ ذلك التاريخ، وكـان أبـو مسلم الخراساني (٧٢٦ ـ ٧٥٥ م) أول من استعمل اللغة العربية في سجلات جمع الضرائب ووثائقها، وكان ذلك في أصفهان.

كان المسلمون أقلية في المراحل الأولى للفتح العربي الإسلامي وبدء قيـام الـدولـة الأموية، لأن سكان سورية والعراق من العرب وغير العرب لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد (مائتا ألف مقابل ثلاثة ملايين حسب فيليب حتي) والأمـر نفسـه في بقيـة البلدان المفتـوحة. وكانت المجتمعات في أرجاء الإمـبراطـوريـة تتألف من شعـوب عديدة، وتتكلم لغات مختلفة، ولم تكن العـربيـة مستعملة في البـدء إلا من قبل الحكام والقادة والجنود والمجموعات العربية المهاجرة إلى هذه البلدان أو التي كانت من مواطنيها، ومن قبل غير العـرب الـذين دخلوا في الإسلام وتعلموا اللغة العربية، ولما كانت الدواوين

غير معربة فلم يكن أهل البلاد الأصليين في أصقاع الإمبراطورية (من غير العرب) بحاجة لتعلم العربية، لأنهم أكثرية السكان ويتكلمون بلغتهم التي هي لغـة الإدارة أيضـاً. إلا أنـه بعـد دخـولهم في الإسـلام وبعـد تعـريب الـدواوين، وزيـادة الجـاليات العربية، واختلاطها مع السكان الأصليين، وبـدء تحول المجتمـع إلى الثقافة العربية الإسلامية، بدأ السكان يتحدثون العـربيـة في لغـاتهم المحكيـة وأصبحت العـربيـة لغة التفاهم بين الناس في حيـاتهم اليـومية، ثم أصبحت اللغة العلمية والتعليمية فضلاً عن كونها لغة الدواوين، فانتشرت وتوسع انتشارها ونفوذها وصارت لغة معظم السكان، باستثناء فئات قليلة في الأرياف والمناطق البعيدة، وسرعان ما أصبحت لغة وحيدة للناس خارج بيوتهم، ولغة الصلوات والخدمة في الكنائس في سورية اعتبـاراً من القـرن الثـامن الميـلادي، وتأخرت سيطرتها الكاملة والمطلقة في مصـر التي كان قسم غير قليـل من سكـانهـا لايتحـدث العربية حتى القرن العـاشـر الميلادي، ولم تصبح لغة الصلوات في الكنائس القبطية ولغة الخدمة الكنسية إلا في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي.

إذن، توسعت الـدولـة العـربيـة الإسلامية أيام الأمويين والعباسيين وغـدت امـبراطـوريـة متراميـة الأطـراف، واقتضى توسعهـا وتنوع إثنياتها وثقـافـات شعوبها والتفاعل المتبادل بين هذه الثقافات وغناها، وتعدد مصادر دخلهـا، واختـلاف بيئاتها الجغرافية، وعلاقاتها الدولية، ذلك كله، اقتضى تغـير بنيـة الدولة ونظامها ومهماتها وأساليب عملها، ونشأ مجتمع جديد ودولة جديـدة تختلف كلياً عن مجتمع عصر الراشدين ودولتهم. فشعوبها أصبحت من العـرب والفـرس والهنـود والأرمن والسـريـان والقبـط والبر بر وغيرهم. شعـوب متعـددة الثقـافـات والـديانات (اسلامية ونصرانية ويهودية ومجوسية وديـانـات شرقيـة أخرى) والإثنيات والحضارات (حضارات سامية وآسيوية

وإفـريقيـة) والعـلاقـات الاقتصـاديـة (رعـويـة وزراعيـة وتجـارية وحرفية) والعـلاقـات الاجتـماعيـة (موروثات شرقية وإفريقية). ولم تعد الإدارة إدارة قبيلة أو عدة قبائل أو إدارة شبه دولة، بل أصبحت إدارة دولة بمعناها الكامل بدواوينها وأسـاليب عملهـا وجيشهـا ونظـامها الضريبي والمالي، وقبل ذلك أصـول تشـريعها ومؤسساتها، وعلاقاتها بمواطنيها وبفئاتها الاجتماعية، من خلال عقـود اجتـماعيـة مكتـوبة أو غير مكتوبة، صارت لها قوة إبرائية تحرج الحـاكم في حال رغبتـه بتغيـيرها، أو يجد معارضة تمنعه أحياناً من تغييرها، سواء لمخالفتها الشريعة، أو معارضتها مصالح فئات وطبقات اجتماعية ذات نفود وسيطرة في المجتمع. وبعد أن كان النظام السياسي يعتمد في التشريع على القرآن الكريم والسنة زمن الرسول، لجأ الخلفاء الراشدون إلى القياس والتأويـل والاجتهـاد، ثم أصبـح النظـام إمـبراطـوريـاً ملكياً أيام الأمويين والعبـاسيـين، مواطنـوه متنوعوا المذاهب والمشارب، مضطراً لصياغة حقوق وواجبات لمواطنيه، وإيجاد علاقة تعاقدية معهم، ومحتاجاً لمزيد من الاجتهاد ليجـد حلولاً لكـل المستجـدات، ومـا كان أكثـرهـا. هذا إضافة إلى تعدد مراتبيـة الفئـات الاجتـماعيـة، وزيادة صراعاتها، فهناك قريش التي أصرت على استمـرار زعـامتهـا للدولة وحققت رغبتها هذه ولم تسقط إلا مع سقوط الـدولـة العبـاسيـة (١٢٥٨ م)، وهنـاك صراعات بطون قريش على زعامة السلطـة السيـاسيـة، وخـاصة الهاشميين والأمويين والعباسيين، والتناقض (العـدائي غالبـاً) بين العرب وغير العرب الذين أسلموا وبقوا دائماً بالدرجة الثـانيـة (المـوالي) يحتاجون إلى حماية أو انتماء إلى قبيلة عربية، رغم دخولهم الإسـلام وحصـولهم على مواطنيـة الـدولة العربية ـ الإسلامية، زيادة على الصـراعـات بين الـدولـة وماجاورها من الدول المعادية (بيزنطة، والإمارات الأوروبيـة في شبـه جزيرة إيبريا. . .)، وضمن هذا التنوع المتعدد الجوانب

والأشكال، كانت الأقلية النصرانية تطالب بالحفاظ على النهج الذي استنه الرسول والخلفاء الراشدون في التعامل معها، وحفظ حقوقها.

الموقف من النصارى:

رغم هذه التعقيدات وهذا التنوع والمعطيات المتسارعة، لم تخرج الدولة الأموية والدولة العباسية عن الإطار العام الديني والفلسفي الذي تقرر في فجر الإسلام، فكان القرآن الكريم والسنة النبوية هما الهادي - من حيث الجوهر - لسياسة الدولة تجاه النصارى، إضافة إلى تأويل واجتهاد وقياس حاولت استيعاب المستجدات وفهمها وتناولها وتطويعها لمصلحة الدولة والمجتمع. وكانت الاجتهادات كثيرة والتعقيدات كثيرة، ولم تستمر (الديموقراطية) التي مورست في فجر الإسلام، وصار الحاكم حاكماً شبه مطلق، وبدأت الفئة الحاكمة تلائم هيكلية الدولة ومسارها لتتناسب مع مصالحها وأهوائها، ولا تعدم الحيلة للحكام في إيجاد صيغ شرعية لتبرير أعمالهم وسلوكهم أو إقرار ما يريدون باسم الدين وباسم مصلحة المسلمين ودولتهم، وفي هذا الإطار صارت العلاقة مع النصارى لها طابع جديد مختلف عما كان عليه قبلاً.

وكان موقف الدولة من النصارى في أحيان عديدة رد فعل على فعل خارجي، كما حصل أيام هارون الرشيد عندما (غضبت) الدولة على نصارى بغداد، ومثلها فعل الناس، لأن البيزنطيين احتلوا بعض مدن الثغور، وتكررت ردود الفعل هذه في مراحل لاحقة، كلما حاول غزاة (نصارى) من الخارج احتلال أجزاء من الدولة العربية الإسلامية (الغزوات الصليبية، التدخل الأوروبي أيام العثمانيين، حملة نابليون... الخ)، كما

كان موقف الدولة من النصارى في أحيان أخرى لأسباب داخلية لا علاقة لها بالدين أو بأوامره أو بمبادئه، وخاصة زيادة الضرائب أو المصادرة أو عمليات النهب المقنع، حتى وصلت بعض المواقف إلى إبقاء الجزية على من أسلم منهم حرصاً على عدم تراجع واردات بيت المال، فضلاً عن أسباب شخصية صرفة تعود لشخصية الخليفة أو الحاكم وأهوائه.

تناقص عدد النصارى العرب مع رسوخ أقدام الدولة العربية الإسلامية، بسبب تحول قسم كبير منهم إلى الدين الجديد، إيماناً به أو طمعاً بالمشاركة في السلطة، أو تخلصاً من مضايقات كانت تمارس عليهم خاصة ليتحولوا إلى الإسلام تطبيقاً للسياسة التي استنها عمر بن الخطاب (والظاهر أن المسلمين كانوا أقل تساهلاً بشأن النصارى المتحدرين من أصل عربي)، (حتى ٢/ ٩٩). وأصبحوا أقلية في الدولة، التي ضمت شعوباً عديدة كانت نصرانية غير عربية. ثم إن تحول النصارى من أقلية عربية في دولة عربية إسلامية كما كان الحال أيام الخلفاء الراشدين، إلى أقلية في دولة معظم سكانها من غير العرب ومن غير المسلمين، جعل الدولة تغير موقفها منهم، إلا أنه بقي للنصارى العرب وضع مميز ومختلف طوال العصر الأموي وحتى نهاية القرن الثاني الهجري، وظلوا حتى هذا الوقت مأخوذين بالعزة القومية والفخار بقبائلهم وأصولهم وأمجادهم الغابرة، ويعتبرون الموالي ـ وهم المسلمون من الشعوب الأخرى ـ أقل منهم مرتبة ومحتداً، رغم دخول هؤلاء بالإسلام وحصولهم على حقوق المسلمين العرب، والواقع أنه كان للعنصر العربي وضع سيادي خاص طوال الحكم الأموي ومطلع الحكم العباسي، بل بقي للوضع القبلي مثل هذا الامتياز، والشواهد كثيرة على هذا امتلأت بها كتب التاريخ وكتب الإخباريين، ومن المعروف أن جميع الخلفاء الأمويين كانوا من أمهات عربيات ومنهن نصرانيات سابقات، باستثناء يزيد الثالث

الـذي تولى الحكم في السنـة الأخـيرة من عمر الدولة الأموية. وبعد القرن الثـاني الهجـري، استعـرب النصـارى غير العـرب، وشـاركت الشعـوب الأخرى في تحديد سياسات الدولة وتولي إدارتها، وتقرير مصيرها، وضعف دور العنصـر العـربي مسلماً كان أم نصـرانياً، حتى أبعد المعتصم (٨٣٣ م) العرب عن إدارة الدولة ودواوينها، وعزلهم ابنه المتوكل (٨٤٧ م) من الجيش فتراجـع دورهم، وصـار النصـارى أقليـة مستعـربـة من الأقليات الأخرى الدينية والقومية، لهم لاهوتهم وعلومهم الدينية وطقوسهم ومراتبهم الدينية، وتنظيمات وهيئات دينية خاصة، وترك لهم إدارة أحوالهم الشخصية وقضائهم الـديني، وبـدأت مرحلة جديـدة في علاقـة النصـارى بالـدولة من جهةوفي استعـرابهم وابتعـادهم عن ثقـافـاتهم القـديمـة وتـلاشي انتماءاتهم القومية القديمة إن صح التعبير من جهة أخرى.

المظالـــم:

وقعت المظالم الرئيسية على النصارى ثلاث مرات أيام الدولة الأموية والعبـاسيـة والفـاطميـة (أي خلال أربعة قرون) وذلك أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠ م) والخليفة العباسي المتوكل (٨٤٧ م)، والخليفـة الفـاطمي الحـاكم بأمر الله (٩٨٥ ـ ١٠٢١ م). ولم تكن الأسباب واحـدة في المـرات الثـلاث، بل كانت أسباباً مختلفة، مما يدل على أنها إرادة حاكم وليست موقفاً دينياً أو مذهبياً أو طائفياً.

كان الخليفـة الأمـوي عمر بن عبد العزيز مشهوراً بورعه وتدينه، فقد صادر ـ مثـلاً ـ أمـوال الأسـرة الحـاكمـة الأموية نفسها، وكلف لجنة برئاسة غيلان الدمشقي، مهمتها مصادرة هذه الأموال باعتبارها جبيت بطرق غير

مشـروعـة ، وتوزيعها على المحتاجين من الناس (فكانت هذه اللجنة وكأنها لجنـة الكسب غير المشـروع حسب تسميـاتنـا المعـاصرة) ، حتى أن الفقراء عزفـوا عن أخـذ مال الـزكـاة بعـد توزيـع أموال الأمويين عليهم ، لأن هذه الأموال المصادرة حققت لهم حد الكفاية .

قرر عمـر بن عبـد العـزيـز طرد النصارى من وظائف الدولة ، وتشدد عليهم في كل مجال ، ورغم احـترامـه المبـدئي لعقد الذمة بينهم وبين الدولة الإسـلاميـة وتمسكه به ، إلا أنه فسره تفسيراً مختلفاً وبما جعله ضيقاً عليهم ، وخـاصـة فيـما يتعلق بمقـدار الجـزية وطرق جمعها وممارسة العبادات ، وضم الكنائس إلى المساجد أوتحويلها إلى مساجد وحرم عليهم تقلد الوظائف في منـاصب الـدولـة ، ولبس العـمائم ، وألـزمهم بجـز نواصيهم ، وبأن يرتـدوا ملابس خاصة ، ويشدوا أوساطهم بأحزمة من جلد ، ويركبوا مطاياهم دون أن تسـرج ، ثم منعهم من بنـاء الكنـائس ورفع أصواتهم في الصلاة ، (حتي ٢ / ١٠١) . من جهة أخرى وكما يقول يوليوس فلها وزن كان عمر بن عبد العـزيـز مسلماً متحمسـاً وإن النصـارى أحسـوا بذلـك ، ولكن عمر لم يكره النصارى على الدخول في الإسلام ، لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم (الذي ضمنه الإسلام للنصارى) وهذا مالم يكن من عمر لأنـه مسلم حق ، وهـو فيـما يتعلق بالنصـارى قد التـزم حدود الشرع التزاماً تامـاً ، وإن كان الأمـر ربـما بدا في أعـين النصارى على غير ذلك . وقد حمى عمـر للنصـارى ملكيتهم لكنـائسهم القـديمـة التي ضمنها لهم الصلح ، ولم يكن يمنع إلا بناء كنائس جديدة . وهمّ بأن يرد للنصارى ماأخذه الولـيد بن عبد الملك من كنيسة القديس يوحنا بغير حق ، لو أنهم في مقابل ذلك تنازلوا عن الكنائس التي كانت خارج باب دمشق ، خصوصاً كنيسة القديس توما ، لأن النصـارى صارت لهم هذه الكنـائس في الحقيقة خلافاً لشروط الصلح ،

بحكم أن ماكـان خارج دمشق قد فتـح عنـوة ولم يعـط للنصـارى في شروط الصلح . فلما لم يرض النصـارى بذلـك جعـل عمـر ما كان قد صار لهم من كنـائس عوضـاً لهم عما أخـذه الـوليـد من كنيسـة القـديس يوحنـا . (فكتور سحـاب ١٢٧) . ومـع ذلـك فقـد أصـر عمـر بن عبـد العـزيز على إشراك النصـارى في معظم الجيـوش (ابن سعـد ٥ / ٢٦٢) . تماماً كما كان يشـارك المسلمـون فيهـا . فالقضيـة إذن لم تكن شرعـة دينيـة ، بل موقف سيـاسي - اجتماعي وغالباً فردي ، اتخذه خليفة تجاه رعايا الدولة من أهل الكتاب أو فئة من رعـايـاهـا ، لكنـه نفسـه عاد وتراجع بعد عام واحد من بدء سياسته تجاه النصارى ، وأعادهم إلى وظائفهم وإلى أوضاعهم التي كانوا فيها قبل حملته عليهم ، وعادت الأمور إلى مجاريها .

أما موقف الخليفة العباسي المتوكل (٨٤٧ م) من النصارى ، فقد كان أيضاً موقفاً شخصياً بعد قرن وربع من توقف اجراءات عمر بن عبد العزيز. ولعـل معـرفتنـا إجـراءات المتـوكـل ضد العرب وبعض المذاهب الإسلامية الأخـرى ، تؤ كـد أن المـوقف كان نتيجة هوى خاص في نفس الخليفة . فقد مارس مضايقات واضطهادات ضد أشخاص أو فئات إسلامية أو إثنية دون مسـوغ منطقي أوشرعي ، وغـالبـاً دون حاجـة سياسية أو اجتماعية لمثل هذه التصرفات ، كإبعاده العرب عن الجيش ، وقراره عام (٢٣٦ هـ - ٨٥١ م) : هدم قبر الحسـين ، وهـدم ما حولـه من الـدور وأن يعمـل (ليتحـول إلى) مزارع ، ومنع الناس من زيارته وضُرِبَ وبقي صحراء ، وكان المتوكل معروفاً بالتعصب ، فتألم المسلمون من ذلك ، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمسـاجـد وهجـاه الشعـراء (السيـوطي ٣٢١) ، ومثـال آخـر أنه بعث عام (٢٣٧ هـ - ٨٥١ م) إلى نائب مصر أن يحلق لحية قاضي القضاة بمصر أبي بكـر محمـد بن أبي الليث وأن يضربه ويطوف به على حمار . (نفسه ٣٢١) .

وهكـذا اضطهـد المتـوكـل العرب والمسلمين مثلما اضطهد النصارى أيضاً، ولكنـه هنـا كان أشـد، فأمر بإلبـاسهم الغـل، وأن لايظهـروا في شعانينهم صليبـاً، وحـرم قراءة الصلوات في الشوارع، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض، وأن يجعلوا على أبـواب دورهم شيـاطـين. (الطبري ١ ـ ١٣٨٩). ونهاهم عن إشعال النار في الطرقات، وحدد لهم علائم في لباسهم وقص شعورهم، واعتدى على الضمانات الممنوحة لهم في عقد الذمة، ولم يحترم ملكياتهم ولا كنـائسهم ولا أمـوالهم، وتدخل في أسماء أولادهم وأساء معاملتهم، ورفض تحولهم إلى الإسـلام، ونهى عن تعليمهم، ومنـع الاحتفـالات بالأعياد النصـرانيـة خارج البيـوت، علماً بأن جميـع النـاس ومن مختلف الطـوائف والأديان كانوا يحتفلون بها قبل عهده، وكانت تأخذ طابعاً وطنياً، ويفرد آدم متـز صفحـات للتحـدث عن احتفـال المسلمـين (بجميع الأعياد النصرانية طوال العـام)، ويقـول عن المسلمـين إنهم تركـوا النصـارى يتصـرفـون في أمورهم الدينية من غير تدخل. . . . واشتركوا في الجانب الاجتماعي المسلي من تلك الأعيـاد، كما فعـل آباؤ هم من قبل، فمثلاً كانت أعياد أهل بغداد تكاد تكون نصرانية من كل وجه، وكانت أعياد القديسين من مختلف الأديرة أكثر الأعياد نصيباً من احتفال الناس، ولكن هذه الأديرة كانت لاتخلو حتى في غير الأعيـاد، من الـزوار الذين لاتربطهم في الدين صلة، ولم يكن الحال في مصـر يختلف كثـيراً عما تقـدم، وكـان يوم أحـد الشعـانـين يوم عيد كبير للعامة. . . . وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرن في قصر الخلافة ببغـداد متـزينـات في ثيـاب جميلة غاليـة، وفي أعنـاقهن صلبـان من الـذهب. . . . (ميتـز، الحضـارة الإسـلاميـة في القرن الرابع الهجري عن فكتـور سحـاب ٦٥). لكن المتـوكل تراجع فيما بعد عن إجراءاته، كما فعل عمـر بن عبـد العـزيـز، وأعـاد النصـارى إلى ما كانـوا عليه. والغريب أن

الأطباء في قصره كانوا من النصارى قبل بدء الاضطهاد وأثناءه وبعده.

أما الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي كان معروفاً بتصرفاته الغريبة، وطبيعته الخاصة، ومع أن أمه كانت نصرانية، وأن أخته كانت تعطف على النصارى وتتعاطف معهم وتدافع عنهم، إلا أنه لم يوفرهم من مضايقاته، فأمرهم (بشد الزنار ولبس الغيار)، وأن تعلق في أعناقهم الصلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته خمسة أرطال بالمصري، ومنعهم من ركوب الخيل، وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بسروج الخشب، والسيور السود بغير حلية، وأن لا يستخدموا مسلماً، ولا يشتروا عبداً ولا أمة (المقريزي ٢ / ٢٨٧). وهدم عدداً من الكنائس وبيعت محتوياتها، وفي الوقت نفسه، وكما كان الحال أيام المتوكل، كان الأطباء في قصره من النصارى، ومالبث الحاكم أن تراجع عن حملته فأعادهم إلى حالهم السابق، وأعاد ماتهدم من الكنائس، (المقريزي ٤/ ٣٨٩ - ٢ - ٣٩٩).

إضافة إلى هذه الحملات (المركزية) على النصارى، التي مارسها خلفاء، حصلت مضايقات أخرى بمبادرات فردية من وال في ولاية أو موظف في وظيفة، ولأسباب مختلفة، لكنها لم تأخذ طابع الحملة المركزية الشاملة كالحالات السابقة. فقد أمر علي بن سليمان مثلاً، وهو والي الرشيد على مصر بين عامي (٧٨٥ - ٧٨٧ م) بتدمير جميع الكنائس المبنية حديثاً، ثم جاء خلفه فاستفتى فقيهين كبيرين هما الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، فردا إيجابياً عندما أكدا أن جميع الكنائس بنيت في عهد الصحابة، فوافق على إعادة بنائها. وفي عام ٨٦٠ م صدر أمر يحرم الترميم والإصلاح في كنائس مصر إلا بإذن خاص، ولكن لم ينفذ مثل هذا الأمر أو هذه الإجراءات الفردية في أي من البلدان الأخرى.

ما عدا هذه (الحملات) الثلاث، التي جرت في عصور متفرقة

ولأسباب أشرنا إليها، بقي عهد الذمة محترماً بالإجمال طوال عهود الدول الثلاث (الأموية والعباسية والفاطمية)، بل لعب النصارى دوراً هاماً في الحركة الثقافية والعلمية والفنية طوال هذه القرون الأربعة.

اعتماد الإدارة على النصارى:

ورثت الدولة الأموية الإدارة البيزنطية ودواوينها، وكان معظم الموظفين في هذه الإدارة من النصارى، فأبقتهم الدولة في وظائفهم، وعندما انتقل مركز الخلافة إلى بغداد استفاد العباسيون من التجربة الأموية في إدارة الدولة، وأبقوا النصارى أيضاً على رأس وظائفهم ومناصبهم، وكذلك فعل الفاطميون في مصر (فقلما خلي ديوان من النصارى) (المقريزي ١/ ٩٨)، وكان (معظم الكتاب في الشام ومصر من النصارى) (المقدسي). ولم يقتصر الأمر على موظفي الإدارة التي كان لاغنى لها عنهم بسبب تراكم خبرتهم جيلاً وراء جيل، بل تعداه إلى الوظائف الكبيرة في الدولة، فباستثناء وزارة التفويض التي كان من المتعذر تكليف نصراني بها، لأن الإمام خليفة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا كما قال الماوردي، شارك النصارى في الوظائف والمناصب الأخرى كلها: وزارات، قيادة جيوش، حكام مناطق، إدارات.... الخ. ولم يكن أمراً نادراً أن ترى نصرانياً في إحدى هذه المناصب.

عين معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول (آل سرجون) النصارى في وظائف هامة، فوالد يوحنا الدمشقي منصور بن سرجون كان وزيراً، ويوحنا نفسه عين مربياً ليزيد بن معاوية ولغيره من أبناء الخلفاء وبقي في منصبه حتى خلافة هشام بن عبد الملك حيث اعتزل، وكان يوحنا

متعصباً لنصرانيته، لكنه خلط بين الإسلام والآريوسية، وقد كان يقول لخصومه المسلمين (عندما تدعوننا مشركين ندعوكم مشوهين) (حتي ٢ / ١٤٤)، وكانت إحدى زوجات معاوية نصرانية وهي ميسون الكلبية من بني كلب، وهي التي قالت قصيدتها الشهيرة التي مطلعها: لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلي من قصر منيف. (ويقال إن معاوية طلقها بسبب هذه القصيدة) وقد جعل معاوية نقطة الانطلاق في سياسته تعهد رعيته السورية الجديدة الذين كانوا إلى حينه على النصرانية، وكذلك القبائل العربية التي سبق أن استوطنت البلاد منذ العهد الجاهلي واعتنقت النصرانية نظير الغساسنة، ولقد كان الكثير من هذه القبائل ترتقي بنسبها إلى عرب الجنوب، خلافاً للنازحين المتأخرين الذين كانوا من عرب الشمال. . . . وكان طبيب معاوية الخاص وشاعر بلاطه مسيحيين (حتي ٢ / ٢٣). وتشهد المدونات العربية على الإخلاص الذي كان السوريون النصارى يكنونه له (أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجناة الطغام فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة، ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء) (الطبري ١ - ٣٤١٠). وقد عين معاوية طبيبه المسيحي ابن آثال عاملاً على ولاية حمص، وهو تعيين منقطع النظير لمسيحي في التاريخ الإسلامي، وكان شاعر البلاط في عهده الأخطل الشاعر المسيحي المشهور. (حتي ٢ / ٤٠ اليعقوبي ٢ / ٢٦٥) الذي كان يدخل على الخليفة الأموي وصليبه على صدره، وقد عاصر عدة خلفاء.

إن مثل هذه المواقف والاجراءات والاعتماد على النصارى لم تكن حكراً على معاوية أو على الدولة الأموية، بل جرى مثلها أيام الدولة العباسية والدولة الفاطمية. فقد عين الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك كاتباً نصرانياً (البطريق بن التقا) وبهذه المناسبة كان النصراني العربي يحمل

اسمين في آن واحد أحدهما عربياً والأخر دينياً. وعين المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣ م) نصرانياً عاملاً له (لجمع الخراج) في مدينة بوره، وكان هذا المركز يلزم صاحبه بالمشاركة في صلاة المسلمين التي تقام في المسجد كل يوم جمعه، مما اضطر العامل المشار إليه لأن يلزم أمين سره المسلم بالقيام بهذا الواجب بدلاً عنه. (ميتز ١ / ٨٣، عن حسن الزين ١١١). وعين اسطفان بن يعقوب (٩٣٥ م) مديراً لخزينة الخليفة.

وقلد ديوان جيش المسلمين في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) لنصراني مرتين، فقال علي بن عيسى لابن الفرات (وزير المقتدر): أما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلاً نصرانياً، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده، ويمتثلون لأمره؟. فقال له ابن الفرات: ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته، وقد كان الناصر لدين الله قلد الجيش إسرائيل الناصر كاتبه، وقلد المعتضد ملك بن الوليد النصراني كاتب بدر (أحمد أمين ظهر الإسلام ١ / ٨٣).

وشغل سعد بن ثابت وزارة في عهد المتقي (٩٤٠ ـ ٩٤٤ م) وتولى عبيد بن فضل النصراني (٩٧٦ م) قيادة الجيش تحت إمرة عضد الدولة العباسي، وعين الخليفة الطائع (٩٧٤ ـ ٩٩١ م) كاتباً نصرانياً، كما عين الخليفة العزيز الفاطمي عيسى بن نسطوروزيراً في بلاطه (واعتمد كثيراً على أهل الذمة) (ابن الأثير ٩/ ٨٣ ـ ٨٥). وكان لعضد الدولة البويهي (تحت السلطة العباسية) في بغداد وزير نصراني اسمه نصر بن هارون، وقد أذن له عضد الدولة في عمارة البيع والأديرة وإطلاق الأموال لفقراء النصارى. (ظهر الإسلام ١ / ٨٤). وكان المتصرفون من النصارى يقسمون اليمين شأنهم في ذلك شأن المسلمين. (ميتز نفسه).

وفي العصر الفاطمي كان من بين القبط الذين كلفوا بوظائف هامة في

الـدولـة، الفخـر بن سعيد رئيس الحاشية، والأسد بن الميقات رئيس ديوان الجيش، وأبـو اليمن بن مكـرواه بن زنبـور، وأبـو سعـد بن منصور بن أبي اليمن وزيــر الخليفــة المنتصـر. ومن الألقـاب التي خلعهـا عليهم الخلفـاء الفاطميون: الرئيس تاج الدولة، فخر الدولة، هبة الله، الأمجد. (أبو سيف يوسف ٨٠). وكـــان منهم في العصــر المملوكي بعـد ذلـك: الأسعـد شرف الـدين بن وهيب الله الفـائزي إلى جانب المعز إيبك، والوجيه المفضل كاتم سر الملكـة شجـرة الـدر. وكـان من الوزراء النشو ناظر الخاص السلطاني في عهـد النـاصـر قلاوون، وهبـة الله موفق الـدين والـوزيـر شمس الدين بن غبريال. (نفسه ٨٠).

إن تطور الدولة وزيادة احتياجاتها للنهضة العلمية والفكرية، جعلها تعتمد أكثر فأكثر على النصارى، الذين تعربوا وحصلوا على (مواطنية) دار الإسـلام في إطـار عقـد الـذمة. وكان رأسمالهم خبرتهم الإدارية، وثقافتهم وتقـدمهم العلمي، وإلمـامهم باللغـات الأخـرى إضـافـة للغة العربية، مما أهلهم للقيـــام بمهـــام الـترجمـة والاطـلاع على علوم الشعـوب الأخـرى وحضاراتها وفلسفاتها وآدابها.

حرية الحوار الديني:

بدأ الحوار الديني والفكري بين المسلمين والنصارى منذ بداية الدولة الأمـويـة، خاصــة وأن عدد النصــارى كان كبـيراً في البـدايـات وخاصة في العـاصمـة دمشق، وكـان المسلمـون أقليـة. وقـد تطـور الحوار وأخذ أبعاداً واسعـة، وكـان حواراً ديمـوقـراطيـاً بين ندين: كان المسلمـون يدعون إلى الإسـلام، فيضطـرهم ذلـك إلى ذكـر الحجـج والـبراهين على صحة هذا

الدين. فكان رؤساء النصرانية يقابلون الحجج بحجج فنشأ من هذا جدل كثير، وكثر ذلك في الدولة الأموية، وكان أكثر ما يكون في الشام، إذ دمشق عاصمة الخلافة، وفي الشام كثير من النصارى، لأنها كانت في يد الرومان النصارى، ولأن قصور الخلفاء الأمويين في دمشق كان فيها نصارى يتولون مناصب كبيرة. (ضحى الإسلام ١/ ٣٤٣). وها هو يوحنا الدمشقي، الذي كان أبوه وزيراً لمعاوية، وكان هو مربياً ومعلماً ليزيد، يكتب شرحاً طويلاً للنصارى في كيفية محاورة المسلمين، وخاصة عن طبيعة المسيح، وقد تضمنت تعليماته دفعاً لدعوة المسلمين: إذا قال لك العربي، ما تقول في المسيح؟ فقل له: إنه كلمة الله. ثم ليسأل النصراني المسلم بم سمي المسيح في القرآن، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول «كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه» فإن أجاب بذلك فاسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة؟. فإن قال مخلوقة فيرد بأن الله إذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح، قال يحيى (يوحنا): فإن قلت ذلك فستفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين. (نفسه ١/ ٣٤٣). ومع ذلك لم يطل يوحنا الدمشقي أي عقاب أو أذى بل حافظ على كامل امتيازاته.

وفي مصر، وصف يوحنا النيقي الإسلام والعرب بصفات غير لائقة، بعد أن لاحظ زيادة دخول الأقباط في الدين الإسلامي، فقال: في أيامنا يتحول الكثير من المصريين إلى الإسلام، ولكن هؤلاء كانوا من النصارى المزيفين، لقد تركوا الديانة الحقيقة، وقد ساعدوا عبدة الأوثان وحملوا معهم السلاح وحاربوا النصارى. (جواد علي ٦ ـ ٢٢ ـ ٢٣)، ولم يعاقب حنا النيقي على أقواله هذه، بل تولى رئاسة الإدارة عام ٦٩٦ م. وانتقد تيودور أبو قره (٧٤٠ ـ ٨٢٠ م) الإسلام فكراً وديناً. وأيام المأمون كتب عبد الله بن

اسماعيل الهاشمي رسالة إلى عبد المسيح اسحق الكندي يدعوه بها إلى الإسلام، فرد عليه عبد المسيح يدعوه إلى النصرانية، (ضحى الإسلام ١/ ٣٤٣).

تطور الحوار تطوراً كبيراً في العصر العباسي، وتوسع النقاش، وزاد التأثر والتأثير، وخاصة بعد أن ترجمت الفلسفة اليونانية إلى العربية، وتطور علم الكلام، وبعد أن تعددت المذاهب والفرق والطوائف الإسلامية، وتوسع هذا الحوار داخل المؤسسات الدينية والفلسفية والعلمية، وانتقل إلى صفوف العامة، بعد ازدهار الحركة الفكرية والعلمية في هذا العصر.

دور النصارى في الترجمة والآداب والعلوم:

احتكر النصارى تقريباً أعمال الترجمة التي ازدهرت، سواء من اليونانية أم السريانية أم غيرها من اللغات، وترجمت الأعمال الدينية والفلسفية والطبية والعلمية التي أبدعتها حضارات اليونان والهند وفارس وغيرها، وكان للنصارى الفضل فيما أحدثت هذه الترجمات من تأثير في الفلسفة والطبيعيات والإلهيات والطب وفروعه والصيدلة والرياضيات والنجوم وسائر العلوم. ومن أبرز الذين ساهموا في هذه المجالات اصطفان القديم والبطريق وابنه أبوزكريا يحيى بن البطريق والحجاج بن مطر (نقل المجسطي وإقليدس)، وعبد الله الحمصي الناعمي وسلام الأبرش وأبو نوح إبراهيم بن الصلت، وعيسى بن نوح ودريع الراهب وقسطا بن لوقا وحنين بن اسحق العبادي وثابت بن قره وابنه سنان وعيسى بن يحيى ويحيى بن عدي. وكذلك بنو حماتي النصارى الأقباط، وهم ينتمون إلى أبي مليح الملقب بحماتي (وكان أبومليح نصرانياً، وإنما قيل له حماتي لأنه

وقـع في مصـر غلاء عظيم ، وكـان كثير الصدقة والإطعام وخصوصاً لصغار المسلمين، فكانوا إذا رأوه نادى كل واحد منهم . . . . حماتي فاشتهر به) (ابن خلكان) . وقد قدم بنو حماتي مصر، وخدموا وولوا الولايات ، وأبو مليح من أهـل بيت في الكتـابـة عريق، وهو كالمستولي على الديار المصرية ليس على يده يد . (يـاقـوت ٢ / ٢٤٤) وقـائمة النصارى المساهمين في مجالات الترجمة والعلوم والفلسفة تطول .

عين هارون الرشيد يوحنا بن ماسويه لترجمة كتب الطب، ثم أصبح الأمـين العـام لسـر الـترجمـة حتى عصر المتوكل ، ووضع الرشيد تحت رقابته جميـع المـدارس، وكـانت إدارة المدارس غالباً مفوضة للنساطرة (محمد عبده الإسلام والنصرانية) ، وكان معظم النساطرة من العرب . وأقام النصارى في ذلـك العصـر مدارس خاصة للطب والفلسفة وغيرها ، كما أقاموا مؤسسات ثقـافيـة وكـان أمراً طبيعياً أن يكون للنصراني معلم مسلم ، أو للمسلم معلم نصـراني ، فيحيى بن عيسى النصـراني تلقى المنطق على يد شيخ المعتزلة ، والفـارابي تلقى العلم على يد نصـراني من حران هو متى بن يونس ، وكـان أغلب أطباء القصور في بغداد من النصارى .

وساهم الأقباط بدورهم في التطور المدني العربي فثمة اتفاق بين عدد من المؤرخـين على أن قبـط مصـر هم الـذين قامـوا بالدور الأساسي في بناء الأسطـول العـربي ، وكـان ذلـك في بدايـة العصر الأموي ، إضافة إلى دار الصناعة التي كانت بالاسكندرية ، وقد وجه والي مصر عبد العزيز بن مروان ثلاثة آلاف من عمال صناعة السفن إلى تونس لإنشاء دار لهذه الصناعة ، كما ذهب عدد من العمال القبط إلى الشام . (أبو سيف يوسف ٨٤) .

لعب النصـارى العـرب دوراً هاماً في مجال الأدب والشعر، فكان من أهم الشعـراء النصـارى في هذه المـرحلة هدبـة بن الخشـرم (من قضـاعـة)

وموسى بن جابر (من بني حنيفة) وذلك في مطلع عصر الدولة الأموية، وشمعلة التغلبي (من لخم) أيام عبد الملك وابنيه الوليد وهشام، وأعشى بني تغلب وكان نصرانياً وعلى ذلك مات. وأعشى بن أبي ربيعة أيام عبد الملك بن مروان، ومرقس الطائي واسمه عبد الرحمن ولقبه مرقس (وهذا يؤكد اتخاذ العرب إسمين أحدهما ديني)، ونابغة بني شيبان، الذي قال فيه أبو الفرج الأصبهاني: وكان فيما أرى نصرانياً لأني وجدت في شعره يحلف بالإنجيل وبالرهبان وبالإيمان التي يحلف بها النصارى. وحنين الحيري: وكان شاعراً فحلاً من فحول المغنين وله صنعة فاضلة متقدمة وكان يسكن الحيرة وكان نصرانياً. والأخطل التغلبي وهومن أعظم شعراء النصرانية. واسمه الكامل (أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت) ولقب (بذي الصليب لنصرانيته وحمله الصليب).

ومن الشعراء في العصر العباسي، أبوقابوس عمر بن سليمان في عهد الرشيد، والتستري (. . . . . ويكنى أبا الحسين وكان نصرانياً، قريب العهد من صنائع بني الفرات)، وبشر بن هارون النصراني وكان (كثير الهجو للوزراء والرؤساء). وهناك أعداد كبيرة جداً من الشعراء والأدباء النصارى لامجال لسردها.

كان للأديرة تأثير كبير على ثقافة الناس، وقد روى الإخباريون حكماً وأمثلة وأعمالاً عديدة عن رهبان نصارى وعن كتب نصرانية. (ضحى الإسلام ١ / ٣٤٩). كالذي حكى ابن قتيبة: قرأت في الإنجيل لاتجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدها السوس والدود، وحيث ينقب السراق، ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء، فإنه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم . . . .) (عيون الأخبار ٢ / ٢٩٧). أو الذي رواه ابن عبد ربه (. . . . قال عيسى عليه السلام للحواريين: لاتنظروا في أعمال الناس

كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد. فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية) (العقد الفريد ١ / ٣٥٦). و(لقي رجل راهباً فقال ياراهب صف لنا الدنيا، فقال: الدنيا تخلق الأبدان وتجدد الآمال وتباعد الأمنية وتقرب المنية. (نفسه ١ / ٢٧١). وغير ذلك.

لقد قرب معظم الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين النصارى إليهم، وتعاطوا معهم كمواطنين، وكلفوهم بمهمات وأعمال جسيمة، وخاصة العرب منهم، وأئتمنوهم على أموالهم الشخصية وأملاكهم وتربية أبنائهم، فقد عين سليمان بن عبد الملك كاتباً نصرانياً، وكلفه بإدارة أعماله في الرملة ومراقبة القنوات والآبار والمساجد، وكان هشام بن عبد الملك شديد التعاطف مع النصارى كثير الود لهم، فقد كانت كنيسة دمشق قريبة من قصره، فأمر ببناء دار للبطريرك مجاورة لقصره. وكان كثير من الخلفاء يكلفون نصارى بتربية أبنائهم.

الفصل الرابع

الغزو الفرنجي (الصليبي)

أحوال البلدان العربية قبيل الغزو الفرنجي ـ الأحوال في أوروبا ـ بدء الغزو ومجرياته ـ احتلال انطاكية ـ احتلال القدس ـ أحوال الإمارات الصليبية في الشرق ـ قيام الدولة الأيوبية وسقوط الخلافة الفاطمية ـ بدء التحرير ـ موقف المسيحيين المشارقة ـ نتائج الحروب الصليبية على نصارى المشرق.

نحن هم المسيحيون الحقيقيون. ودينا لم يتدخل في السياسة، ونحن لسنا مسؤولين عن أعمال المسيحية الغربية، إن ولاءنا هو للشرق.

فرح أنطون

إن السكان في القسم الشرقي من حوض المتوسط المنتمين إلى مختلف التيارات والطوائف المسيحية، لم يفتشوا يوما لا في الشرق ولا في بيزنطة عن الحماية.

زابوروف

ثم عين الإفرنج بطريركا لاتينيا على أورشليم وأبعدوا الكهنة الأرثوذكسيين والأرمن والسريان والأقباط عن كنيسة القبر المقدس، الأمر الذي جعل الهيرارخية الأرثوذكسية الأورشليمية تنتقل هي أيضا إلى القسطنطينية، ولما خرج اللاتين من القدس سنة ١١٨٧ م، كان هناك بطريرك أرثوذكسي مستعد ليتسلم مهامه في القدس.

المطران جورج خضر

أحوال البلدان العربية قبيل الغزو الفرنجي:

كانت البلاد العربية في أواسط القرن الحادي عشر منقسمة بين خلافتين: الخلافة الفاطمية في مصر والخلافة العباسية في بغداد.

قامت الأسرة الفاطمية في شمال إفريقيا في أوائل القرن العاشر الميلادي، وأرجعت نسبها إلى فاطمة بنت الرسول وزوج علي بن أبي طالب. واستطاعت إخضاع قبائل صنهاجه بالمغرب الأقصى، وقضت على نفوذ الأدارسة في فاس. وبنى الفاطميون مدينة المهدية جنوب القيروان وجعلوها عاصمة لهم، ونادوا بإمامهم خليفة (عام ٩٠٩ م) ليعارضوا بذلك الخلافة العباسية في بغداد. ثم استولوا على الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة، كما استولوا على صقلية (٩٤٦ م). وآلت الخلافة الفاطمية للمعز لدين الله عام (٩٥٢ م)، فوجه المعز جيوشه إلى مصر بقيادة جوهر الصقلي، الذي استطاع الاستيلاء عليها عام (٩٦٩ م)، وأسس مدينة القاهرة، وجعلها عاصمة للخلافة الفاطمية، وبنى فيها الأزهر ودار الحكمة، ثم استولى على فلسطين وسورية وغرب الجزيرة العربية، وأخضعها جميعاً للخلافة الفاطمية، وسلخها عن سلطة الدولة العباسية، التي كان يسيطر عليها عملياً البويهيون الفرس.

أما الخلافة العباسية في بغداد، فقد كانت في ذلك الوقت إسمية ورمزية وغطاء شرعياً لحكام فعليين آخرين، وكان الخليفة رمزاً روحياً لايحكم ولا سلطة له. وقد تولى البويهيون الفرس السلطة الفعلية في بغداد منذ عام (٩٤٥ م). وفي منتصف القرن الحادي عشر عمل الفاطميون لإتباع بغداد لسلطتهم فشجعوا بعض المغامرين من أهل السلطة على التحالف معهم سراً، مع الوعد بدعمهم لاستلام السلطة. فحاول (البساسيري) وهو أبو الحارث أرسلان الملقب بالمظفر وأحد القادة أواخر حكم بني بويه والحاكم العسكري لبغداد، حاول المجاهرة بمناصرته للمستنصر الخليفة الفاطمي ونجح في الاستيلاء على العاصمة لكنه هزم بعد حين أمام السلجوقيين الاتراك الذين طلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله مساعدتهم، وكان السلجوقيون قد استولوا على خوارزم وإيران وقضوا على الدولة البويهية في فارس واتخذوا أصفهان عاصمة لهم. وهم مسلمون من قبيلة الغز التركستانية، فقدموا إلى بغداد واحتلوها عام (١٠٥٥ م)، وطردوا البويهيين وأعلن طغرل بك زعيمهم نفسه (سلطاناً) ووضع اسمه على العملة، وكان أول من لقب نفسه بهذا اللقب في البلدان الإسلامية، كما لقبه الخليفة القائم بأمر الله ملك الشرق والغرب. وأصبحت السلطة الفعلية في الخلافة العباسية للسلاجقة الأتراك بلا منازع.

انطلق الأتراك السلاجقة في سنواتهم الأولى أقوياء طموحين، واندفعوا لتوسيع نفوذهم سواء على حساب النفوذ الفاطمي أم على حساب الدولة البيزنطية. وبدأوا السعي للاستيلاء على المناطق التابعة للإمبراطورية البيزنطية، واستطاعوا بالفعل احتلال مناطق واسعة منها (الكرج وأرمينيا ومناطق من شمال غرب سورية)، وأرجعوا حدود بيزنطة مئات الكيلومترات إلى الوراء، واستطاعوا في إحدى المعارك أن يأسروا

الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع (١٠٧١ م) الذي كان يقود جيشه، كما استولوا على معظم مناطق سورية وفلسطين، ووحدوها مع مناطق نفوذهم الأخرى، وغدت المناطق التي يحكمونها واسعة شاسعة مهيأة لتكون دولة قوية بزعامتهم. إلا أن هذه (الدولة) السلجوقية، سرعان ما انقسمت إلى خمس ممالك سلجوقية متنافرة بل ومتحاربة اعتباراً من عام ١٠٩٦ م بدء الغزو الصليبي للشرق. وبقيت الإمبراطورية البيزنطية تشكل تهديداً للسلاجقة، إلا أن الخطر الفعلي لم يأت من الإمبراطورية البيزنطية، بل من قلب أوروبا، ممن قاموا بغزو استيطاني للشرق تحت شعار حماية قبر المسيح وإنقاذ مسيحيي الشرق.

كانت الخلافتان العباسية والفاطمية متنازعتين، بل كان الفاطميون والسلجوقيون على نزاع دائم بهدف إعادة تقاسم مناطق النفوذ، وكانت كل منهما تعمل للقضاء على الأخرى، وداخل كل منهما أيضاً تقوم إمارات ومناطق نفوذ محلي وإقطاعيات ومشيخات، لاتقل خصومة فيما بينها عما بين الخصمين الرئيسيين، وكل من هذه التكتلات الصغيرة يعمل لحسابه تحت ولاء رمزي للخلافة الكبرى، وسرعان مايغير الولاء من هنا إلى هناك حسبما يرى الحاكم أن مصلحته تقتضي ذلك.

أما المجتمع في هذه الدويلات والإمارات والمشيخات، فكان إقطاعياً شرقياً، تسوده الملكيات الكبرى في الأرياف والحرف في المدن، وكانت الحياة الاجتماعية شبه مغلقة، والقوى العسكرية الغاشمة تسير بلانظام، وينعدم الأمن، ويتعدد الحكام الصغار والكبار والمسؤولون، ويتآمر كل منهم على الآخر، وتجبى الضرائب والرسوم كيفياً، فتدهور الاقتصاد وازداد فقر الفقراء، وتنامت عمليات النهب والفساد والرشوة، وتدهورت الحركة

العلمية والثقافية، وكأن الحضارة العربية ـ الإسلامية خبا نورها، وأوشكت على الاندحار والموت.

أما الطبقة الحاكمة فكانت بعيدة كلياً عن الشعب، مغلقة على نفسها، لاتعرف مايدور في البلاد، ولاتتكلم العربية، ولها جيشها ومرتزقتها ومماليكها وجباتها، والناس لا حول لهم ولاقوة، يخضعون للاستغلال والابتزاز والاضطهاد والظلم، ويئنون تحت ثقلها، وتسحقهم بكلكلها، ولا يلوون على شيء. كانت إدارة الدولة شبه منحلة ينقصها التماسك والتوجيه المركزي، وكانت السلطة السياسية قمعية بواسطة عساكرها ومرتزقتها، ومع انعدام السياسة المركزية والأمن، تراجع الإنتاج وزادت الفوضى والفقر ووصل المجتمع والدولة إلى أقصى درجات الضعف والانحطاط.

الأحوال في أوروبا:

أما في أوروبا فقد أدى التطور الاقتصادي والاجتماعي (وربما السياسي) إلى ثبات حدود الإقطاعيات والكونتيات، التي كانت قبلاً متحولة قابلة للتوسع أو الاضمحلال، واستقر وضع هذه الإقطاعيات، مما نشأ عنه بقاء إقطاعيين صغاراً خارج هذه الإقطاعيات لأنهم من غير الوارثين، وكان لابد لهم من البحث عن اقطاعيات جديدة لئلا يبقوا (ملوكاً بدون ممالك). وفي الوقت نفسه ازداد فقر الفلاحين وجوعهم وتضاعف عدد الأقنان والفقراء والمدقعين. وكان التجار الإيطاليون في المدن التجارية جنوه وبيزا والبندقية الذين يعتمدون على تجارتهم مع الشرق، يلاقون مصاعب ناجمة عن زيادة الضرائب والرسوم والأتاوات في إمارات المشرق العربي، كما أن استيلاء السلجوقيين على مدن ومناطق بيزنطية وضعف الإمبراطورية

البيزنطية، أدى بالامبراطور البيزنطي لدعوة البابا لمساعدته ضد السلاجقة، مما لاقى صدى لدى البابا الذي كان يطمح إلى توحيد الكنيستين الأرثوذكسية (البيزنطية) والكاثوليكية (البابوية) اللتين انفصلتا نهائياً عام ١٠٥٤ م، كما كان يطمح إلى توسيع نطاق كنيسته الكاثوليكية لتضم الكنيسة الأخرى وثرواتها الكبيرة ومناطق نفوذها الواسعة. وكان القادة العسكريون في أوروبا من الأمراء الطامعين في الاستيلاء على أراض جديدة، ويبحثون عن هذه الأراضي، كما كان استمرار الوجود العربي في شبه جزيرة إيبر يا (إسبانيا) وثباته وفشل الأوروبيين في القضاء عليه، يسبب (عاراً) لحكام أوروبا وأمرائها وإقطاعييها وأسرها الحاكمة في ذلك الوقت، وهكذا ساهمت المؤسسة الدينية (البابوية) والملوك والطامعون والإقطاعيون والتجار والعسكريون والفقراء المدقعون والمغامرون والمجرمون الذين وعدوا بالغفران، ساهموا جميعاً في الحملات الصليبية التي راقت لهم، وكل منهم رأى فيها فرصة لتحقيق أهدافه ومطامعه. لقد تعددت أسباب الحروب الصليبية وتداخلت، لكنها مجتمعة أوجدت مناخاً أدى إلى جنون الدعوة لها، وسار الآلاف بل عشرات الألوف نحو الشرق، كل لأسبابه، تحت شعار إنقاذ قبر المسيح من أيدي الوثنيين.

لقد كان الشرق مع مدنه التجارية الكبيرة والمتطورة في الميدان الاقتصادي أكثر من الغرب القروي أساساً، يبدو للفرسان المنحطين، والطغاة الإقطاعيين الطموحين، مصدراً لكنوز عظيمة، وكانت أقاصيص الحجاج العائدين من القدس والقسطنطينية تصور (بالخيال) المعابد والقصور الرائعة في المدن الشرقية، وعجائب البذخ التي تغمر الأغنياء البيزنطيين والعرب، وعن هذه العجائب نشأت أساطير كان ينقلها المغنون القصاصون المتجولون إلى قصور الفرسان. (زابوروف ٣٨).

بدء الغزو ومجرياته :

بدأت الشرارة الأولى للغزو الصليبي بخطاب ألقاه البابا أوربانوس الثاني ـ وهو من أصل فرنسي ـ في مدينة كليرمونت بجنوب فرنسا، وأفهم الطامعين جميعاً على مختلف أهدافهم وتوجهاتهم، أن مطامحهم سوف تتحقق بغزو الشرق، سواء كانت المطامع اقتصادية أم عسكرية أم بدافع ديني، أم طلباً للمغفرة. وقد بدأ البابا كلمته بالإعلان عن حرصه الديني على المسيحيين والكنائس في الشرق (ياشعب الفرنجة، شعب الله المحبوب المختار. . . . . لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية، أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد مايكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق. . . . . وهم يهدمون المذابح في الكنائس، بعد أن يدنسوها برجسهم . . .) ثم دغدغ آمال ومطامح الطامحين من مستمعيه (. . . . ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال، ضيقة لاتتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية. طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على مابينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم. **إن أورشليم أرض لانظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج** . . . .) (وول ديورانت ١٥/ ١٥ ـ ١٦). وسرى جنون الدعوة في كل مكان من أوروبا، وتوجه الناس بعشرات الألوف نحو الشرق حيث

حددت القسطنطينية كنقطة لقاء أولى ، وساروا شباباً وشيباً ، نساء وأطفالاً ، فقراء وأغنياء ، يحملون طعامهم معهم أوبدون طعام ، يملكون سلاحاً أو بدون سلاح ، وكل يحلم بتحقيق أهدافه . لقد كانت الانطلاقة في الواقع غزواً بهدف الاستيطان منذ اللحظات الأولى .

أطلق الصليبيون شعاراً رئيسياً لحملتهم هو (هكذا يريد الله) أو (تلك إرادة الله) ، وخاطوا الصلبان على ثيابهم ، ومشوا (لإنقاذ) القبر المقدس ، ومساعدة مسيحيي الشرق و(حمايتهم) من (ملاحقات) المسلمين ، مع أن السكان أنفسهم في بلدان القسم الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط ، المنتمين إلى مختلف التيارات والطوائف المسيحية ، لم يفتشوا يوماً ، لا في الشرق ولا في بيزنطة عن الحماية من الملاحقات الدينية المنسوبة إلى السلجوقيين ، وكان بوسع الحجاج - دائماً - أن يزوروا القدس كما في السابق . (زابوروف ٣٥) .

تقدمت جيوش الصليبيين نحو الشرق ، وكانت هتافاتهم التي تنادي بإبادة المسلمين تسمع في كل مكان ، مع أنهم شوهدوا ينهبون في طريقهم أكثر من كنيسة رومية . (أمين معلوف ٢٢) ولما فرغت أموالهم ، وعضهم الجوع ، اضطروا إلى نهب ما في طريقهم من الحقول والبيوت ، وسرعان ما أضافوا الفسق إلى السلب والنهب (ديورانت ١٥ / ٢٠) . ونسوا أنهم جاءوا لتحرير المسيحيين من (اضطهاد) المسلمين ، وإذ لم يبق في الجوار مايلتقطون ، فقد اتجهوا صوب نيقية واجتازوا بعض القرى وكلها مسيحية ، ووضعوا اليد على الغلال التي كانت قد خزنت في الأهراء بعد الحصاد ، ذابحين بلا شفقة كل من حاول مقاومتهم من الفلاحين ، ولعل أولاداً يافعين قد أحرقوا أحياء . (أمين معلوف ٢٣) وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة في كنائس العاصمة البيزنطية ، وقصورها

وأسواقها، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الشجعان البواسل لا من نصيب مسيحيي بيزنطة (. . . . . سادة الشرق المثقفين المخادعين) ويرون (أنهم «البيزنطيين» مارقون من الدين) (ديورانت ١٥ / ٤١). ثم استطاعوا احتلال الرها، (بعد أن تحالفت أرمينيا مع الفرنجة)، وكان سكانها من الأرمن والمسيحيين والمسلمين، وأقاموا فيها أول إمارة صليبية في الشرق برئاسة بلدوين.

احتلال انطاكية:

توجه الصليبيون إلى إنطاكية فحاصروها (ولما سمع صاحبها ياغيسيان (ياغي سيان) بتوجههم إليها، خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم، وأمرهم بحفر الخندق، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً ليس معهم مسلم، فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم، وقال لهم انطاكية لكم تهبوها لي حتى أنظر مايكون منا ومن الفرنج، فقالوا له من يحفظ أبناءنا ونساءنا، فقال: أنا أخلفكم فيهم) (ابن الأثير ٨/ ١٨٦).

إن موقف صاحب انطاكية ياغي سيان كان مفهوماً تماماً وربما مبرراً، لأن الهتاف الرئيس للحملة الصليبية كان (إبادة المسلمين وتخليص القبر المقدس)، وقد افترض أن الحملة دينية فعلاً، وخشي تحالف النصارى السوريون معها، خاصة وأن الحملات الصليبية كانت في بداياتها، ولم تكن أهدافها واضحة تماماً لسكان البلدان العربية ولحكامها. وهكذا خضع نصارى الشرق من الأروام والأرمن والموارنة واليعاقبة، في إنطاكية أو في غيرها، منذ مجيء الفرنج إلى اضطهاد مزدوج :ـ اضطهاد إخوتهم في الدين

من الغـربيـين الـذين يتهمـونهم بالتعاطف مع العرب ويعاملونهم على أنهم رعـايـا من رتبـة أدنى ، واضطهـاد مواطنيهم المسلمـين الذين كثيراً ما يرون فيهم حلفـاء طبيعيـين للغـزاة ، وفي خلد ياغي سيان أن طرد النصارى ليس من باب التمييز الديني ، وإنما هو يشمل رعايا قوة معادية هي القسطنطينية ، التي كانت إنطاكية تابعة لها زمناً طويلاً ، ولم تتخل قط عن فكرة استرجاعها (معلوف ٤١) . وقـد كانت نظـرة الصليبيـين دائـماً ، وطـوال مدة إقامتهم في المشـرق ، إلى مختلف الطـوائف المسيحيـة في الشـرق (بـاستثناء الكاثوليك والمـوارنة) أنهم هراطقة منشقون ومحرفون . ولذلك كانوا يعاملونهم على هذا الأساس ، وطالما اضطهدوهم ونهبوا كنائسهم حيثما احتلوها ، وكلما أمكنهم ذلك .

بعـد حصـار إنطـاكيـة ثمانيـة أشهـر ، استطاع الصليبيون احتلالها ، فاستبـاحـوهـا (ثم إن الفـرنج دخلوا البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين) (ابن الأثير ٨/ ١٦٨) . ولم يقتصر الأمر على المسلمين بل (قتلوا المئات من سكان المدينة ، وانتشوا بسيول الدماء التي سفكوها ، ولم يفرقوا بين مسلم ومسيحي) (زابوروف ٩٣) . وأقدموا بعد ذلك على إلغاء البطريركية الإنطاكية (فبعد احتلال إنطاكية ألغيت الرئاسة الروحية الأرثوذكسية إلغاء ، فأخـرج البطـريـرك يوحنـا السـابـع وتهجـر إلى القسطنطينيـة ، حيث أقـام البطـاركـة الشـرعيـون (الأرثوذكس) حتى نهاية الحكم الفرنجي . (المطران جورج خضـر ٨٧) . ولم يعـتـرف الإكليروس الأرثـوذكسي (بسلطـة اللاتين على كنيسة إنطاكية وأقام بطاركة تولوا الشرعية في الخارج) (نفسه ٨٧) .

استبـاح الصليبيـون القـرى المحيطـة بإنطـاكيـة مسيحيـة كانت أم إسـلاميـة ، واستطيبوا الإقامة والعيش الحسن ، في إنطاكية ومنطقتها (وذاقوا السكر لأول مرة) لأنهم لم يكونوا يعرفونه ، حتى كادوا أن ينسوا شعاراتهم التي

نادت باسترجاع كنيسة القيامة، لولا تململ فقرائهم والمتدينين منهم، وتهديدهم للأمراء والقادة العسكريين، وإجبارهم على متابعة الطريق إلى القدس، بعد أن استقرت إمارتهم في إنطاكية، وهكذا صارت لهم إمارتان في المشرق (أو كيانان)، أحداهما في مدينة الرها والثانية في إنطاكية.

احتلال القدس:

توجهت جحافل الصليبيين إلى القدس مستخدمة الطريق الساحلي، وهو طريق الغزاة التقليدي، ومروا بطريقهم على مدينة المعرة حيث (وضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام . . . وسبوا السبي الكثير) (ابن الأثير ٨/ ١٨٧). ثم تابعوا طريقهم، واستخدموا أدلة من السكان المحليين، حيث زودهم أمراء طرابلس بزعامة (ابن عمار) بكشافة (استطلاع)، كما أسدى الموارنة إليهم خدمات جليلة لمعرفتهم تلك المنطقة، فكانوا الأدلاء لهم. وجرى أمير بيروت على الخطة التي انتهجها أمير طرابلس، فقدم لهم مالاً ومقداراً سخياً من المؤن. (حتي ٢/ ٢٢٨). وتجاوزوا المدن الكبرى المجهزة بحاميات، ولذلك لم يواجهوا قوى محاربة، ولم تحصل معارك، وكان زحفهم (أشبه شيء بنزهة) (حتي ٢/ ٢٨٠). ثم وصلوا القدس عام ١٠٩٩ م وحاصروها بإثني عشر ألف مقاتل لمدة أربعين يوماً، وكانت حاميتها ألف مقاتل فقط فاحتلوها، ومارسوا مذبحة لا مثيل لها (وركب الناسَ السيفُ ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. . . . وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم. . .) (ابن الأثير ٨/ ١٨٩). وقدر مصدر أرمني عدد الضحايا بـ ٦٥ ألفاً. ويذكر

مصدر لاتيني أن النظر كان يقع على أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام في الطرق وفي الساحات العامة. (حتي ٢/ ٢٢٩). وقال القس ريموند الإجيلي وهو شاهد عيان (... وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال) (عن ديورانت ١٥/ ٢٥). ويروي غيره من المعاصرين (.... أن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد...) (عن ديورانت ١٥/ ٢٥). وخربوا مسجد عمر ونهبوا مسجد الصخرة، وأزيل المحراب، وبقيت الجثث في الشوارع أياماً، والدماء تسيل كالمياه الغزيرة، ولم يوفروا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً، وحرموا المسلمين من سكنى المدينة فغدت فارغة، وكان قسم كبير من النصارى قد غادرها أيضاً، مما اضطر بلدوين الأول الملك المتوج عليها، أن يعالج المسألة ـ كما يقول وليم الصوري ـ فرأى أن عدد الناس قليل للغاية، وأنهم لا يكادون يملأون شارعاً واحداً، فأقدم على إتاحة الفرصة لسكان القرى المسيحية المجاورة لكي يجيئوا للاستقرار في المدينة بشروط معقولة. (موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ٣/ ١٣٢).

كان أول ما اتخذه الصليبيون من تدابير أنهم طردوا من كنيسة القيامة جميع الكهنة من الطقس الشرقي ـ روماً وجرجيين وأرمن وأقباطاً وسرياناً ـ الذين كانوا يقيمون القداديس معاً تبعاً لمذهب كان جميع الفاتحين قد احترموه حتى ذلك الحين. وإذ ذهل وجهاء الطوائف المسيحية الشرقية أمام

هذا القـدر من التعصب فقـد عزمـوا على المقـاومـة ، ورفضـوا أن يكشفـوا للمحتـل عن المكـان الـذي خبأوا فيـه الصليب الحقيقي الـذي مات عليـه المسيـح ، والتفـاني الـديني بصـدد هذه الذخيرة مقترن في نظر هؤلاء بالعزة القـوميـة . أليسـوا في الـواقـع مواطني النـاصري؟ . وإذ قبضوا على الكهنة المـوكلـين بحـراسـة الصليب وأخضعـوهم للتعذيب ، فقد تمكنوا من انتزاع سرهم ، والحصـول من مسيحيي المـدينـة المقـدسـة بالقـوة على أغلى ما يملكـون . (معلوف ٧٨) . ثم عيّن (الإفـرنج بطريركاً لاتينياً على أورشليم وأبعـدوا الكهنـة الأرثـوذكسيـين والأرمن والسريان والأقباط عن كنيسة القبر المقـدس ، الأمـر الذي جعل الهيرارخية الأرثوذكسية الأورشليمية تنتقل هي أيضـاً إلى القسطنطينيـة ، ولما خرج اللاتين من القدس سنة ١١٨٧ م (بعد أن استعـادهـا صلاح الـدين) كان هناك بطريرك أرثوذكسي مستعد ليتسلم مهـامـه في القـدس) . (جـورج خضـر ٨٧) . كما منعـوا الأقبـاط من الحـج باعتبـارهم هراطقـة . وكـانت طوال غزواتهم تنتقـل إلى الأحبـار الكاثوليك أملاك رجال الدين المسلمين ومعظم أملاك الكنائس المسيحية الشرقية .

وهكـذا أقـام الفـرنـج إمارتهم الثالثة في القدس ، ثم توسعوا فاحتلوا المنـاطق المجـاورة ، وعادوا لاحتلال المناطق الساحلية الفلسطينية ، وتوسعوا في الشـمال أيضـاً فأقاموا بعد عدة سنوات (عام ١١٠٤ م) إمارتهم الرابعة في طرابلس ، وكان أكثرية سكانها من المسلمين ، كما أقاموا إمارة صور لاحقاً ، ثم حاولـوا وصـل مستعمـراتهم وحصونهم وإماراتهم المتفرقة والتنسيق بينها . وأقـامـوا مجتمعـات جديدة لها بناها الاقتصادية وعلاقاتها الاجتماعية ونظمها السيـاسيـة ، وكانت تختلف عن الأنظمة العربية القائمة في الإمارات العربية المجاورة لهم .

أحوال الامارات الصليبية في المشرق:

لم تكن الحملات الصليبية حملات عسكرية فقط تهدف لاحتلال البلدان واتباعها لدولة أخرى غازية، بل كانت غزواً استيطانياً كاملاً، فقد رافق المحاربين، نساء وأطفال وشيوخ، ورجال من كل المهن والأعمار والفئات الاجتماعية. وبدأ الفرنج يستقرون في البلدان التي احتلوها، والتي أقاموا إماراتهم فيها، ويمارسون كامل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والحياة اليومية مثل أي تشكيل اجتماعي آخر، بل أخذوا يحولون المجتمعات التي كانت قائمة إلى شبيه بمجتمعاتهم التي تركوها في أوروبا، سواء بهيكليتها السياسية أم بعلاقاتها الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية وغيرها.

كان سكان الإمارات الصليبية (على مختلف تسمياتها، سواء ضمت مدينة أم مدينة ومناطق حولها أم حصون ومواقع عسكرية) من قوميات متعددة وأديان متعددة ومذاهب متعددة. فهناك المستوطنون الفرنج الذين بلغ عددهم في بعض الإمارات أو بعض التجمعات ربع السكان، وكانوا هم أنفسهم من قوميات متعددة، إضافة إلى المواطنين العرب من مسلمين ومسيحيين، ومن مختلف الطوائف، سنة وشيعة، ويعاقبة ونساطرة، وأرمن وسريان، وكان المسلمون أقلية في هذه الإمارات باستثناء إمارة طرابلس التي كانوا فيها أكثرية. وقد غدا السكان الأصليون فلاحين مضطهدين أو أقناناً، خاصة وأن الفرنجة حاولوا أن يقيموا في دويلاتهم نظاماً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، مماثلاً للإقطاعيات الأوروبية التي عرفوها في بلادهم. لكن المجتمعات التي أقاموها في الشرق اختلفت بالواقع عن مثيلاتها الأوروبية، بسبب تداخل الأنماط الشرقية مع الأنماط الغربية، فبعد استيلاء الصليبيين

على الشرق الأدنى، تغير نظام الإقطاع العسكري بصورة جوهرية، فقد تشابكت فيه تلك النظم الإقطاعية التى حملها الفرنج معهم، علماً بأن مؤسسات الإقطاعية الغربية هي التي هيمنت، بينما العناصر الشرقية إذا ما بقيت فكنت معدلة وظلت على المستوى المحلي بوجه الحصر. ففي القرى التي كان يقطنها المسيحيون مثلاً، كان الموظفون المسمون بالرؤساء يواصلون غالباً أداء وظائفهم، وكانت صلاحياتهم تشمل حل الدعاوى المدنية الصغيرة، لأن القضاء الجزائي كان من صلاحيات الأسياد، كما كان الرؤساء المحليون مسؤولون عن تحصيل الضرائب العينية في صالح الأسياد. (زوبوروف ١٣٢). وقد سمح لرجال الدين المسلمين بتولي القضايا الشرعية الإسلامية البحتة.

عندما استقرت الإمارات الصليبية واستكملت تشكيل دويلاتها ومجتمعاتها، حول الأمراء والقادة الصليبيون الفلاحين الذين يعيشون في القرى في هذه الدويلات إلى أقنان، سواء كان هؤلاء الفلاحون مسلمين أم مسيحيين، وقضى الصليبيون على بقايا حرية السكان القرويين الشخصية ناهيك عن أن الوضع المادي والنظام الحقوقي للمزارعين ومربي المواشي وأصحاب الكروم والبساتين في سورية ولبنان وفلسطين، سواء كانوا مسيحيين أم مسلمين، كانا (أي النظام المادي والنظام الحقوقي) متماثلين تماماً، وبالمقارنة مع الأزمنة السابقة، تلخص الفرق كله كون الكادحين المسيحيين (ليس فقط في الأرياف بل أيضاً في المدن) الذين كانوا يمارسون شعائرهم الدينية بلا عائق، أخذوا يواجهون انعدام الصبر عند رجال الدين (اللاتين) وهكذا انضمت الأعباء الطائفية إلى النير الاجتماعي لدى نصارى المشرق.

تحول السكان المحليون في الإمارات الصليبية ومجتمعاتها إلى أقنان

ومضطهـدين وتـابعـين، كما صاروا عنـاصر خدمة ووسائل إنتاج، مهما كان دينهم أو مذهبهم. وبـذلـك كشف الصليبيـون بالـواقع والممارسة عن طبيعة غزوهم وأهـدافهم؛ وأثبتـوا إفـلاس إيـديـولـوجيتهم المعلنـة، وشعـاراتهم الـبراقـة، التي اختبأوا تحتهـا لغـزو الشـرق، وحـرمـوا سكـانه من حقوقهم الأسـاسيـة، وحملوهم ضرائب ورسوماً وخوات وأتاوات، (ولم يكونوا يقيمون أي فرق بين السكـان الخـاضعـين لسلطتهم، فقد كانوا يعاملون المسيحيين بنفس القـدر من القسـاوة، الـذي كانـوا يعـاملون به المسلمين، حيث كان الفلاحون المسيحيون والفلاحون المسلمون أقناناً) (زوبوروف ١٣٥).

أمـا علاقـات الإمـارات الصليبيـة ودويـلاتها مع الإمارات العربية ـ الإسـلاميـة المجـاورة، فقـد كانت بين مد وجذر، فقد كانت واسعة متعددة الجـوانب التجارية والاقتصادية والاجتماعية أحياناً، وضيقة تصل إلى درجة القطيعـة والحـرب أحيـانـاً أخـرى. ولعبت عدة مدن (كـانت تحت الحكم الصليبي) دوراً تجاريـاً هامـاً في تصدير منتجات الإمارات العربية الإسلامية إلى أوروبـا، واستـيراد حاجـة هذه الإمارات من هناك، كما كان حال عكا وصور وطرابلس وغيرها من المدن. فضلاً عن وجود علاقات شبه عادية بين الـدويـلات الصليبيـة والـدويـلات المجـاورة، وكـان يتم تبـادل البضـائع والزيارات وتنقل السكان بشكل طبيعي، كما تتم اللقاءات وتبادل الزيارات بين الحكـام والقـادة العسكـريـين من الطـرفـين، لقـد كان سكـان المناطق المتجـاورة، من أرمن ويـونـانيـين وسـوريـين (وهؤلاء مسيحيـون من شتى المـذاهب) يبيعـون المنتجات الغذائية بأسعار مفرطة الغلاء. ويتعاملون مع الصليبيين على أساس أنهم أجانب وغرباء.

كانت الحـرب بين الدويلات الصليبية والدويلات العربية الإسلامية قليلة الوقوع بعد استقرار الأولى، ولم تكن العلاقات حربية دائماً، بل كانت

في غير أيام الحرب أكثر من هدنة مستقرة، حتى استقر في أذهان بعض الناس أن هذه الدويلات أصبحت بلاداً أخرى، حتى أن بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة، يشيرون في كتاباتهم التي بين أيدينا إلى الدويلات الصليبية والمناطق التي يحكمها الصليبيون بعبارة (بلادهم). وعلى أية حال لم ينقطع الحوار والتبادل الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية بمعناها الشامل بين الطرفين، إلا أثناء المعارك الحربية. وفي المجال السياسي قامت عدة تحالفات عسكرية، خلال فترات متعددة، بين حكام دويلات صليبية وحكام إمارات أو ولايات عربية، ضد إمارة عربية أخرى، كما سنرى.

لم يبق الصليبيون الذين ولدوا وعاشوا في الشرق بالذهنية نفسها والتكوين النفسي والاجتماعي الذي كان عليه الغزاة الأوائل، فالجيل الثاني والثالث وما بعدهما، صاروا (مشارقة) ولدوا في الشرق وعاشوا فيه وتطبعوا بطباعه، وتعلم معظمهم اللغة العربية، وعرفوا عن الإسلام كثيراً، فلم يعد المسلمون بنظرهم (وثنيين) بل أصحاب كتاب، لهم دينهم وفلسفتهم وحضارتهم وثقافتهم وتقاليدهم، المتقدمة على حضارة أوروبا وثقافتها وتقاليدها فقد اقتنع الإفرنج أخيراً بأن الملابس الأهلية (المحلية) فضلاً عن ألوان الطعام المحلي، هي خير من ملابسهم، فأخذ الرجال منهم في إرخاء لحاهم، وارتداء الجبب الفضفاضة، وستر رؤوسهم بالكوفية، وعمدت النساء إلى لبس الشفوف المطرزة بالسكة، والجلوس على الدواوين مصغيات إلى ألحان العود وأنغام الرباب، بل لقد عمدن إلى اتخاذ الحجاب في المجتمعات. (حتي ٢ / ٢٥٥٠).

قيام الدولة الأيوبية:

أدى سقوط القدس إلى رد فعل شعبي عنيف، فأخذ الناس في كل

مكـان من المـدن السـوريـة والعـراقيـة يحتجـون في المسـاجد والتجمعات، ويثـير ون الـرأي العـام، ويـدينـون الحكـام، (وكـان الـلاجئون المسلمون الفـارين من فلسطـين يقصون عليهم الحوادث المفصلة المحزنة التي أعقبت سقـوط المـدينـة في أيـدي المسيحيين، واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد العظيم. وأهـابت بالجيـوش الإسـلامية أن تحرر بيت المقدس وقبة الصخرة المقـدسـة من أيـدي الكفـرة النجسة) (عن ديورانت ١٥/ ٢٩). مما اضطر الحكـام إلى إعـلان رغبـاتهم، وتأكيد نواياهم في استرداد المدن التي احتلها الصليبيـون. وكـان واضحـاً أن تمزق البـلاد العـربيـة إلى إمارات وولايات ودويـلات وإقطـاعيـات متنـاقضة متضادة متحاربة، يتآمر حكامها بعضهم ضد البعض الآخـر، ويعـادي كل منهم جيرانـه، وانتشار الدسائس والفتن والفسـاد وضعف الإنتـاجية، فضلاً عن التخلف الاقتصادي والاجتماعي، هي الأسباب التي أدت إلى الهزيمة أمام الصليبيين. فقد كان محور دمشق - القاهرة معطلاً تماماً، بسبب العداء بين حكام كل من البلدين، ومحاولة كل منهما الاستيـلاء على البـلاد التي يحكمهـا الآخر. بل حاول الفاطميون في القـاهـرة أن يقيموا علاقات مع الصليبيين بهدف اقتسام بلاد الشام معهم، وأرسلوا سفـارة إلى الصليبيين عام ١٠٩٨ أي قبـل احتـلال القـدس بعام واحـد، استقبلهـا الصليبيـون بترحـاب، وأقامت بينهم، لكنهم مالبثوا بعد عام واحـد وحـال احتلالهم للقدس، أن حاولوا احتلال أراض تحت الحكم الفـاطمي، مما أسـاء إلى هذه العلاقات التي سعى الفاطميون إليها، وأدى إلى سحب السفارة.

عنـدمـا تعطـل محور دمشق - القـاهـرة، قام محور جديـد بين حلب والمـوصـل، أقـامـه عماد الدين زنكي، وهو أمير سلجوقي ولي حكم الموصل ونصيبين وسنجار وحران، ثم فتح حلب عام ١١٢٨ م، واستطاع من خلال

هذا المحور الجديد أن يقيم إمارة قوية وجيشاً قوياً، ثم بدأ بمحاربة الصليبيين وحرر الرها عام ١١٤٤ م، وهي أول إمارة صليبية أقيمت في المشرق، وأول إمارة حررها العرب المسلمون. ثم اغتيل عماد الدين زنكي عام ١١٤٦ م، وورثه ابنه نور الدين محمود، الذي بدأ يوسع إمارته شيئاً فشيئاً معتمداً على السمعة الطيبة لإمارة والده وإمارته حيث تحررت الرها في عهد هذه الإمارة، وكان هدفه ضم دمشق لإمارته لتصبح قوة قادرة على مواجهة الصليبيين واستعادة الأراضي التي احتلوها، ورغم تحالف حاكم دمشق مع الصليبيين لصد نور الدين محمود عنها، إلا أن هذا التحالف فشل في منع نور الدين من احتلال المدينة عام ١١٥٤ م، مما وسع إمارته، وقوى مواقعه السياسية والعسكرية وجعله مؤهلاً لمواجهة الصليبيين من خلال إمارة قوية وواسعة وموحدة وجيش قوي. وكانوا قد فشلوا في احتلال حلب بعد الحملة الصليبية الثانية.

توسع الصليبيون بعد هذا الوقت باتجاه مصر الفاطمية، واحتلوا العريش عام ١١٦١ م، واضطرت الدولة الفاطمية أن تدفع لهم أتاوة سنوية على أن لايتقدموا أكثر من ذلك. إلا أن موت وزير مصر في ذلك الوقت (الصالح طلائع) أثار صراعاً على خلافته بين شاور أبو شجاع مجير الدين السعدي (وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين) وضرغام أبو الأشبال (كبير الحجاب) وكانا الشخصيتين الوارثتين الأقوى، ولما لم يستطع أحد من الخصمين المتصارعين حسم الصراع لصالحه، طلب الأول منهما (شاور) مساعدة الصليبيين، وطلب الثاني (ضرغام) معونة نور الدين محمود، فأرسل هذا جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه، أحد قواد نور الدين، وعم صلاح الدين الأيوبي، ومالبث أن نصر ضرغام، ولكنه تولى الوزارة في مصر (أيام العاضد بعد مقتل شاور) وأصبح هووزيرها، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين

يوسف على وزارة مصر عام ١١٦٩ م. فقام بإسقاط الخلافة الفاطمية عام ١١٧١ م، وأتبع مصر للخلافة العباسية في بغداد، وتحققت بذلك دولة عربية موحدة تحت المظلة الرمزية للخلافة العباسية، وتديرها السلطة الفعلية لصلاح الدين الأيوبي، الذي أخذ يخطط ويعمل لتحقيق هدفه الرئيس: تحرير البلاد من الصليبيين.

بدء التحرير:

كان صلاح الدين الأيوبي موقناً بأن تحقيق هدفه الكبير يحتاج لإعداد واسع وإيجاد شروط موضوعية تشكل قاعدة للانطلاق، وعلى رأس هذه الشروط توحيد سورية ومصر والعراق، أي توحيد بلاد الطوق التي تحيط بالإمارات الصليبية، وهذا مافعله صلاح الدين واستكمله بعد أن سقطت حلب بين يديه عام ١١٨٣ م، ثم أخذ يستكمل استعداداته العسكرية والاقتصادية والتنظيمية والسياسية لبدء حملته. وانتظر الفرصة المباشرة والمبرر المناسب لإلغاء هدنة كان قد عقدها مع ملك القدس الصليبي، وأتى المبرر على يدي رينودي شاتيون (البرنس أرناط) حاكم الكرك الصليبي الأرعن، الذي هاجم الحجاج ونهبهم رغم الهدنة، وأساء معاملتهم، وقال (إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت محمد لينقذهم) (ديورانت ١٥ / ٣٦). وهاجم طريق مصر ـ سورية التجاري، بل حاول احتلال المدينة المنورة ومكة، بهدف نقل قبر الرسول الى الكرك ليحول الحج إلى هناك ويجمع الضرائب والرسوم من خلال ذلك. كما أرسل أسطولاً في البحر الأحمر نهب بعض المدن الساحلية المصرية والحجازية، فواجهه أسطول مصري رده على أعقابه. وكان بأعماله هذه ينتهك انتهاكاً فظاً شروط الهدنة بين صلاح الدين

وصاحب القدس اللاتيني. ورغم طلبات صلاح الدين من صاحب القدس أن يمنع هذه الاعتداءات وخرق الهدنة المتتالي، ورغم رغبة الملك الصليبي الحقيقية بمنع ذلك، إلا أنه لم يستطع إلزام دي شاتيون باحترام شروط الهدنة. وضبط تصرفاته الحمقاء، حتى أن الناس أخذوا يدينون صلاح الدين لسكوته. فجهز جيشاً كان قد أعده من قبل إعداداً حسناً بانتظار الوقت المناسب وشاركه آلاف المتطوعين، والتقى مع الصليبيين في حطين ١١٨٧ م وهزمهم هزيمة ماحقة، وأسر ملكهم وبعض أمرائهم ومنهم رينودي شاتيون، فعفى عنهم باستثناء دي شاتيون (أرناط) الذي قتله بيده برا بقسم سابق. ثم أخذت المدن التي يحتلها الصليبيون تتساقط مدينة بعد أخرى بيد صلاح الدين بسهولة فائقة، إلى أن وصل صلاح الدين إلى القدس فحاصرها وخرج إليه أعيانها يعرضون عليه الصلح، فقال لهم إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله، وأنه لايرضيه أن يحاصرها أو يهاجمها. وعرض على أهلها أن تكون لهم الحرية الكاملة في تحصينها. وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى مابعد أسوارها بخمسة عشر ميلاً دون أن يقف أحد في سبيلهم، ووعدهم بأن يسد كل ماينقصهم من المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة، فإذا حل هذا اليوم ورأوا أن هناك أملاً في انقاذهم، كان لهم أن يحتفظوا بالمدينة، ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة، أما إذا لم يكن لهم أمل في هذه المعونة، فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال. وتعهد في هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وأموالهم. ورفض المندوبون هذا العرض، وقالوا إنهم لم يسلموا المدينة التي مات فيها المسيح منقذ الخلق. ولم يطل حصار المدينة أكثر من إثني عشر يوماً، وما أن استسلمت بعدها حتى فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب على كل رجل، وخمس قطع عن كل امرأة، وقطعة واحدة عن كل طفل، أما فقراء

أهلها البـالـغ عددهم سبعـة آلاف فقـد وغد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثـلاثـين ألف بيـزانت التي بعث بها هنـري الثاني ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى ، وقبلت المـدينـة هذه الشـروط (بالشكر والنحيب) على حد قول أحـد الإخبـاريـين المسيحيين (عن ديورانت ١٥ / ٣٧) . ثم افتدى العادل أخو صلاح الدين ألفاً من الفقراء كما فعل مثله صلاح الدين نفسه ، وهكذا استـرد صلاح الـدين الأيـوبي القـدس عام ١١٨٧ م بعـد تسعين عاماً من احتـلالهـا ، ولعـل المقـارنـة مفيـدة بين احتـلال الفرنجة للقدس وما عملوا بسكانها عام ١٠٩٩ م ، وبين ما فعله صلاح الدين .

بقيت بيــد الصليبيـين بعـد استعـادة القـدس مدن صور وطـرابلس وإنطــاكيــة وبعض قرى البقــاع . إلا أنهم جهــزوا حملة جديـدة (الحملة الصليبيـة الثـالثـة) ، وحـاصـروا عكـا حصـاراً محكـماً لمدة سنتين (١١٨٩ - ١١٩١ م) ، واستطـاعـوا احتلالها مجدداً بعد معارك مضنية لم تستطع جيوش صلاح الـدين النجـاح فيهـا ، وكما هي عادة الصليبيين ارتكبوا مجازر في أهل عكا دون مبر ر عسكري .

توفي صلاح الــديـن الأيــوبـي عام ١١٩٥ م في دمشق ودفن فيهــا (ووجـدوا في خزانتـه الشخصيـة دينـاراً واحـداً) ، وحـزن الناس عليه حزناً عميقـاً . فورثـه أبنـاؤ ه وأقـربـاؤ ه ، ثم دبت الخلافات بين الأمراء الأيوبيين وأخـذ بعضـهم يتـآمر ضد البعض الآخر ، ووصل الأمر إلى أن الأمير يتواطأ مع الصليبيـين بل ويتحــالف معهم ضد أخيـه أو ابن عمه ، فتحالف أيوبيو دمشق معهم ضد أيـوبيي القـاهرة ، وعقد الكامل الأيوبي ، هدنة مع الأمير الصليبي فريـدريـك الصقـلي ، (وكـان يتقن اللغـة العـربية ، ومطلعاً على الثقـافـة العـربية ومتمثلاً لها ، وعلى الدين الإسلامي قريب منه) ، وتحولت الهـدنـة إلى صلح فيـه تنـازل كبـير من الكـامـل ، حتى أنه أعاد له القدس

بموجب هذا الصلح مع بعض الشروط (كإدارة الأماكن المقدسة الإسلامية، وشؤون العبادة، وشؤون المسلمين. . .)، وظلت القدس بين أيدي الصليبيين أو تحت هيمنتهم حتى عام ١١٤٤ م حيث استرجعتها العساكر الخوارزمية. وحاول الصليبيون عام ١٢١٩ م الاستيلاء على مصر فاحتلوا دمياط وحولوا كنائسها القبطية إلى كنائس لاتينية، كما خربوا الكنائس القبطية أثناء هجماتهم المتكررة على مصر. (موسوعة الحضارة، ٣/ ١٦١).

قامت في مصر بعد ذلك دولة المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) وهم أرقاء جلبهم الفاطميون والأيوبيون إلى مصر بالقرن العاشر، وارتقوا إلى مناصب رفيعة ثم أنشأ إيبك دولتهم بقتله طوران شاه آخر السلاطين الأيوبين. وقضى المغول على الخلافة العباسية في بغداد عام ١٢٥٨ م، وتوجهوا فاحتلوا قسماً من سورية بهدف استكمال احتلالها واحتلال مصر. إلا أنهم انهزموا هزيمة قاضية أمام المماليك وجيوش قطز سلطان مصر من المماليك البحرية في معركة عين جالوت الشهيرة ١٢٦٠ م، وتصدى، فيما بعد، الظاهر بيبرس السلطان المملوكي والأمراء المماليك للإمارات الصليبية، التي سقطت واحدة بعد الأخرى، فاستعادوا إنطاكية عام ١٢٨٦ م وطرابلس عام ١٢٨٩ م وعكا عام ١٢٩١ م. وانتهى بذلك الوجود الصليبي في الشرق (باستثناء قبرص) بعدما يقارب المائتي عام.

موقف المسيحيين العرب:

تصرف النصارى العرب كما تصرف المسلمون خلال الوجود الصليبي، ومثلهم مثل الرعايا جميعاً، وقد تعاون بعضهم مع الصليبيين كما

تعاون مسلمون، وقاومت أكثريتهم الدويلات الصليبية وجيوشها، وخاصة خلال حروب الاستعادة، بعد أن اتضحت أهداف الصليبيين كغزاة أجانب جاءوا للاحتلال والنهب والتدمير، وكان النصارى العرب يبذلون أقصى جهودهم داخل الإمارات الصليبية وخارجها، لمساعدة الجيوش العربية - الإسلامية، سواء بإخفاء المسلمين الملاحقين داخل هذه الدويلات، أم بتزويد الإمارات العربية المحيطة بالمعلومات العسكرية والاقتصادية وبأحوال الصليبيين، وشاركوا فعلياً في الحروب ضدهم، ذلك لأنهم كانوا يعاملونهم معاملة الأقنان، (ولم يغتزم الأقنان طأطأة الرأس أمام الصليبيين، والمسلمون والمسيحيون سواء بسواء، على اختلاف مللهم ونحلهم، كانوا مفعمين بالحقد على الصليبيين وعلى النظم التي أقاموها، وكانوا مستعدين للإقدام على كل شيء لكي يجعلوا إقامة البارونات الصليبيين وأتباعهم لاتطاق، ولكي يجبروا هؤلاء وأولئك على الرحيل عاجلاً أم آجلاً. (زوبوروف ١٣٧).

كان الصليبيون حذرين غالباً بتعاملهم وموقفهم من النصارى العرب والنصارى السوريين بعامة، ويؤكد ذلك ماقاله عنهم الراهب الألماني بورخارد: صحيح أنهم مسيحيون ولكنهم لايصدقون اللاتين إطلاقاً. كما يؤكده ماقاله الكاتب الفرنسي جاك دي فيتري، الذي كان أسقفاً لعكا، وعاش في فلسطين في أوائل القرن الثالث عشر، في كتابه تاريخ القدس: إن السوريين (أي المسيحيين الذين يعيشون في الإمارات الصليبية) كانوا يفضون بأسرار الصليبيين العسكرية إلى المسلمين، وأنهم غالباً ما يطلبون العون ضد الصليبيين (يسميهم المسيحيين) من أعداء ديننا، ولايستحون من أن يبددوا - لما فيه ضرر المسيحية - القوى والأموال التي يجب إنفاقها لمجد الرب ضد الوثنيين (أي المسلمين) (زوبوروف

١٣٨). ويروي أسامة بن منقذ (في كتابه الاعتبار)، وابن القلانسي في كتابه (ذيل تاريخ دمشق)، والمقريزي في (الخطط)، وابن الأثير في (الكامل في التاريخ)، إضافة لعديد من الكتاب الأوروبيين المعاصرين لتلك المرحلة، قصصاً كثيرة عن نشاطات قام بها النصارى العرب معادية للصليبيين، وضروباً من المعونة والدعم قدموها للجيوش العربية الإسلامية ولمواطنيهم المسلمين. ويشير أمين معلوف إلى أن الفرنج بعد أن انهزموا عام ١١١٩ م أمام جيش حلب بقيادة (إيلغازي) في سهل سرمدا، قاموا بتجريد النصارى الشاميين والأرمن والروم المقيمين في إنطاكية من سلاحهم ومنعهم من مغادرة منازلهم خوفاً من تحالفهم مع الحلبيين. ويضيف أن المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس واليعاقبة الذين كانوا يعيشون في القدس كانوا إلى جانب صلاح الدين، ولاسيما رجال الكهنوت الذين طالما أساء إليهم الرهبان اللاتين. وكان أحد مستشاري السلطان الرئيسيين كاهن أرثوذكسي يدعى يوسف بتيت، وهو الذي يهتم بأمر الاتصالات بالفرنج والطوائف المسيحية الشرقية، وقبل حصار صلاح الدين للقدس بقليل، كان رجال الكهنوت قد وعدوا بتيت بفتح أبواب المدينة إذا طال عناد الغربيين. (معلوف ١٣٠ و٢٤٧).

نتائج الحروب الصليبية على نصارى المشرق:

كان من الصعب على عامة الناس التفريق بين الكنيسة اللاتينية وكهنوت الصليبيين اللاتيني، وبين الكنائس الشرقية، ومعرفة الفوارق بين مذاهب هذه الكنائس، وتاريخ الخلافات والانشقاقات بينها. وكانوا يسمعون أن الصليبيين يريدون إبادة المسلمين (ويرون ذلك بأم أعينهم)

وأنهم يسعون لاحتلال أرضهم وتهديم مساجدهم تحت مزاعم استعادة القبر المقدس. وقد لاحظوا أن بعض الفئات المسيحية هادنت الصليبيين أو تعاونت معهم، فسجلوا ذلك نصرة مذهبية للصليبيين. مع أن عديداً من القادة والأمراء المسلمين ومن الفئات الإسلامية هادنت الصليبيين وتحالفت معهم، وساعدتهم على إخوانها في الدين. وإذا تذكرنا أن مبدأ الجمع بين الدين والسياسة هو تقليد سامي قديم. نتوقع أن بعض العامة لم يفصلوا أو يفرقوا بين نصارى الشرق وبين الصليبيين، وربما كانوا يعتبرون الأوائل (عملاء) وأعواناً للآخرين، وطابوراً خامساً بين المسلمين.

إن الحروب الصليبية من حيث أنها غزو استيطاني، وهمجية الصليبيين التي مارسوها عند احتلالهم للمدن وتدميرها مع مساجدها ومنشآتها، وقتل الأطفال والنساء والشيوخ دون أي مبرر أو سبب حربي أو حاجة أمنية، وعجز الإمارات الإسلامية عن معاقبتهم أو طردهم أو حتى منعهم عن التوسع، انعكس على عامة الناس تديناً وانغلاقاً وتصوفاً بعيداً عن روح الإسلام ومضمونه، وساهم في ظهور الحركات الصوفية وازدهارها، وفرق الدراويش، وانتشار الخرافات والأوهام والتصورات البعيدة عن الواقع والممكن، وعن جوهر الإسلام كمذهب وممارسة وتعاليم. وقد تعمقت هذه التيارات أكثر فأكثر بعد الفشل المتلاحق في مقاومة الصليبيين وحتى بعد تراجعهم، وزادها انتشاراً ظلم الحكام المحليين وفرضهم الأتاوات والضرائب والرسوم، وضياع الحقوق، وانعدام الأمن، واليأس من أي مستقبل واعد، مما جعل الهروب إلى التصوف والتعبد السلبي أمراً مفهوماً ومنتشراً. وظهر في هذه الفترة فلاسفة متصوفون كثر منهم شهاب الدين السهروردي (١١٥٥ - ١١٩١م) ومحي الدين بن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠م) وغيرهما. وعندما جاء الحكام المماليك وهم من المسلمين الجدد، بالغوا

في تطـرفهم الإسـلامي الظـاهـري ، ربـما لأنهم من غير العرب ويبحثون عن شرعية لحكمهم ، فضلاً عن أن استكمال تحرير البلاد من الصليبيين يحتاج إلى بث روح الجهـاد ، مما أدى إلى ردود فعـل مبـاشـرة من الحكـام والعـامـة ضد النصـارى : إن روح الجهـاد الذي أثاره المماليك على الصليبيين أخذوا الآن يسـددونـه ضد القبـط ونصـارى سوريـة ، فقـد أصـدر قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) في أواخـر عهـده مراسيم تحرم على النصـارى من رعـايـاه تولي الـوظـائف الحكـوميـة ، وأعـاد السلطان الناصر (١٣٠١ م) تطبيق التدابير القـديمـة بحق أهل الذمة ، وجرى السلطان الصالح (١٣٥٤ م) على مثل ذلك . (حتي ٢ / ٢٦١) . وكانت الاحتجاجات على الضرائب والرسوم في مصـر تتـوجـه نحـو الموظفين الكبار وهم من القبط ، وكان المماليك يشجعون هذا الاحتجاج لئلا يرتد عليهم . وكأن هؤلاء الموظفين هم الذين يفرضون الضـرائب أو يزيـدونها . وربما كان (للحماسة الدينية التي تأججت في صدور المسلمين بفعل الدعوة للجهاد ، أثرها في المضايقات التي تعرض لها مسيحيو الشـام في فترة الحـروب الصليبيـة . وفي عصـر سلاطـين المـماليك زاد معدل الاضطهاد ضد المسيحيين بسبب طبيعة الحكم المملوكي وحرص السلاطين على اتخـاذ صورة المـدافعـين عن الإسـلام . (قـاسم عبده قاسم ، موسوعة الحضـارة ٣/ ١٣٦) . وقـد لخص الـدكتور قاسم عبده قاسم نتائج الحروب الصليبيـة على الصعيـد الاجتـماعي ، وخـاصـة على صعيـد التعـامـل مع المسيحيين في الإمارات الإسلامية . فأشار إلى أن هذه الحروب زرعت بذور الشك والمرارة في نفوس المسلمين تجاه المسيحيين الذين عاشوا دهراً طويلاً في كنف المجتمـع العـربي الإسـلامي ، وسـاهموا في بنـاء الحضـارة العـربيـة الإسـلاميـة ، (مـوسـوعـة الحضـارة ٣/ ١٦١) ولمـا كانت بعض طوائف المسيحيـين في بلاد الشـام عونـاً للصليبيـين على المسلمين ، فإن ذلك جعل

الحكام والناس ينظرون إلى الطوائف المسيحية كافة نظرة ملؤها الشك والريبة في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

ففي مصر ورغم أن الأقباط لم يمدوا يد المساعدة للغزاة اللاتين بسبب الخلافات المذهبية التي أوجدت تراثاً ضخماً من العداء بين الطرفين، كما أنهم لم يكونوا رجال حرب حتى يمكنهم أن يقدموا مساعدة ذات بال للصليبيين، وعانوا من احتلال الصليبيين لبيت المقدس حين منعوهم من الحج باعتبارهم هراطقة، وتحولت الكنائس القبطية إلى كنائس لاتينية في المرات التي احتل فيها الصليبيون دمياط. كما أنهم خربوا الكنائس القبطية في هجماتهم المتكررة على مصر. على الرغم من هذا، فإن السلطات الحاكمة تخوفت من اتصال المسيحيين المحليين بالصليبيين على نحوما حدث في بلاد الشام ووقف المسلمون موقفاً حذراً بل معادياً للأقباط، ثم أن الأهوال التي ارتكبها الصليبيون الذين حاربوا باسم المسيحية، أوجدت في العالم الإسلامي كله مشاعر تفيض بالمرارة ضد المسيحيين، تولدت عنها في بعض الأحيان ردود فعل عنيفة. والحق أن ضد المسيحيين، تولدت عنها في بعض الأحيان ردود فعل عنيفة. والحق أن الحروب الصليبية لم تفعل شيئاً للمسيحيين سوى استنفار مشاعر الكراهية ضدهم، وزرع بذور عدم الثقة المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين.

وتأثرت العلاقات الاجتماعية بالوجود الصليبي بشكل مباشر. ورغم أن بعض المسيحيين الشرقيين حاربوا الصليبيين، كما أن الفرنج اللاتين استولوا على كثير من الكنائس الشرقية وحولوها إلى كنائس كاثوليكية، ولكن العلاقات بين العناصر المسلمة والمسيحية في مجتمع بلاد الشام لم تعد إلى سابق عهدها، حيث كان المسيحيون قبل عصر الحروب الصليبية ينعمون بالتسامح. (موسوعة الحضارة ٣/ ١٦٣).

ويرى فيليب حتي أن من النتائج الفرعية الهامة التي تخلفت عن الحروب الصليبية إنشاء الإرساليات المسيحية للتبشير بين المسلمين، فقد اقتنع رجال الفكر بفشل هذه الحروب، وإخفاق الوسائل العسكرية في معاملة المسلمين، فأخذوا يدعون إلى تركيز الاهتمام على الوسائل السلمية. (حتي ٢/ ٢٦٣).

لقد أوقع الغزو الصليبي المسيحيين العرب في حرج شديد، ألطف ما يقال فيه إنه خيّرهم بين الوقوف مع بني دينهم أو الوقوف مع بني قومهم، ويبدو أن المسيحيين العرب في معظمهم اختاروا الحل الثاني، فكان المسعى الصليبي وبالاً على المسيحية العربية، من حيث ظن أو صور أنه دفاع عنهم، (فكتور سحاب ١٧).

الفصل الخامس

الدولة العثمانية

ضعف الدولة المملوكية وقيام الدولة العثمانية ـ احتلال البلاد العربية ـ نظام الملة ـ الامتيازات الأوروبية ـ الإرساليات الأجنبية ـ اجراءات ابراهيم باشا تجاه المسيحيين ـ خط شريف كولخانه ـ خط شريف همايون ـ دستور ١٨٧٦ م.

ويتمثل المصدر الثاني للاستبداد بدخول أمراء وزعماء وبطاركة الطوائف المسيحية في نظام الالتزام الضرائبي جنباً إلى جنب مع القواد والولاة والباشوات العثمانيين المسلمين، مما كان يعني أن الاضطهاد والتعسف في الجباية الضرائبية كانا يصيبان الفلاحين مسلمين ومسيحيين، وذلك في سياق تقهقر النظام الإقطاعي العثماني وتحوله إلى نظام التزام وجباية يتداخل مع أرباح التجارة الغربية التي انتظم فيها الأعيان المتنفذون من كل الملل.

وجيه كوثراني

إن خط الفصل الأساسي كان يمتد لا بين المسلمين والنصارى، والأتراك وغير الأتراك، وإنما بين الحكام والمحكومين، المضطهدين والمضطهدين، فكان من هم في القمة الموظفون العثمانيون أو الضباط، الصيارفة اليونان أو الأرمن، التجار أو كبار رجال الدين، يزدرون الجمهور. . . . وكان الأعيان يتألفون من المسلمين والنصارى، وكان الفلاحون يرزحون تحت نير اضطهادهم.

ديفيسون

ضعف الدولة المملوكية وقيام الدولة العثمانية :

بدأ التسرب التركي إلى الدولة العباسية أيام الخليفة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢ م)، وكان تسللاً لأفراد أو أسر، يحتلون وظائف في إدارة الدولة أو قيادات عسكرية، إلا أن هذا التسلل ما لبث أن أصبح جماعياً وعلى شكل موجات بعد أن احتل السلاجقة بغداد (١٠٥٥ م) وحكموها تحت الرعاية الرمزية للخلافة العباسية، وقد اعتمد الخلفاء العباسيون اعتماداً كبيراً على الأتراك لصد الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تتعرض لها الدولة، خاصة وأن الأتراك كانوا من المحاربين الأشداء.

أقام السلاجقة دولتهم في بلاد الشام حسب نظام إقطاعي شرقي خاص بهم، يعتمد في جوهره على تمليك الأرض أو إعطاء حق استخدامها مقابل تقديم الجند لجيوش الدولة، وتقديم بعض الضرائب أو الالتزامات، وبقي هذا النظام معمولاً به مدة طويلة بعد انهيار الدولة السلجوقية لصالح وريثتها الدولة الأيوبية، التي انهارت بدورها وقامت مكانها دولة المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م).

وحد المماليك بلاد الشام ومصر وهيمنوا على الحجاز، وواجهوا هجمات المغول وصدوها، وحرروا البلاد من بقايا الوجود الصليبي، ونقلوا

الخليفة العباسي إلى القاهرة بعد سقوط الدولة العباسية في بغداد (١٢٥٨ م) أمام جحافل المغول، وبقي الخلفاء العباسيون في القاهرة، حتى وفاة آخر خليفة عباسي وهو المتوكل على الله الثالث أبو عبد الله محمد بن يعقوب (توفي عام ١٥٥٠ م)، أي بعد الاحتلال العثماني للبلاد العربية.

إن حروب المماليك مع المغول ومع الصليبيين، وما تطلبت من إمكانيات مالية وبشرية، وما حملت الشعب والدولة من أعباء والتزامات، وفساد الإدارة، والصراعات الاجتماعية، أدت إلى ضعف الدولة المملوكية رغم انتصاراتها العسكرية، فتخلف الاقتصاد، وضعفت الإنتاجية، وزاد الأمر سوءاً اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح عام (١٤٩٨ م)، ودخولهم البحر الأحمر أيضاً، وتحويل طرق التجارة عن البحر الأبيض المتوسط وبلاد الشام، مما أدى إلى تراجع التجارة وتضرر الدولة وشرائح كبرى من الناس، وفي الوقت نفسه تدهورت الإمكانيات العسكرية، وضعف الجيش، وبالتالي تمزقت البلاد وتشرذمت، وأصبحت دولة المماليك جاهزة للفظ أنفاسها الأخيرة لصالح أول غاز للبلاد.

أخذت القبائل التركمانية تزحف في القرن الحادي عشر من أواسط آسيا إلى الغرب، باتجاه الأناضول ومناطق الثغور مع الدولة البيزنطية، وازداد زحفها تسارعاً هرباً من الغزو المغولي. وتكثفت هجرات هذه القبائل فاستطاعت السيطرة على الأناضول وعلى عدد من مناطق الثغور، وبدأت حرباً واسعة مع الدولة البيزنطية، واستطاعت هذه القبائل المحاربة الشديدة المراس، أن تحقق انتصارات هامة على البيزنطيين، ثم شكلت عدة إمارات لها في الأناضول، كانت تتهادن وتتحارب شأن كل الإمارات، حسب مطامح ومطامع أمرائها، إلى أن تحالفت جميعها وتوسعت باتجاه البلقان تاركة

القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لمرحلة لاحقة، وانتزعت أراضي واسعة من أوروبا كانت تحت سلطة بيزنطة، ثم عادت هذه القبائل بقيادة محمد الفاتح واحتلت القسطنطينية عام ١٤٥٣ م، وأسقطت الدولة البيزنطية، وتحولت من قبائل متحالفة إلى امبراطورية عظمى، هي الامبراطورية العثمانية، التي ورثت أملاك الدولة البيزنطية، ثم توسعت أكثر فأكثر في أوروبا والأناضول، وأخذت تتطلع إلى احتلال البلدان العربية في غرب آسيا ومصر التي كان يحكمها المماليك، وإلى العراق الذي كان يحكمه الصفويون الفرس. خاصة وأن العثمانيين اكتسبوا سمعة كبيرة في البلاد العربية والإسلامية بسبب اسقاطهم الدولة البيزنطية، وصاروا محط آمال جماهير واسعة تطمح لقيام دولة اسلامية كبرى، دولة مركز وجذب، ولم تكن ذكريات الغزو الصليبي والغزو المغولي، بعيدة جداً عن أذهان الناس، الذين شعروا بحاجة لقيام مثل هذه الدولة لرد الغزو عن (بلاد المسلمين).

احتلال البلاد العربية:

اتفق العثمانيون في البداية مع المماليك ضد الصفويين واستطاعوا الانتصار على هؤلاء، وساعدوا المماليك ضد البرتغاليين فأرسلوا لهم بواخر وأسلحة (البارود)، لكنهم لم ينتظروا كثيراً ليبدأوا حملتهم لاحتلال البلاد العربية، ووجدوا حجة واهية هي أن قانصوه الغوري والي حلب المملوكي ساعد الصفويين ضد العثمانيين، وتقدمت جيوشهم باتجاه حلب، وخاضوا معركة سهلة في مرج دابق قرب حلب، انتصروا فيها على الغوري في ٢٣ آب ١٥١٦ م. ودخلوا حلب بقيادة السلطان سليم الأول نفسه، وذُكر اسمه في أول خطبة جمعة في حلب، وسمى نفسه خادم الحرمين الشريفين.

ثم تقدم فاحتل حماه وحمص ودمشق التي هرب واليها جان بردي الغزالي. وبايعه - في دمشق - قضاة المذاهب الإسلامية الأربعة. ووزع الأموال والهدايا عليهم وعلى وجهاء المدينة، وزين ثوب المحمل الشريف، وزار قبر محي الدين بن عربي، وكان العثمانيون قبل ذلك يشجعون الحلقات الصوفية، ويحاولون الاستفادة منها في دعم حكمهم.

قبل أن يتوجه السلطان سليم إلى مصر لاحتلالها، حاول أن يخضعها سلماً، ويتبعها له، ويذكر اسمه في خطبة الجمعة، مقابل تثبيت حاكمها المملوكي طومان باي، إلا أن هذا الأخير رفض القبول بالشروط والخضوع للعثمانيين، فتقدمت الجيوش العثمانية باتجاه مصر، واحتلت القاهرة عام ١٥١٧ م وقتل طومان باي، وذكر اسم السلطان سليم في خطبة الجمعة بمساجد القاهرة. وفيما بعد أخضع العثمانيون العراق واليمن والسودان والمغرب العربي وأتبعوها لإمبراطوريتهم بأشكال مختلفة من التبعية، مباشرة أو غير مباشرة، وبذلك صارت الإمبراطورية العثمانية أعظم إمبراطورية إسلامية في ذلك العصر، وصار العثمانيون حماة الأماكن المقدسة والمدافعين عن الحج.

كان الاحتلال العثماني للبلاد العربية سهلاً لأن الدولة المملوكية كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم يقاوم هذا الاحتلال إلا الولاة والضباط وبعض الأغنياء وبعض التجار ممن كانت لهم مصالح مباشرة مع الدولة المملوكية، وحتى هؤلاء سرعان مافروا أمام جحافل الجيوش العثمانية. أما الشعب فبقي متفرجاً على ما يجري، وربما كان سعيداً بذلك للخلاص من المماليك من جهة وعلى أمل أن يقيم العثمانيون دولة أقوى وأفضل من جهة أخرى، وكان الأمر بالنسبة للشعب ماهو إلا تغيير حاكم غير عربي بحاكم آخر غير عربي أيضاً، وتغيير طبقة حاكمة بأخرى.

أبقى العثمانيون الإدارة المملوكية دون تغيير يذكر في أسلوب عملها وموظفيها، كما أبقوا الامتيازات الإقطاعية التي منحها الفاطميون مع بعض التغيير. والشيء الجديد الذي فعلوه هو جعل اللغة التركية لغة الدولة الرسمية، وبذلك نُحيت العربية لأول مرة في الدولة العربية الإسلامية، كما أعادوا التقسيمات الإدارية في بلاد الشام ونظموها تنظيماً جديداً، أما ما يتعلق بالأحوال العامة للبلاد فلم تحدث التغييرات النوعية سلباً أو إيجاباً التي ترافق عادة أو تتبع قيام الأنظمة الجديدة، فظلت التجارة على تراجعها بعد تغير خطها الأساسي باتجاه رأس الرجاء الصالح، وبقيت الحرف والمهن في المدن على حالها أسلوباً وعلاقات إنتاج، كما بقي الريف منعزلاً ومتقوقعاً حول نفسه، يئن تحت وطأة الامتيازات الإقطاعية، أو تحت ظروف التخلف والفقر.

نظام الملة:

كان العثمانيون قبل سقوط القسطنطينية قد احتلوا أجزاء من البلقان ذات أكثرية مسيحية أرثوذكسية، وقد وجدوا أنفسهم لأول مرة أمام مناطق كامل سكانها من ديانة أخرى، وكان العثمانيون مضطرين لمداراتهم لأن هؤلاء حلفاء طبيعيون لبيزنطة التي كانت ما زالت قائمة وتشكل الهدف التالي للعثمانيين، ولأن هؤلاء (الرعايا) في الوقت نفسه على عداوة مع أوروبا الكاثوليكية باعتبارهم أرثوذكساً يتبعون بيزنطة والكنيسة الشرقية، ولذلك أظهر العثمانيون أنفسهم حماة الكنيسة الأرثوذكسية، كما أظهروا أنفسهم فيما بعد حماة الحرمين الشريفين، وفي الواقع منحوا أساقفة هذه الكنيسة إقطاع بعض الأراضي، وتقربوا بذلك من عامة الشعب، الذين

يدينـون بالمـذهب الأرثـوذكسي . وزاد هذا في العـداء الاجتـماعي بين عامة الشعب في البلقـان (من جهـة) وحكامهم من الأرستقراطية (المحلية) الذين كانـوا إمـا من الكـاثوليك أومتحالفين مع قوى كاثوليكية مثل البندقية والبابا (من جهـة ثانيـة)، وأضيف هذا العـداء الـديني إلى العـداء الإقطاعي بين الطبقـات العليـا والـدنيـا في مجتمعـات البلقـان، ومن هنا (نفهم) تعاطف الشعب (في البلقان) في كثير من الأحيان مع العثمانيين. (عبد الكريم رافق ٣٥). ومن المهم الإشارة إلى أن الخلافات الدينية بين المسيحيين الشرقيين والغـربيـين ما انفكت تتحـول دائـماً إلى صراعـات عنيفـة بين الـروم والكاثوليك، فقد (كانت حاجتهم أمس إلى حمايتهم من تعصبهم وتنافسهم فيـما بينهم) (انجلهـارعن جورج قرم، كوثـراني ٧٣). ونظـراً لأن العثمانيين واجهـوا لأول مرة مثـل هذه الظـروف التي تتطلب منهم إدارة منـاطق واسعة وبلاد عديدة من غير المسلمين، فقد تباينت آراؤهم أول الأمر تجاه السياسة التي يجب اتباعها، واستقر الرأي على أن أصدر السلطان محمد الفاتح (بعد احتـلال القسطنطينيـة وإزالـة الإمـبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣ م) نظام الملة، الـذي قسم (الـرعايا) إلى ملل حسب أديانهم، وأعطى لرجال الدين المسيحيـين على طوائفهم ماهـوموكـول إلى رجـال الـدين المسلمـين على طوائفهم، وخـاصـة الأمور الدينية والتعليمية والأحوال الشخصية وغيرها، ثم اكتشف أن طقوس العبادة النصرانية تختلف من طائفة لأخرى، فزاد عدد الملل حسب الطـوائف أيضـاً وليس حسب الأديـان فقـط (كـانت العقيـدة والقـوميـة في أذهـان الناس اعتبارين متشابكين يتعذر الفصل بينهما، وكانت كل من الفئـات الـدينيـة في الإمبراطورية العثمانية تسمى ملة، وكانت أكبر الملل اثنتان هما ملة الإسلام وملة الروم (الأرثوذكس)، وكان الأرمن واليهود يعدون في جملة الملل، وكانت جميع الملل غير المسلمة تبعاً لهذا النظام مقسمة

إلى طوائف دينية، يرأس كل منها رئيس من أبناء الطائفة، يمارس بعض المهام المدنية الخطيرة، بحيث أدى هذا الوضع إلى إنشاء نظام خاص بحكومات الأقليات الخاضعة) (حتي ٢ / ٣١٣).

لم يكن نظام الملة تقسيماً طائفياً يهدف إلى استصغار طائفة أو عدم الاعتراف بحقوقها، بل كان يهدف لتثبيت حقوق الطوائف وواجباتها وإيجاد توازن بين هذه الطوائف، وتفويض رجال الدين بالشؤون الدينية لدى كل طائفة وبالشؤون التعليمية والاجتماعية، وكانت الدولة العثمانية القائمة على العصبية والجند ونظام الجباية، (تتيح في أوائل عهودها عبر بنيتها نفسها، استقلالية واسعة للعصبيات المحلية وللملل الدينية، وكانت العلاقة تنحصر بين هذه العصبيات والملل من جهة وبين مركز الدولة من جهة ثانية، في نطاق دفع الضريبة التي تجبى عبر المشايخ والأمراء والبطاركة المحليين، ومقابل ذلك كانت السلطات المحلية تمارس على قاعدة الأعراف والتقاليد والشرائع الملية المختلفة) (كوثراني ٦٢).

ولكن نظام الملة هذا مالبث أن تحول بعد التدخل الأوروبي ونظام الامتيازات إلى نظام أقليات، وكان الأوروبيون يسعون جاهدين لتحويل الملل المسيحية إلى أقليات (قومية) ودول داخل الدولة، مما أرسى الحجر الأول في المشكلة الطائفية في المشرق العربي. وقد تعرض نظام الملة للفساد فيما بعد، بسبب الرشوة وبيع المناصب التي مارسها حتى رجال الدين أنفسهم.

لقد حاول السلطان سليم الأول فيما بعد، أن يجعل البلدان التي ضمها لإمبراطوريته إسلامية خالصة، ولكن وكما يقول أحد الوزراء العثمانيين، كانت (تقوم في وجهه الملة ويحاجه شيخ الإسلام (المفتي العام) ويقول له بلا محاباة، ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية، وليس لك

أن تزعجهم عن أوطانهم، فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الشريف، فبقي - كما يقول الوزير العثماني - بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا وافرين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين). (كوثراني ٥٧ عن شكيب ارسلان).

كان العثمانيون بشكل عام غير متعصبين ضد المسيحيين (فالمهم عندهم أمن النظام وتأمين الجباية التي كان يقوم بها زعماء دينيون أو مدنيون محليون)، خاصة وأن أعداداً كبيرة من المسيحيين كانوا من (رعايا) الدولة سواء في البلقان أم في الممتلكات السابقة الأخرى للدولة البيزنطية أم في البلاد العربية، وتعاملوا معهم في إطار هذا التسامح، وقد تمتعت الطوائف المسيحية واليهودية، منذ سقوط القسطنطينية بالاعتراف بها اعترافاً رسمياً أبرز، فقد أقرت السلطنة العثمانية للبطاركة الأرثوذكس والأرمن ولحاخام العاصمة الأعظم بأنهم ليسوا رؤساء طوائفهم الروحية فحسب، بل رؤساؤها السياسيون أيضاً، أما الطوائف الأخرى، كالأقباط في مصر، والموارنة والنساطرة والسريان والأرثوذكس في لبنان وسورية والعراق، فكانت على اتصال أقل بالحكام لإقامتها بعيداً عن العاصمة. ومع ذلك فقد كان بطاركتها ينالون اعتراف السلطات بهم من وقت إلى آخر. وكان السلطان يقوم بتنصيب البطاركة والحاخامين رسمياً، وكان هؤلاء يتعاملون مع حكومته في جميع الشؤون العائدة لأبناء طوائفهم، وكان للقرارات والأحكام الصادرة عنهم في نطاق الطائفة صفة القانون النافذ. وكانوا مسؤولين عن استيفاء الضرائب. وكانت الحكومة نادراً ما تتدخل في شؤون المسيحيين واليهود ماداموا يؤدون الضرائب بانتظام. وماداموا أيضاً لا يشكلون خطراً بتحالفهم مع دول أجنبية. وكانت تسري عليهم، في الأحوال الشخصية والدعاوى المدنية، أحكام قانونهم الديني وعرفهم (ألبرت حوراني ٤٦).

يقول برنارد لويس (. . . . كان الأوروبيون الذين يزورون البلقان يعلقون على أوضاع فلاحي البلقان الحسنة وعلى رضاهم من هذه الأوضاع . كانوا يجدونها أفضل من الأوضاع السابقة في بعض أنحاء أوروبا المسيحية ، وكان الفرق أوضح بكثير من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في عصر حركات التحرر الكبيرة التي كان يقوم بها الفلاحون في أوروبا) ويضيف : كانت الإمبراطورية العثمانية ، بالإضافة إلى كونها عدواً خطراً ذات سحر قوي ، فقد كان المستاؤ ون والطموحون ينجذبون إليها بالفرص التي تتاح لهم في ظل التسامح العثماني ، وكان الفلاحون المسحوقون يتطلعون بأمل إلى أعداء أسيادهم . وحتى مارتن لوثر في مؤلفه المسمى (النصح بالصلاة ضد الأتراك) الذي نشر عام ١٥٤١ م ، حذر بأن الفقراء المضطهدين على يد الأمراء وأصحاب الأملاك والمواطنين الجشعين، يفضلون على الأرجح العيش في ظل الأتراك بدلاً من المسيحيين أمثال هؤلاء). (عن كوثراني ٦٢).

الامتيازات الأوروبية :

بدأت العلاقات العثمانية الأوروبية بعيد قيام الإمبراطورية العثمانية ، وقد عبرت هذه العلاقات عن نفسها بتوقيع اتفاقيات ومعاهدات تجارية بين الطرفين ، وبعد ضعف الدولة العثمانية اللاحق وقعت اتفاقيات سياسية وعقود إذعان . لقد بدأ ضعف الدولة العثمانية ، نتيجة عديد من الظروف أهمها أعباء الحروب ، وتراجع التجارة ، وتدهور الاقتصاد ، وفساد النظام السياسي والاجتماعي ، وتفشي الرشوة والمحسوبية ، ونظام الامتيازات الإقطاعي الذي دمر الريف ، ونظام تعيين الولاة والحكام الذي وصل إلى

حد بيع المنصب بالمزاد . . . إضافة لأسباب أخرى، مما جعلها ضعيفة أمام الضغوط الأوروبية والنفوذ الأوروبي .

وقـع العثـمانيـون أول معاهدة مع البنادقة الأوروبيين في وقت مبكر، وذلـك عام ١٥٢١ م ، ورغم أن اهتـمام تجار البنـدقيـة كان منصباً على العـلاقـات التجـاريـة والمـالية ، إلا أن هذه المعاهدة تجاوزت هذا الاهتمام ، فأعطت تسهيـلات تجاريـة لتجـار البنـدقيـة ، وحـددت حقـوق التركات ، وسمحت لهم بإرسـال تراجمـة لحضـور محاكمـة رعـايا البندقية ، وكانت هذه المعـاهـدة هي البـدايـة لمعـاهـدات لاحقـة مع أوروبيين آخرين ، توسعت وشـمـلت جوانـب غير تجاريـة ، ومـالـبثت أن تحولت إلى ماسمي نظـام الامتيـازات الأوروبي الذي أتاح للأوروبيين التدخل في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية ، بعد أن أوجد شروطاً واقعية ومناسبة لهذا التدخل ، ثم نصب الأوروبيـون من أنفسهم (حمـاة) للأقليات ، واستطاعوا بذلك أن يشـاركـوا في تقـريـر مصـير الإمـبراطورية العثمانية ، مشاركة تزداد طرداً مع ضعف السلطنة .

توصـل الفـرنسيـون إلى (معـاهـدة) مع السلطان سليمان الأول عام ١٥٣٦ م ، أي بعـد خمسـة عشـر عامـاً من توقيع المعاهدة مع البندقية ، وقد حصـل الفـرنسيـون من خلال هذه المعاهدة على امتيازات كثيرة ، منها منح حريـة السفـر للرعـايا الفرنسيين داخل الأراضي العثمانية ، بما في ذلك حرية تنقـل السفن الحـربيـة ، وتـوسيـع علاقـات التبـادل والعلاقات التجارية ، وأعطت المعـاهـدة للقناصل الفرنسيين حقوقاً وامتيازات كثيرة منها حقهم في أن يحاكمـوا (هـم) رعـايـاهـم على أراضي الـدولة العثمانية حسب قوانينهم . بدون أن يتـدخـل أي قاض شرعـي أو موظف أو حاكم عثـماني ، ولهم أن يستعينوا بعساكر السلطان وموظفيه واستخدامهم . ومنعت المعاهدة القاضي

العثماني أن يحكم بالخلافات بين التجار الفرنسيين على أراضي الإمبراطورية ومنحت هذا الحق للقناصل الفرنسيين. وتعهدت بتأمين الحرية الدينية للرعايا الفرنسيين، ومنعت استخدام مراكب التجار الفرنسيين لخدمة الدولة أو حتى لخدمة السلطان نفسه، وقضت بتسليم الإرث إلى الورثة الأجانب بمعرفة القناصل، وقبول الوصية، وأعطت مثل هذه الامتيازات لإنكلترا والبابا إذا صدقوا عليها، (النص الكامل محمد فريد ٧٦ ومابعد).

وفي عام ١٧٤٠ م وقع السلطان محمود الأول، معاهدة مع لويس الخامس عشر، فتح بموجبها البلدان المقدسة، ليس للحجاج الفرنسيين وحدهم، بل لجميع المسيحيين الذين وفدوا على الإمبراطورية العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي، واتخذ الفرنسيون هذه الامتيازات أساساً لحق حماية جميع المسيحيين الكاثوليك في سورية (حتي ٢ / ٣١٨)، ثم فتحوا قنصليات في عدة مدن سورية، وفعل البريطانيون مثلهم.

أما روسيا، فقد وقعت معاهدة بدورها عام ١٨٢٩ م، جاء في البند السابع منها: يتمتع رعايا الروسيا في سائر أنحاء المملكة العثمانية براً أو بحراً، بحرية التجارة التامة، التي تكفلها لهم المعاهدة المبرمة سابقاً بين الدولتين العظميين المتعاقدتين، ولا يصح مس حرية التجارة بأي وجه كان. . . . . سواء كان من جهة الإدارة أو من جهة القضاء في داخلية البلاد. والرعايا والسفن والتجار الروسيون تحت السلطة القضائية والبوليس الخاصين بوزير وقناصل روسيا. . . . وكل أنواع المتجر أو الغلال المملوكة لأحد رعايا الروسيا يمكن بيعها بكل حرية (محمد فريد ٥٥٢). وهكذا حصلت الدول الكبرى في ذلك الوقت (فرنسا ـ إنكلترا ـ روسيا ـ النمسا. . . .) على امتيازات كبيرة داخل أراضي الدولة العثمانية، وأخذت

هذه الامتيازات تتوسع شيئاً فشيئاً حسب قدرة الدولة الأوروبية المعنية ومدى علاقتها بالسلطنة العثمانية، وحسب توازنات القوى الدولية، ودرجة ضعف الدولة العثمانية، وغدت تلك الامتيازات (باباً للتدخل الأجنبي، وإثارة الفتن الداخلية، وخطوة نحو السيطرة الأجنبية) (موسوعة السياسة، مادة امتيازات).

صار من اهتمامات السلاطين العثمانيين الأساسية إرضاء الأوروبيين الذين أخذوا، شيئاً فشيئاً، ينصبون أنفسهم (حماة) للطوائف المسيحية في الشرق، فروسيا (حامية) الأرثوذكس وفرنسا (حامية) الكاثوليك، وانكلترا وأمريكا فيما بعد (حامية) البروتستانت . . . وهكذا، واستمر التعامل شعبياً مع المسيحيين العرب ـ في البدء ـ كما كان أيام المماليك، ثم أخذ يسوء أكثر فأكثر، مع التخلف والاستبداد، وضعف الدولة، واستشراء الفساد، الذي مارسه حتى الرهبان أنفسهم من زعماء الطوائف، واستغلوا ما أعطي لهم من صلاحيات دينية ومدنية تخص طوائفهم. فقد كان من مصادر الاستبداد دخول أمراء وزعماء وبطاركة الطوائف المسيحية في نظام الالتزام الضرائبي جنباً إلى جنب مع القواد والولاة والباشوات العثمانيين المسلمين، مما كان يعني أن الاضطهاد والتعسف في الجباية الضرائبية كانا يصيبان الفلاحين مسلمين ومسيحيين، وذلك في سياق تقهقر النظام الإقطاعي العثماني وتحوله إلى نظام التزام وجباية، يتداخل مع أرباح التجارة الغربية التي انتظم فيها الأعيان المتنفذون من كل الملل. (كواثراني ٦٣).

إن حرص الأوروبيين على توسيع امتيازاتهم، وبحثهم الدائم عن إيجاد مبررات للتدخل بشؤون الإمبراطورية العثمانية، جعلهم يجدون هذا المبرر في شعار (حماية الأقليات المسيحية) داخل الإمبراطورية، وخلق واقع ثابت يؤكد هذه الحماية ويعطيها الاستمرار، فعملوا ـ من أجل ذلك ـ في

اتجاهين هما: بعث الإرساليات وفتح المدارس وإقامة الجمعيات من جهة، ومنح امتيازات للمسيحيين في السلطنة (وخاصة في مجال التجارة والصيرفة) وجعلهم امتداداً بشرياً للأوروبيين من خلال ذلك من جهة أخرى، وبالتالي تغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بما يقوي مركز الأوروبيين ويجعل من المسيحيين حلفاء لهم شأن، وقوة اقتصادية واجتماعية تستطيع أن تضغط باستمرار لبقاء الصلة متينة مع الدول الأوروبية. وسلخهم ـ إن أمكن ـ عن مجتمعهم.

الإرساليات الأجنبية:

جاءت الإرساليات مبكراً إلى البلدان العربية التابعة للسلطنة، وأسست هذه البعثات فروعاً لها، فقد دخلت جمعية الآباء اليسوعيين إلى سورية عام ١٥٧٨ م، وبعد قليل من التلكؤ وتباطؤ النشاط، أنشأت خمسة أديرة تابعة لها هي: دير حلب عام ١٦٢٥ م، دير دمشق عام ١٦٤٣ م، دير طرابلس ودير صيدا عام ١٦٤٤ م. ثم دير عنطورة بلبنان عام ١٦٥٥ م. ومنذ عام ١٨٣٠ م اتخذ نشاط الجمعيات والإرساليات الأوروبية مساراً جديداً ركز على إنشاء المدارس، وإقامة المطابع ونشرها، (أشار القنصل الروسي في بيروت إلى أن المسلمين لم يكونوا يملكون ولا مطبعة واحدة في سورية كلها في منتصف القرن التاسع عشر)، والاهتمام بالتأليف والترجمة والنشر، وتكوين الكوادر البشرية، (خاصة من المسيحيين مما سيكون له أثر كبير في النهضة العربية)، وإنشاء الجمعيات الخيرية والدينية والمستوصفات والمستشفيات، ثم أخيراً فتح الجامعات (الجامعة الأمريكية وجامعة القديس يوسف اليسوعية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر) لقد كثفت

الإرساليات نشاطها بشكل خاص في منتصف القرن التاسع عشر. وكانت تنتهج سياسة مرنة في كسب الأنصار الجدد وفي السعي إلى تأكيد نفوذ كنائسها في البلاد. وأحرز البر وتستانت الأمريكيون نجاحا خاصا، لأنهم أجازوا استعمال اللغة العربية في ممارسة العبادة، الأمر الذي مكنهم من الاقتراب من السكان المحليين بشكل أسرع وأكثر توثقا. وفي المعاهد الدراسية التي افتتحها المبشرون، كان يجري ترغيب الشبيبة (بالحماة الأجانب) للمسيحيين السوريين (فرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة وغيرها) وكان استياء السكان من النظام التركي يسهل هذه المهمة، وكان الناس يؤثرون، في أغلب الأحوال، دراسة اللغة الفرنسية أو الإنكليزية على التركية. وفي أواخر القرن نوه الفرنسي تروتينون بأن المدارس في بيروت «أجنبية إلى حد بعيد. . . . وهنا يفقد السكان المحليون إلى حد ما طابعهم القومي ويعلنون ولاءهم لدولة أو لأخرى من الدول الأوروبية». (ليفين ٤٨). وعلى أية حال فقد أدت نشاطات هذه البعثات دوراً هاماً ذا طبيعة مزدوجة، فهي من جهة أولى حاولت تحويل الملة المسيحية إلى (أقلية) ذات ثقافة مختلفة، أي تحويلها إلى مايشبه الأقلية القومية، وهي من جهة ثانية ساعدت على نشر التعليم والتنوير بين مختلف أبناء الطوائف، بل اضطرت وحرضت العرب من مسلمين ومسيحيين إلى فتح مدارس حديثة بعد أن كانت المدارس قائمة في المساجد والكنائس تعلم القرآن والإنجيل والكتابة والقراءة فقط ويقوم عليها رجال دين مسلمين وكهنة مسيحيون. وكانت مدارس الدولة تستخدم اللغة التركية، فقامت مدارس خاصة عديدة تستخدم العربية وتدعو لإحيائها.

امتيازات المسيحيين :

أدت الامتيازات الممنوحة للأوروبيين إلى الاعتماد على المسيحيين واعطائهم امتيازات خاصة وتفوقاً على الفئات الأخرى مما غير الميزان الاقتصادي والوضع الطبقي في سورية. وكان تدفق السلع الأوروبية على الأسواق العربية يتطلب خدمة العلاقات بين الأسواق المحلية والأوروبية، الأمر الذي أدى إلى تحول التجار العرب بوجه عام إلى وسطاء يعيدون بيع السلع الأوروبية في السوق الداخلية، وإلى مشترين بالجملة للمواد الأولية من أجل تصديرها إلى الخارج. وقد كتب أحد فقهاء ذلك العصر (منذ بضعة أعوام. كان تجار الجملة عندنا من الأجانب كلهم، أما الآن فإنهم من أهل هذا البلد. وهم الذين يقومون بكافة عمليات التصدير والاستيراد) (ليفين ٤٧). وكانت طبيعة التجارة بين أوروبا والشرق آخذة في التغير في القرن الثامن عشر. فكانت جاليات التجار الأوروبيين في المدن العثمانية على تقهقر، لصعوبة التجارة في المناطق غير الآمنة، ولقدرتها على تحقيق أرباح أوفر في بلدان أخرى، وهكذا أخذت التجارة تنتقل إلى أيدي المسيحيين واليهود الشرقيين بفضل الحماية القنصلية لهم، وكذلك بفضل معرفتهم اللغات والأساليب التجارية الأوروبية، فتمكن المسيحيون واليهود الناطقون بالضاد، في دمشق وحلب ومدن الساحل، من أن يبنوا، على غرار اليونان والأرمن، شبكة تجارية تربط مدنهم بمدن الاسكندرية وليفورنو وتريستا ومرسيليا (البرت حوراني ٧٩). ويقول جب وبوون في هذا المجال: ولما كان التجار الفرنجة بحاجة إلى وكلاء وتراجمة ومقاولين فلم يكن لهم من خيار سوى الإفادة من هذه الطائفة من الناس (أي الطائفة المسيحية) . . .

كان معظم هؤلاء في مصر حتى أواسط القرن الثامن عشر من اليهود، بينما كان معظمهم في سورية مسيحيين من المناطق الساحلية وبخاصة الملكيون، بالإضافة إلى الأرمن في حلب. وبرغم الجهود التي بذلها التجار الأوروبيون وبخاصة في الموانيء الفرنسية، لقصر هؤلاء الذين تحت حمايتهم على كونهم وكلاء، فإن الكثيرين منهم أخذوا يطورون التجارة الأوروبية لمصلحتهم الخاصة بعد أن وضعوا أقدامهم فيها، وكان يساعدهم عل ذلك اندماجهم في جنسية حماتهم وفقاً لما جرى عليه العرف طبقاً للامتيازات الأجنبية التي كانت تخول السفراء في الأستانة أن يمنحوا براءات أو خطابات حماية يصدرها الباب العالي لعدد من الأشخاص يختارونهم لخدمتهم. (جب وبوون كوثراني ٦٤). وهذا العرف الذي يتحدث عنه جب وبوون في إطار الإمتيازات الأجنبية، كان يؤدي عملياً إلى سلخ فئات محلية عن الرعوية العثمانية (التابعية العثمانية)، والانضواء تحت الحماية الأجنبية وفي كثير من الأحيان الانضواء في الجنسية الأجنبية. وكان ذلك يؤدي إلى الامتياز القانوني وإلى تسهيلات تجارية جمة. (كوثراني ٦٤)، أما عن البراءات والرعاية الأجنبية فيقول الكاتبان جب وبوون: ولما كان تحت تصرف كل سفير خمسون براءة، ولما كانت المنحة تتجدد عند كل تعيين جديد، لايدعو للعجب أن تزداد بسرعة اعداد أولئك الذين كانوا ينعمون بالرعاية الفرنسية والنمسوية والسويدية والبريطانية وغيرها من الجنسيات الأوروبية، ممن كانوا يندمجون في هذه الجنسيات ويشاركون في نفس القضاء القنصلي، ويمكن أن نتبين مدى سوء استعمال هذا الحق أن باشا حلب شكا إلى الباب العالي في عام ١٧٩٢ م من أن عدد تراجمة القناصل في حلب زاد حتى بلغ حوالي ألف وخمسمائة وكلهم معفون من الضرائب ويعملون في التجارة. . . وبالحصول على جنسية أوروبية كان الرعايا العثمانيون

السابقون يحصلون على ميزة مزدوجة : ففي المحل الأول كانوا يحصلون على حماية قناصل الدول الأوروبية وعلى وسائل العلاج التي كان باستطاعة القناصل أن يلجأوا إليها كثيراً ضد ألوان الابتزاز والمغارم التي لا تنتهي ، والتي كانت تنزلها أهواء وأطماع موظفي الجمارك والحكام بكل فروع التجارة والتي كانت تتحول أحياناً بالتكرار إلى رسوم منتظمة . . . . ومن ناحية أخرى كان لهم الحق في المزايا التي كانت تمنحها الامتيازات الأجنبية للتجار الأوروبيين ، وبخاصة الخفض النسبي للرسوم المفروضة على وارداتهم وصادراتهم . (عن كوثراني ٦٤ ـ ٦٥) ويرى ليفين أن نظام الامتيازات قد قوض أولوية المسلمين على سكان الإمبراطورية المسيحيين تقويضاً شديداً ، فقد كانت التجارة بين بلدان الشرق الأدنى وأوروبا تتم أساساً عن طريق المسيحيين (الأرمن واليونانيين والشوام) الذين كانوا يتمتعون بحماية قناصل البلدان الأوروبية ، (ص ١٦) وكان من شأن النمو النسبي للرفاهية والتعليم بين فئات معينة من سكان سورية المسيحيين (وخاصة في لبنان) ، أن تعززت مكانة المسيحيين في المجتمع ، فشغلوا مناصب الأمناء والمستشارين والكتبة للأمراء . ولما كانت البورجوازية التجارية السورية مسيحية في غالبيتها ، فقد ساعد ذلك ليس فقط على تعزيز علاقات السكان المسيحيين بأوروبا وتحويل المسيحيين السوريين إلى أنصار ممكنين للدول الأوروبية ، بل أدى الأمر أيضاً إلى زيادة الإمكانيات المتاحة أمام الأنتلجنسيا المسيحية للتعرف على ثقافة الغرب المتقدمة وأفكاره التقدمية (ليفين ٤٨) . وقد برز من الطوائف المسيحية التي أنشأتها أو عززتها الإرساليات فريق من المثقفين ، وعوا عالم أوروبا الجديدة بل اعتبروا أنفسهم ، بمعنى من المعاني ، جزءاً منه (البرت حوراني ٧٧) . وهكذا استطاع الأوروبيون سلخ فئات من المجتمع وإتباعهم لهم ، وغيروا علاقات التوازن الاقتصادي والاجتماعي ، مما أدى

إلى ردود فعل لدى فئات المجتمع الأخرى. عبرت عن نفسها بتناحرات طائفية، وصراعات كانت دموية أحياناً، واضطهادات وتباغض بين المسلمين والمسيحيين في بعض المناطق، استغلته الدول الأوروبية مبرراً للتدخل في شؤون بلاد المشرق التابعة للسلطنة العثمانية.

إجراءات ابراهيم باشا:

كان القرن التاسع عشر قرن التحول الكبير في موقف الدولة العثمانية من الملل المذهبية، وقوننت العلاقة معها، حيث صدرت القوانين الأساسية التي نظمت أوضاع هذه الملل وحققت المساواة لجميع المواطنين، وذلك بصدور خط شريف كولخانة وخط شريف همايون ودستور ١٨٧٦ م. وكانت هذه الإجراءات والقوانين نتيجة طبيعية لما آلت إليه حال الدولة من ضعف أمام الأوروبيين، وضعف داخلي، وخواء خزينة الدولة، وتدهور حال الجيش، وزيادة ضغط الدول الأوروبية وحاجة السلطنة لها لتستطيع الوقوف بوجه مطامح محمد علي باشا، كما كانت نتيجة للإجراءات الليبرالية التي طبقها ابراهيم باشا تجاه الطوائف غير الإسلامية عند (احتلاله) لسورية، إضافة إلى نهوض تيار ليبرالي داخل السلطنة كان ينادي بالإصلاحات.

دخل ابراهيم باشا سورية عام ١٨٣١ م، وفور وصوله مدينة القدس استن قوانين وأنظمة جديدة تؤطر التعامل مع المسيحيين، وكان ذلك واضحاً في الأمر (البيورلدي) الذي وجهه ابراهيم باشا عند احتلاله القدس، إلى القاضي الأعلى وشيخ مسجد عمر والمفتي والنائب وكل السلطات، وجاء فيه:

في القدس معابد وأديرة وأماكن للحج تأتي إليها من أبعد البلدان كل الشعوب المسيحية واليهودية من مختلف الطوائف الدينية. وكانت ترهق هؤلاء الحجاج إلى الآن ضرائب ضخمة في أداء نذورهم وفرائض دينهم. ورغبة منا في استئصال هذا العسف، نأمر كل متسلمي إيالة صيدا وسنجقي القدس ونابلس بإلغاء هذه الضرائب على كل الطرق بلا استثناء. ويقيم في أديرة القدس وكنائسها رهبان ومتعبدون لقراءة الإنجيل وأداء الطقوس الدينية لمعتقداتهم، والعدل يقتضي أن تعفى من كل الضرائب التي فرضتها عليها السلطات المحلية بشكل تعسفي. لهذا نأمر بأن تلغى إلى الأبد كل الضرائب التي تجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفرنجة وأقباط وأرمن وغيرهم، مهما كانت الذريعة أو التسمية التي تؤخذ بها هذه الضرائب هدية عادية وطوعية، أو إلى خزينة الباشوات أو في مصلحة القضاة والمتسلمين والديوان وماشابه ذلك، فإنها جميعاً ممنوعة منعاً باتاً. وتلغى على حد سواء الكفارة التي تجبى من المسيحيين عند دخول كنيسة قبر السيد المسيح أو عند التوجه إلى نهر الشريعة. وبعد إعلان هذا الأمر (البيورلدي) سيعاقب بصرامة كل من يطلب أقل أتاوة من المعابد والأديرة المذكورة والحجاج. (ترجمة عن الروسية، عن بازوليني ١١٤).

لقد بقي مضمون هذا الأمر هو الإطار العام والبرنامج الثابت لسياسة ابراهيم باشا خلال احتلاله سورية. وتنفيذاً لهذه السياسة سمح ابراهيم باشا للمسيحيين بترميم معابدهم وأديرتهم وتجديدها، وبناء معابد جديدة دون موافقات مسبقة، كما وافق للمسيحيين (بل أمرهم) بأن يرتدوا عمائم بيضاء أو أية ملابس يريدونها، وأن يتجولوا على جيادهم في دمشق وغيرها (فجلسوا جنباً إلى جنب (مع المسلمين) في المجالس المحلية التي أقامها،

واستخدم جنوداً مسيحيين من لبنان لإخماد الثورات. .) (البرت حوراني ٨١). ورأى عامة الناس في هذا الإجراء بدعة ومخالفة لتقاليد دمشق التي سارت عليها سنوات طوال، وقد حاول بعضهم الاعتداء على المسيحيين الذين ارتدوا العمامة البيضاء فأمر إبراهيم بجلدهم، مما أخاف الناس وأسكتهم. وعندما سأل الناس إبراهيم: كيف يمكن أن يميزوا بين المسلم والمسيحي أجابهم إن الخلفاء الأوائل دعاة الشريعة كانوا أنفسهم يرتدون عمائم سوداء بسيطة عوضاً عن هذه العمارات العجيبة والملونة التي تتزين بها الآن رؤوس مفسري الشريعة، وأنه تجب معرفة المسلم في المسجد فقط، والمسيحي في الكنيسة، أما خارج المسجد وخارج الكنيسة فلا فرق بينهما. (بازوليني ١٦٤).

رغم أن سياسة إبراهيم باشا، كانت صريحة ومباشرة وحاسمة، ولم تراع التقاليد المعمول بها، وأدت ببعض الناس لأن يشعروا (بالإهانة) من تطبيق هذه السياسة، فقد غيرت كثيراً من موقف الدولة العثمانية من المسيحيين، لأنها كانت تسعى لكسب ود الأوروبيين بأي ثمن.

خط شريف كولخانه:

كان السلطان محمود الثاني، الذي دخل إبراهيم باشا سورية خلال حكمه، مطبقاً بالفعل أقصى درجات التعامل المتسامح مع المسيحيين، دون أن يصدر أوامر أو مراسيم أو خطوط شريفة بذلك، بل طبقه تطبيقاً فعلياً ونفذته الدولة بممارساتها، فقد حصل أبناء الملل غير الإسلامية في عهد محمود الثاني على حق إدارة شؤونهم إلى أقصى الحدود، وعلى نوع من المساواة مع (الملة) الإسلامية، وضمنت الدولة لهم حفظ ملكياتهم، وحرية

التنقل والتجارة، والتقاضي في قضاياهم الخاصة (وفيما بينهم) أمام رؤسائهم الدينيين. وقد صدرت هذه الإجراءات بقانون بعيد وفاة السلطان محمود الثاني (١٨٣٩ م) أيام السلطان عبد المجيد، الذي أصدر خط شريف كولخانه عام ١٨٣٩ م، فألغى بموجبه فعلياً نظام الملة. وقد استهل هذا القانون بالمقدمة التالية:

من المعلوم لدى الجميع أن تعاليم القران المجيد وشرائع السلطنة كانت أبداً محترمة على عهد الدولة العثمانية الأولى. فازدادت من جراء ذلك قوة السلطنة وعظمتها، وبلغ كافة الرعايا بلا استثناء أعلى مراتب البحبوحة والازدهار، لكن حدثت خلال المائة وخمسين سنة الفائتة، سلسلة من الأحداث والأسباب المختلفة أدت إلى تجاهل الشرائع المقدسة والأنظمة المستمدة منها، فانقلبت القوة والازدهار السابقين إلى ضعف وفقر. والواقع أن الدول تفقد استقرارها حالما تتوقف عن التقيد بشرائعها. . . . لذلك رأينا مناسباً، ونحن على ثقة بمعونة العلي وعلى يقين بتأييد نبينا، أن نزود الولايات التي تتألف منها السلطنة بإدارة صالحة، (البرت حوراني ٦٥). ولم يكن مضمون خط شريف كولخانة محصوراً بالتعامل مع المسيحيين بل كان قانوناً يهدف لتغيير بنية الدولة وأساليب عملها، وتحويلها إلى دولة عصرية، فقد التزم السلطان بموجبه بمنع بيع المناصب ومنح الامتيازات، ومنع الربا والرشوة وتلزيم الضرائب الحكومية، وألغى التعذيب واستخدام السم والخنجر، وحصر الإعدام بنتيجة حكم محكمة وبعد محاكمة، كما منع مصادرة الممتلكات لأي سبب أو فرض الضرائب والرسوم كيفياً، وحفظ حق الرعايا في حماية حياتهم وممتلكاتهم، وأمر بالمحاكمات العلنية، وقرر إعطاء رواتب محددة للموظفين وحرمهم من الإقطاعات والمنح والجعالات، كما قرر أن يطبق هذا على جميع المواطنين بغض النظر عن دياناتهم، وأكد المساواة

الكاملة بين المسلمين والمسيحيين وصدرت فرمانات (مراسيم) تنفيذية لهذا القانون تضمنت اتخاذ التدابير المؤثرة (نحو تأمين كافة التبعية الملوكية من أي دين أو مذهب كانوا بدون استثناء، على الروح والمال وحفظ الناموس). ونظمت هذه الفرمانات انتخاب البطاركة وعلاقتهم بالسلطنة، وتخصيص رواتب للرهبان، وانتخاب مجالس لشؤون الطائفة المسيحية، وسمح للمسيحيين بناء مقابرهم حسب تقاليدهم، ونظم أصول بناء الكنائس وأماكن العبادة، وقرر الحصول على موافقة مسبقة على بناء كنائس جديدة، مع إقراره بمبدأ الحق ببناء هذه الكنائس. وأمر بإزالة كل تحقير من السجلات الرسمية لجنس أو دين أو مذهب، وضمن الحرية الدينية، وقرر قبول جميع (الرعايا) بالمدارس العسكرية، وقبول الجميع أمام المحاكم المختلطة. (النص الكامل، محمد فريد ٢٩١).

لقد أدخل خط شريف كولخانة على القانون الدولي العام الإسلامي تغييراً جذرياً، إذ ألغى نظام الذمة، وأعلن المساواة بين جميع رعايا الإمبراطورية مسلمين وغير مسلمين، سواء بالنسبة إلى سلامتهم الشخصية وكرامتهم وأموالهم أو بالنسبة إلى تكليفهم بالضرائب أو بالنسبة إلى الخدمة العسكرية ومدتها. (مغيزل ٨٢). وقد شجع خط شريف كولخانة مثلاً البعثة الروسية في الأستانة أن تطالب بحماية ورعاية المسيحيين السوريين، مع تأكيد تلك الامتيازات التي تمتعت بها الكنيسة تحت الحكم المصري، ولاسيما في القدس، ومنع أية غرامة تفرض على الأديرة والحجاج. (بازوليني ٢٨٧). وطالبت الدول الأوروبية الأخرى بتوسيع نطاق خط شريف كولخانة ليشمل جوانب أخرى من الحياة والأنظمة والأعراف ويطورها، ونشأت ظروف جديدة داخل الدولة العثمانية، وانتشرت الصحافة، وتأسست جمعيات التنوير، ووجدت السلطنة نفسها

بحاجة لتحديث الدولة بقوانينها وأنظمتها، فأصدرت في ١٨ شباط ١٨٥٦ م خط شريف عرف باسم الخط الهمايوني.

الخط الهمايوني:

أكد الخط الهمايوني إصلاحات خط كولخانة وعمقها ووسعها ففتح باب الوظائف العامة والمدارس المدنية والعسكرية أمام الجميع من دون تفرقة، ووحد التشريع المتعلق بشراء وبيع الأملاك العقارية بين الجميع. كما أفسح في المجال أمام الأجانب لشراء العقارات في الإمبراطورية، وأكد احترام امتيازات الطوائف الدينية ورؤسائها وحقها بالتملك، لابل جرى تعيين ممثلين لمختلف الطوائف لدى الباب العالي يتولون المشاركة في مجلس العدل الأعلى في كل الشؤون المتعلقة بعموم رعايا الإمبراطورية. (مغيزل ٨٢). ومن الأحكام المهمة التي نص عليها الخط الهمايوني أنه ألغى نهائياً من الأنظمة الإدارية كل تفريق أو تسمية من شأنها جعل أية طبقة من طبقات رعايا السلطنة، دون سواها من الطبقات، بسبب الدين أو اللغة أو العرق، ونص على المعاقبة القانونية لكل استعمال العبارات المهينة أو الجارحة سواء بين الأفراد أو من قبل السلطات العامة، كما نص على حرية ممارسة جميع الديانات، وحظر مضايقة أي شخص من رعايا السلطنة في ممارسة ديانته. (البرت حوراني ٦٧، جوزيف مغيزل ٨٢).

دستور ١٨٧٦ م:

رغم أهمية صدور خط شريف كولخانة، وخط شريف همايون، وما

تضمناه من تغييرات هامة، فإن الإصلاح الأهم في القرن التاسع عشر كان في صدور مرسوم ١٨٧٦ م، الذي أرفق بمذكرة وزعت على سفراء السلطنة في العالم جاء فيها:

تلاحظون أنه بحسب الدستور الجديد، ليس للمؤسسات الجديدة أي طابع ثيوقراطي، وأنه ليس من شأن أي أحكام دينية أن تعرقل تطبيق الإصلاحات، وإقامة نظام عدلي وإداري مؤات لحاجات البلاد، ولمبادىء القانون العصري. إن المبادىء العامة المتعلقة بالحرية والمساواة والمعلنة في مقدمة الدستور، مستقاة من القانون العام الأوروبي الأكثر ليبرالية، وتشكل الأساس الحقيقي لحركتنا الإصلاحية الكبرى. (ومن الواضح في هذه المذكرة محاولة كسب رضى الأوروبيين على السلطنة)

ومن أحكام دستور ١٨٧٦ م:

١ - يدعى جميع رعايا السلطنة عثمانيين أياً كان الدين الذي يعتنقون، مع إبقاء مبدأ (دين الدولة الإسلام)، وتحمي الدولة الممارسة الحرة لكل الأديان المعترف بها في السلطنة، وتحافظ على الامتيازات الدينية المعطاة لمختلف الملل منذ القدم.

٢ - جميع العثمانيين متساوون أمام القانون، لهم الحقوق ذاتها، كما عليهم الموجبات ذاتها.

٣ - يتولى العثمانيون الوظائف العامة بصرف النظر عن دينهم.

وعلى التوازي تنامت حركة النهضة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأسس المناضلون العرب الجمعيات والأحزاب، وقوي ساعد حركة التنوير الغربية، فنادت باللامركزية وإحياء التراث الثقافي

العـربي ، ثـم بقيـام الـدولة العلمانية ، وأخيراً نادت باستقلال البلاد العربية عن الإمـبراطـوريـة العثمانية . وتغير موقف السلطنة العثمانية من المسيحيين ومـوقفهم منهـا، ولعب المتنـورون المسيحيـون العـرب دوراً هامـاً في حركـة النهضة العربية .

الفصل السادس

عصر التنوير والنهضة

مقـدمـات النهضـة، حركـة التنوير والنهضة. البدايات: الطهطاوي، خير الـدين التـونسي، بطـرس البستـاني ـ الجيل الثاني: الأفغاني، محمد عبده، الكـواكبي ـ النهضويون السوريون: ناصيف اليازجي، فرنسيس مراش، أديب اسحق، إبراهيم اليازجي، جميل معلوف، فرح أنطون ـ الجمعيات.

إن انتساب غير المسلمين إلى الأمة . لايقل أصالة عن انتساب المسلمين أنفسهم إليها .

الإمام محمد عبده

إن هناك أمة عربية واحدة تضم مسيحيين ومسلمين على السواء، وإن المشاكل الدينية التي تنشأ بين أبناء أديان مختلفة إنما هي بالحقيقة مشاكل سياسية تثيرها اصطناعاً قوى خارجية لمصلحتها الخاصة .

نجيب عازوري

إن غايتي هي السمو بتفوق الدم العربي .

أديب إسحق

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

إبراهيم اليازجي

مقدمات النهضة :

بدأت حركة النهضة العربية في وقت مبكر من القرن التاسع عشر، وربما تعود بجذورها إلى بعيد حملة نابليون على مصر، لأن نابليون ـ ومهما كانت أهدافه ـ حمل معه شعارات الثورة الفرنسية إلى المشرق (الحرية، العدالة، المساواة)، وقد جاء في بيانه الشهير، الذي كتب بلغة عربية فصحى وبعد (باسم الله الرحمن الرحيم. . . .) أن جميع الناس (متساوون أمام الله، وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط) وتحدث باسم الشعب الفرنسي (المستند إلى مبادىء الحرية والمساواة) فأبلغ المصريين أن ساعة معاقبة المماليك قد حانت (. . . . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء حسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة) لقد أفسدوا هذا الإقليم الحسن الأحسن (وهلكوا فيه المدن العظيمة والخلجان الواسعة التي بها اشتهر. . . . لقد زال حكمهم الآن). وأضاف (أيها المصريون: لقد قيل لكم إنني جئت إلى هذا البلد للقضاء على ديانتكم، بيد أن هذا كذب صراح فلا تصدقوه. وقولوا لمن يرجفون بهذه الأراجيف إنني ما جئت إلى هنا

إلا استخلاصاً لحقوقكم من عنت المستبدين، وإنني أعبد الله العلي القدير واحترم النبي والقرآن الكريم أكثر من المماليك. وقولوا لهم أيضاً إن الناس كافة سواسية أمام الله، لا يميز بعضهم عن بعض سوى العقل والفضائل والعلوم. . . وبعون الله العلي القدير، سيكون بوسع كل ساكن لمصر من الآن فصاعداً شغل أرفع المناصب، وبلوغ أرقى المعالي، وسيصرف الأمور أكثرهم ثقافة وعدلاً وحكمة. وبهذا تتحسن حالة الشعب كله). وأعلن تقربه من الإسلام. وساهمت شعارات العدالة والمساواة والحرية، ونقده العنيف للمماليك ولأسلوب إدارتهم وفساد حكمهم، وسلوك جنوده العصري خلال اتصالهم بالسكان، مساهمة هامة في انطلاقة حركة النهضة العربية التي كانت تعتمل في أعماق المجتمع. وتشهد الحقائق بوجود أناس في الإمبراطورية العثمانية أمعنوا النظر في المغزى السياسي للتيارات الجديدة في الفكر الأوروبي، ونظروا نظرة صائبة إلى أفكار التنوير الفرنسي بوصفها الأساس النظري للثورة الفرنسية، فضلاً عن أن عدوى تقليد السلوك الأوروبي واقتباس العادات الأوروبية أخذت تسري في المجتمع المصري، حتى أن البطريرك القبطي مرقس الثامن ندد في إحدى رسائله الرعوية بعد جلاء الجيش الفرنسي، بمن تعلموا (عادات الأمم الغربية ولازموا مباشرة فاعلي الشر) (أبو سيف يوسف ١٠١). وشعر السلطان سليم الثالث بتأثيرات أفكار الثورة الفرنسية، فأصدر (فرماناً) موجهاً إلى المصريين قال فيه إن الفرنسيين لا يؤمنون بالنبي، وهم يهزأون بكافة الأديان، ويتنكرون للإيمان بالحياة الآخرة، حيث يلقى الإنسان جزاءه ثواباً أم عقاباً، وهم يعتقدون أن الصدفة العمياء وحدها هي التي تقرر الحياة والموت، وأن أرواح الناس شيء مادي، فبعد أن يوسد جسم الإنسان الثرى، فلن يكون ثمة بعث ولن يكون ثمة حساب. . . . وهم يعتبرون الكتب المقدسة كذباً

وغشاً: فالقرآن والعهد القديم والإنجيل بالنسبة لهم حكايات، وموسى وعيسى ومحمد في رأيهم مجرد بشر، وهم يرون أنه ما دام الناس يولدون سواسية، فمن الجور إقامة أية تفرقة بينهم، وأن كل إنسان حر في أن يكون له رأيه الخاص. . . . وعلى أساس هذه المعتقدات الباطلة وضعوا مبادىء وقوانين جديدة. . .

كان غزو نابليون أول غزو مباشر من قوى أوروبية لمصر في العصور الحديثة. حمل معه أفكاراً سياسية وفلسفية جديدة، ومفاهيم معاصرة عن الدولة وسلطاتها وتمثيلها للشعب، وعن سوء الاستبداد ومخاطره، كما حمل معه المطبعة بحروف عربية ولاتينية، وأصدر الصحف، وافتتح المدارس الحديثة التي تهتم بمختلف أنواع العلوم، ورافقه حملة من العلماء والباحثين والدارسين في مختلف أنواع العلوم، في التاريخ والجغرافية والآثار والعلوم الإنسانية الأخرى. ورغم مقاومة المصريين (مسلمين وأقباطاً) للحملة الفرنسية، واصطدامهم بجيش نابوليون في أمبابه، حيث تصدى له (إثنا عشر ألفاً من الأهالي، فيهم كثير من الفلاحين والعرب والقبط، وقد سجن المسيحيون في القلعة مع المسلمين) (أبو سيف يوسف ١٠٢). فإن التأثيرات السياسية والثقافية والفكرية للحملة فعلت فعلها بالمجتمع المصري، وكانت أساساً للإصلاحات الهامة التي نفذها محمد علي باشا فيها بعد.

عندما حكم محمد علي باشا مصر، كان تحديث الدولة من أهدافه الأساسية، ورأى أن قاعدة هذا التحديث هي تحقيق المساواة بين المواطنين على أساس الانتماء للوطن وليس للمذهب الديني، ولذلك ألغى الأعباء الإضافية التي كانت مفروضة على غير المسلمين. وتشدد ابنه إبراهيم في إلغائها بعد حكمه سورية، وكان صارماً بذلك وواجه بحزم احتجاجات المتزمتين.

حاول محمد علي باشا وابنه إبراهيم، وربما خدمة لهدفهما في بناء إمبراطورية كبرى في مصر وسورية والحجاز، إحياء فكرة الانتماء العربي والثقافة العربية، فرأيا أن حدود دولة محمد علي هي كل بقعة (يتكلم الناس فيها باللسان العربي) (عماد عبد السلام رؤوف ١٠٦). وكان هدفه على حد تعبير سفراء بعض الدول الأوروبية هو (بناء إمبراطورية عربية) وقصده حسب قول بالمرستون (تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب) وكان إبراهيم يتحدث بصراحة عن بعث القومية العربية وعن توحيد كل الناطقين بالعربية تحت سلطة واحدة، وعن إتاحة كل المناصب الحكومية في البلاد وتوفير كل الرتب في الجيش للعرب، وتقاسمهم لإيرادات الدولة ولوظائف السلطة التنفيذية في آن واحد (ليفين ٢٩). وقد ذكر البارون بوالكونت المبعوث الفرنسي لدى إبراهيم أن هذا لا يخفي نيته في إحياء الوعي القومي العربي وتجديد الأمة العربية، وغرس شعور الوطنية الحقيقي في العرب، والتعاون معهم إلى أقصى حد في حكم الإمبراطورية القادمة. . . . وقد روج إبراهيم بنشاط لأفكار البعث القومي، وكثيراً ما ذكر في نداءاته بماضي الشعب العربي التاريخي المجيد وأثر بحماسه في الجنود (نفسه ٢٩). وهكذا فرغم أن أسرة محمد علي غير عربية الأصل، إلا أنها أدركت أن بناء إمبراطورية عربية، يقتضي التمسك بالثقافة العربية، وإحياء الشعور القومي العربي، فضلاً عن التأكيد على المساواة بين جميع الأديان والمذاهب، وتحديث الدولة، وهذا ماعملت الأسرة به فعلاً. فضلاً عن إنشاء محمد علي المدارس المهنية، وإيفاد الطلاب للتعلم في أوروبا، وترجمتهم المؤلفات العلمية بعد عودتهم، وتأسيس مطبعة في مصر، واستعانته بمدرسين إيطاليين ثم فرنسيين.

أدرك المنورون رجال النهضة منذ البدء الواقع المتردي للإمبراطورية

العثمانية، المتمثل بالحكم المطلق والاستبداد، والفساد السياسي، واستغلال الـدين الحنيف، وتخلف العلم والاقتصـاد والمجتمـع، وسيطرة الجهل، فقد كانت معرفة القراءة والكتابة في الريف السوري في النصف الثاني من القرن التـاسـع عشـر ظاهـرة شبـه معـدومـة، وحتى بين سكـان المدن فإن الملمين بالقراءة والكتابة كانوا ندرة كما قال بيركنغايم، وتتضمن رسالة بلا إمضاء، نشـرتهـا مجلة (المنـار) القـاهـريـة، وصفـاً لاذعاً، وإن كان مبالغاً فيه بعض الشيء، لحيـاة المجتمـع السـوري الثقافية، التي تنطبق على حياة المجتمع الســوري في منتصف القـــرن المـاضي (وإن كان تاريخهـا في مطلع القـرن العشـرين) جاء فيهـا بوجـه خاص (إن عنـدنـا علماء، لكنهم جهــلاء ومـتـعـجـرفـون، يخدعــون بعضهم البعض ويـرمـون بعضهم البعض بالغباء. . . . ويكمن علمهم في تصريف فعل واحد: أنا آكل، هو يأكل، نحن نأكـل!!!. وتـرديـد فكـرة واحـدة: آه لو أوتيت قنطـاراً من الذهب، لأديت فريضـة الحـج. ويكمن علمهم في السعي إلى المستحيل وطلب مالا سبيل إلى بلوغه. . . . . وفي تدقيق عدد الزيجات المسموح به وتوضيح ما إذا كان من الجـائـز الـزواج من حبلى رأفـة بها. . . . وشبيبتنـا ـ معقـد آمالنا ـ وزهـرة حيـاتنـا، ولا ننـوي الحـديث عن الـذين يدرسون منهم في المدارس الدينية، وإنما ننوي الحديث عن الآخرين، لأنهم بالتحديد الذين عنيتهم، إنهم قلة، ومع ذلك لايتلقون تربية سوية، إن لم نقل إنهم لايتلقون أية تربية على الإطـلاق. فهـم لايتعلمــون أي شيء من شأنــه أن يحفـز الفكـــر أبـداً. . . . ولا يتلقـون غير قشـور فارغـة: إذ يتعلمـون اللغـات الأجنبيـة ومبادىء الجغرافيا والطبيعة والرياضيات، وكل مالا يخرج عن إطار المعارف التي يحصل عليها تلاميذ المدارس الابتدائية في البلدان المتمدينة. . . . ترى ما جدوى محاولة إصلاح الشعب، الذي ينتظر مجيء الوحش. . . . والمسيح

الدجال والمهدي وطلوع الشمس من الغرب) (المنار مجلد ٦ عن ليفين ٥٠).
وكان تعليم المسلمين السوريين يقتصر على دراسة اللغة العربية. . . . وفيما خلا القرآن وتفاسيره. . . . لا يتسنى لأحد الوقوف على آثار الأداب القديمة، ولا يتذكرها أحد. ويمكن القول إنها معدومة في سورية كما قال بازيلي الذي عاش في بيروت في منتصف القرن الماضي قنصلاً لروسيا.
وكان المتنورون يلاحظون أيضاً النتائج السلبية للتمسك بالعادات والتقاليد البالية، وتوصلوا إلى ضرورة شجب الاستبداد السياسي، ونمت لديهم النزعة الدستورية والنزعة البرلمانية، وآمنوا بضرورة الإصلاح الديني، ومحاربة طغيان رجال الدين، ونبذ التعصب الديني وإزالة التفرقة الدينية بين أبناء الشعب تمهيداً لتوحيده، وقد ساعد على انتشار حركة التنوير والنهضة، إضافة للحملة الفرنسية وإجراءات محمد علي، بدء انتشار التعليم نسبياً خارج الكتاتيب في النصف الثاني من القرن الماضي، وتبني المدارس غير الرسمية اللغة العربية، واحتضان مناهجها للعلوم الأخرى إضافة للعلوم الدينية، وقد يكون ذلك بسبب الرغبة في التحديث، أو بسبب الظروف الموضوعية التي اقتضت هذا التحديث، أو تقليداً لمدارس الإرساليات الأجنبية التي كانت قد بدأت انتشارها منذ مطلع القرن كمدارس حديثة، وقبل ذلك بقرنين كمعاهد تابعة للأديرة. ففي أوائل القرن الثامن عشر، نهض عدد من المسيحيين في حلب للتعمق في علوم اللغة العربية على يد الفئة الوحيدة التي كانت تملك ناصيتها يومذاك، أعني مشايخ الدين الإسلامي. وقد كتب بعضهم الشعر والنثر الصحيحين بشغف. ومنهم امتدت شعلة الأدب العربي إلى لبنان، وكان الذين يرغبون في التوظف يدرسون اللغة العربية بحماس كجزء من إعدادهم المهني، وكانوا ينقلون إلى أولادهم ماقد تعلموه. وهكذا نشأت أسر بكاملها من رجال الأدب،

وقد خرج من هذه الأسر، كآل اليازجي والشدياق والبستاني، مؤسسو نهضة العرب الأدبية في أوائل القرن التاسع عشر (البرت حوراني ٧٨). كما ساعد على نمو حركة التنوير دخول المطابع إلى سورية، ونمو حركة الطباعة والترجمة والتأليف والنشر وإنشاء الصحف. ولاشك أن نشاط الإرساليات الأجنبية،كان يخدم سياسة الدول الغربية الطامعة بالشرق وبتركة (الرجل المريض)، إلا أنها لعبت في آن واحد دورين متناقضين، أحدهما سلبي تجلى في التوجه الأوروبي نحو المنطقة العربية، ووضع قسم منها تحت حكم أوروبا المباشر، كما كانت الحال في المغرب العربي، والآخر إيجابي تجلى في المدارس التي أسستها البعثات التبشيرية الأمريكية والأوروبية في ديار العرب، وفي إدخال المطبعة العربية إلى الشرق، وإدخال فكرة الصحافة التي خرج بعضها عن أهميته الإقليمية، وفي نشاط التأليف والطبع والتوزيع، وفي نقل بعض روائع القصص والتراث الغربي، وكذلك في الترجمات التي كانت تنشر في الصحف والمجلات كالجنة والجنان. (فاروق صالح العمر ١٣٧). إضافة إلى ذلك جرت تغيرات عميقة في حياة سورية ومصر الاقتصادية والاجتماعية إذ كان من شأن جر هذين البلدين إلى نطاق السوق الرأسمالية العالمية، وتطور وسائل الاتصال والإعلام، وتدويل الإنتاج والاستهلاك، أن تقوضت عزلتهما الاقتصادية والثقافية، فازدادت قدرة الإنتاج الزراعي الإنتاجية على التسويق، وتطورت العلاقة السلعية - النقدية، والأسواق الداخلية. واستولت روح التجارة تدريجياً على كافة فئات السكان. واكتسبت التجارة بشكل متزايد طابعاً شبه استعماري مميزاً، واتسعت عمليات التصدير والاستيراد، فدخلت سورية ومصر طريق التطور الرأسمالي، وليس من قبيل المصادفة أن سورية ومصر على وجه التحديد أصبحتا أيضاً أول مركزين للتنوير العربي (ليفين ٤٦).

حركة التنوير والنهضة، البدايات:

زاد عدد المتعلمين من أبناء الطبقة الوسطى والطبقة العليا في سورية ومصر، وساهموا في التجارة والسياحة، وتعرفوا على أوروبا وعلى مبادىء الحرية والعدالة والمساواة، واحترام القانون، وأصول التشريع، وفصل الدين عن الدولة، مما جعلهم ينظرون إلى مجتمعاتهم بمنظار آخر، ويطمحون لتحديثها وتطويرها، ومثالاً على ذلك ماقاله محمود سامي البارودي فيما بعد (كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا، وعندئذ كانت تنضم إلينا سورية، ويليها الحجاز، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم) (عماد عبد السلام رؤوف ١١٧).

عمل المنورون العرب في إطار محورين متكاملين:

الأول: الدعوة إلى العودة إلى منابع الدين الإسلامي، وإزالة ماعلق به من قشور خلال أكثر من ألف عام (إصلاح الدين ومحاربة الفساد) وقراءته قراءة جديدة تستوعب معطيات العصر ومستجداته وظروفه، بدأها رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وأتمها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي. وكانت تحاول إضافة إلى دعوتها للإصلاح الديني، نقد الاستبداد العثماني، والعمل للامركزية، بل والدعوة لمنح السلطة الروحية لحكام الحجاز والسلطة الزمنية لحكام مصر.

والثاني: الدعوة للمساواة بين أتباع المذاهب الدينية، واعتبار الرابطة القومية هي الرابطة الأساس، ومعيار المواطنة، وفصل الدين عن الدولة،

وإحيـاء اللغـة العـربيـة والثقافة العربية، والعمل من أجل احترام الدستور والمؤسسـات التشـريعيـة، والمناداة باللامركزية والحكم الذاتي، ثم فيما بعد بالانفصـال عن الإمـبراطـورية العثمانية، وقد نهض بهذا التيار أساساً كتاب وسيـاسيـون عرب مسيحيـون، متأثرين بما تعلموه في مدارس الإرساليات، وفي جامعـات أوروبـا، وخـاصـة ما يتعلق منه بالاستقلال والحرية والمساواة ونهوض الحركات القومية.

كان للتطور الاقتصادي والاجتماعي في الإمبراطورية العثمانية (مركزاً وولايات)، والصلة مع الأوروبيين وخاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر، وإرسال محمد علي باشا بعثات دراسية إلى أوروبا وبدء محاولاته تحديث مصر مستفيداً من تطور أوروبا وأفكارها العلمية والاقتصادية والحضارية، والنفوذ الأوروبي في بلدان المغرب العربي، والوجود الأوروبي في سورية سواء على شكـل نفـوذ سياسي أم وجود اقتصادي أم نشاط إرساليات ثقافية وتعليمية، كان لهذا كله تأثـير كبـير على تفكير الناس ووعيهم في أرجاء الإمبراطورية العثـمانيـة، وقـد اهتم المتنـورون المنـورون الأوائـل بحال بلادهم، وفكروا بشؤونهـا، وتـوصلوا إلى استنتـاجات هامة اعتبروها أساساً لإصلاح البلاد وتطـويـرهـا، ومـا لبثت أفكـارهم تتطـور وتغتني حتى توصلوا إلى مايشبـه الإيـديـولوجية والبرنامج السياسي. لقد بدأ المتنورون في النصف الأول من القـرن التـاسـع عشـر بالمطـالبة بإصلاح الدين ومحاربة الاستبداد والفساد، وانتهوا مع نهاية القرن بالدعوة إلى القومية العربية والمطالبة بالاستقلال عن جسم الدولة العثمانية.

ولـد رفـاعـه **الطهطـاوي** (١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) في أسرة تهتم بالعلم، وتلقى تدريسـه في بلده طهطـا ثم في الجـامـع الأزهر الذي تخرج منه، وعين مدرسـاً فيـه، ثم وبـواسطـة أستاذه حسن العطار عين واعظاً في إحدى فرق

الجيش المصـري ، ثم عين إمـاماً لأول بعثة طلابية مصرية أرسلها محمد علي باشا إلى باريس . ورغم أن الطهطاوي كان إماماً للبعثة لا طالباً فيها ، فقد استفـاد من وجـوده هنـاك فتعلم الفـرنسيـة ، كما اطلع على العلوم الأخرى كالفلسفـة والمنطق والتـاريـخ والجغرافية والرياضيات وغيرها . وعلى ابداع الكتاب الفرنسيين ، وأفكار الثورة الفرنسية ، وخاصة أعمال فولتير وروسو ومونتسكيو .

عين الطهطاوي بعد عودته إلى القاهرة رئيساً لمدرسة اللغات ، وكلف مفتشـاً للمـدارس ، ورئيسـاً لتحرير جريدة (الوقائع المصرية) وهي الجريدة الـرسميـة ، ومسؤولاً عن عمليـات الترجمة إلى اللغة العربية ، حيث أمكن ترجمة عشرات الكتب وطبعها ونشرها ، في مختلف المواضيع العلمية والتاريخية والجغرافية والأدبية وسير رجال السياسة والفكر المشهورين في العالم ، وشجع الطهطاوي مطبعة بولاق لتقوم بطبع الآثار العربية وقدم لها الدعم .

ألف الطهطاوي عدة كتب ضمنها أفكاره وآراءه ، وأهم مافيها الدعوة إلى تغيير الشرائع حسب تغير الأحوال (من صلح في مكان وزمان لا يصلح لغيرهما) ، وبـالتـالي على الشـرائـع أن تستوعب الظروف المستجدة في كل مجتمع ، وأن تتطور حسب الحاجة ، وعلى مفسري الشريعة أن يلموا بالعلوم الحـديثـة ، ويستفيـدوا منهـا لأقصى درجات الاستفادة ، ليستطيعوا التفسير والتأويـل . ورأى الطهطـاوي في المجـال السيـاسي أن قيـام الدولة وانهيارها يخضـع لأسبـاب موضـوعيـة ولا يرتبـط بالصـدفة أو بالقدر . ونادى بضرورة إشـراك الشعب في عمليـة الحكم بشكـل من الأشكال ، وطالب بوضع عقد يتضمن حقـوق وواجبـات كل من الحـاكم والمحكوم . وكان من المتحمسين لنقـل العلوم والثقـافة الأوروبية واطلاع المصريين عليها . وطالب بالاقتباس من العلوم الأوروبيـة ومـارس ذلـك فعـلاً ، بكتـابتـه عن المجتمع الفرنسي

(إصلاح الإبريز في أخبار باريز)، وإشرافه على ترجمة الفكر الأوروبي والعلوم والآداب الأوروبية.

أدرك خير الدين التونسي (١٨١٠ ـ ١٨٩٠ م) ما أدركه الطهطاوي، ونادى بما نادى به، من خلال ظروفه المختلفة في المكان (تونس) والظروف (كان التونسي سياسياً)، فقد كانت تونس في نهايات النصف الأول من القرن التاسع عشر ذات استقلال شبه ذاتي عن الإمبراطورية العثمانية، وتدفع للسلطان ضريبة سنوية، كما كانت في الوقت نفسه على صلات مع الأوروبيين الذين لهم مطامع كبيرة بها وبالمغرب العربي عامة. وأثرت هذه الصلات مع الأوروبيين تأثيراً كبيراً في حياة (الدولة) والمجتمع في تونس، فانتشرت المدارس العصرية وتعلم عديدون اللغات الأوروبية وخاصة الإيطالية والفرنسية. وبعد بدء الإصلاحات العثمانية في النصف الأول من القرن (خط كولخانة ١٨٣٩ م وخط همايون ١٨٥٦ م)، أصدر باي تونس ما سماه (عهد الأمان) عام ١٨٥٧ م، أي بعد عام واحد من صدور خط شريف همايون، قرر فيه منح الحرية والأمان لجميع المواطنين، وتطبيق مبادىء العدل والمساواة بين المسلمين والمسيحيين، بل وبين أهل البلاد والأجانب، وأعطى للأجانب حقوق التونسيين في التملك والتجارة.

تلقى خير الدين التونسي تربية دينية وعصرية في آن واحد، وتعلم الفرنسية إضافة للعربية، ودخل الجيش فترقى وأصبح مديراً للمدرسة العسكرية، وأوفد إلى باريس لحل مشكلة خلاف بين أحد الوزراء وحكومة الباي، وبقي هناك أربع سنوات، حيث اطلع على الفكر الأوروبي والتطور والتقدم في أوروبا في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية. ولما عاد إلى تونس عين وزيراً للحربية، كما عين عضواً

في لجنة وضع (القانون الأساسي) أي الدستور، الذي صدر عام ١٨٦٠ م، وكان أول دستور في بلد مسلم. ثم عين التونسي فيها بعد رئيساً لمجلس الشورى، وتقلد عدة مناصب وزارية، وأخيراً كلف بتشكيل الوزارة عام ١٨٧٣ م.

ألف خير الدين التونسي كتاباً أسماه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك)، صدر عام ١٨٦٧ م في تونس، وترجم فيها بعد إلى التركية والفرنسية. وقد عبر هذا الكتاب عن أفكار خير الدين التونسي وآرائه المتمثلة بالدعوة لاقتباس أفكار الأوروبيين وعلومهم وأسباب تقدمهم الاقتصادي والعلمي والحضاري، واعتبار ذلك متوافقاً مع الشريعة الإسلامية وملبياً مطالبها، وأكد على ضرورة تجديد الشريعة لتستجيب للمستجدات وهي قادرة على ذلك. وطالب بتطبيق مبدأ الشورى في الحكم وسياسة الدولة، وطالب بتقييد سلطة الحاكم من خلال مبدأ المشورة، واعتبر العدل هو الأساس السليم للحكم، وفي ضوء ذلك طالب بوجود وزارات مسؤولة أمام برلمانات أو أمام جهات تمثيلية شعبية، ونادى بمنح حرية واسعة للصحافة.

حاول خير الدين التونسي، خلال ممارسته مهماته كوزير أو رئيس وزراء، أن يحقق أمرين في آن واحد: مقاومة النفوذ الأوروبي من جهة، وتقييد صلاحيات الباي، وتحويل الدولة إلى دولة مؤسسات من جهة أخرى، لكنه فشل في المهمتين، فاستقال من رئاسة الوزراء. ثم انتقل إلى الأستانة حيث عين فيها بعد (١٨٧٨ م) صدراً أعظم (أي رئيساً للوزراء في السلطنة العثمانية)، وكان قبلها شارك في وضع أول دستور للسلطنة عام ١٨٧٦ م. إلا أنه هنا أيضاً لم يستطع تطبيق أفكاره مع أنه الصدر الأعظم، أو تحقيق الإصلاح المنشود، بسبب تمسك السلطان بحكمه المطلق

وصـلاحيـاتـه المطلقة، ورفضه التخلي عن بعضها، أو قبوله قيام مؤسسات دستـوريـة وتمثيليـة في الـدولـة، أو القبـول بمبادىء الدستور وتحقيق العدل والمســاواة، فاضطـر خير الـدين التـونسي إلى الاستقـالـة عام ١٨٧٩ م، واعتزل العمل السياسي.

هكـذا بدأ المنـورون في مصر والمغرب العربي، أما في سورية (والمعني هنا سورية الطبيعية) فقد كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقـافيـة مختلفـة جزئياً عما هي في شمال إفريقيا العربية. وذلك بسبب تبعية سوريـة المبـاشـرة للسلطنـة العثمانية، ووجود عدد كبير نسبياً من سكانها من المسيحيـين، وتطـور التجارة فيها تطوراً كبيراً، وانطلاق نهضتها الاقتصادية انطلاقة متسارعة، وانتشار مدارس الإرساليات منذ زمن، ووجود عدد كبير من المتعلمـين والمثقفـين من العرب المسيحيين الذين تلقوا علومهم في الأديرة أو في مدارس الإرسـاليـات أو في المـدارس الخـاصة، هذا إضافة إلى مزاعم الحـمايـة الأوروبيـة وممارساتها، وتأثيرات إصلاحات محمد علي وسياسة ابنه إبـراهيم خلال وجـوده في سورية. **وقد ساهم العرب المسيحيون في سورية بالنشـاط التنـويـري منـذ البـدايات**، وكان لهم الدور الأهـم فيه. وكان من أوائل هؤلاء بطرس البستاني وابنه سليم.

كان **بطـرس** البستـاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣ م) مارونيـاً، وتربى في أحد الأديرة المارونية، ثم اشتغل في القنصليتين البريطانية والأمريكية، وأدت به صلتــه بالإنجيليـين ليتحـول إلى الـبروتستـانتيـة، وقـد ساعـد المـرسلين الأمريكان على ترجمة التوراة عام ١٨٦٣ م.

كان البستـاني من المتنـورين الـذين يفتخـرون بالحضـارة العـربيـة، ويؤمنـون بعـروبـة جميـع النـاطقـين باللغة العربية مسلمين ومسيحيين (ألا تشربون كلكم نفس الماء، ألا تتنفسون كلكم نفس الهواء)، وكثيراً ما كان

يتكلم باعتزاز عن دمه العربي ، مع أنه كان دائماً يعتبر نفسه من (الرعايا) العثمانيين في تبعيته للدولة .

نادى البستاني في ذلك الوقت المبكر بالوحدة الوطنية ، وكتب كثيراً عن أهميتها وأهمية الشعور الوطني ، ووضع شعاراً لمجلة (الجنان) : حب الوطن من الإيمان ، وطالب بالمساواة بين الأديان ، وفصل الدين عن الدولة ، أي فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية ، وتبنى التربية (التعليم) العربية ونادى بالالتزام باللغة العربية (يجب أن لا تصبح سورية بابل لغات كما هي بابل أديان) ، ودعا إلى تعلم العلوم الحديثة واقتباسها عن أوروبا ونشرها ، ورأى أنه لا يمكن أن ينهض الشرق دون الاطلاع على حضارة أوروبا وعلومها . وخلاصة رأيه أن الشرق الذي كان مزدهراً في غابر الزمان قد آل إلى الانحطاط ، وسبب الانحطاط هو الحكومات الفاسدة ، ولإصلاح الحالة لابد من حكومات صالحة ، ترتكز قبل كل شيء على مراعاة مبدأ العدالة ، وعلى فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية ، وفصل السلطة القضائية والتشريعية عن السلطة التنفيذية ، وعلى تكليف ضريبي سليم ، وتنفيذ الأشغال العامة ، وإدخال التعليم الإلزامي ، مع توحيد ورص صفوف السكان الذين تفتتهم الخصومة الدينية ، وعلى أساس المشاعر الوطنية ، هذا إلى جانب أن شعوب الشرق لا تستطيع المضي في طريق الرقي السريع إلا باستعارة الثقافة الأوروبية ، التي يكمن أساسها في المعارف والعمل . (البرت حوراني ، ليفين) .

ألف البستاني (القاموس المحيط) ، وبدأ بتأليف دائرة المعارف ، وأصدر عدة أجزاء منها ، وأتم أبناؤه من بعده اصدار إثني عشر جزءاً ، وكانت أول دائرة معارف عربية تكتب حسب الأسلوب الأوروبي ، كما أنشأ صحفاً عديدة وكتب فيها . وافتتح مدرسة سماها (المدرسة الوطنية) عام

١٨٦٣ م ، أسسهـا على أسس قوميـة لا طائفيـة ، وجعـل منهـاجهـا حديثاً يعتمد تعليم العلوم الحديثة وإحياء التراث العربي واللغة العربية ، وجاء في إعلانه عن المدرسة في مجلة (الجنان) الصادرة في بيروت ، أن المدرسة ليست لأي جماعـة دينيـة ، فأبـوابهـا مفتـوحـة لجميع أبناء الوطن بصرف النظر عن الانتماء الديني ، وأنها تسعى لإحياء اللغة القومية لأن أساس التطور للإنسان لغته القومية ، وأن المدرسة تعمل لإنماء الشعور بحب الوطن والتعلق به .

كان سليم البستـاني مؤمنـاً بما آمن به والـده . فقد كتب مرة في الجنان عام ١٨٧٠ م (لقد بدأنا حديثنا بالدعوة إلى نبذ الفرقة الوطنية ونختتمه بها : فلن نبلغ الهدف المنشود دون ذلك) . كما كان مؤمناً بأن الأمة العربية سوف تستعيـد (غـداً مافقدته أمس ، عن طريق إنجاز الوحدة وبقوة الولاء للأمة ، وهو مايتماشى مع التكافل الوطني لا الديني) .

كان جمال الـدين الأفغـاني ومحمـد عبـده من أبـرز المساهمين في حركة التنـويـر في مصـر من الجيـل التـالي لجيـل الطهطـاوي ، ونظراً لظروف مصر وطبيعـة المـرحلة التـاريخيـة في النصف الثـاني من القـرن الماضي ، فقد اهتما أسـاسـاً بالإصـلاح الديني وتمجيد العقل ، والتأكيد على عدم وجود تناقض بين العلم والدين .

أمضى جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧ م) حياته متنقلاً طاف عدة بلدان (أفغـانستان ، إيران ، الهند ، الحجاز ، الأستانة ، باريس) إضافة إلى مكوثه في مصر . وكان معلماً وموجهاً لجيل من الشباب تسنى لهم فيما بعد التأثـير في مستقبـل مصـر وتطـورهـا منهم محمـد عبده وسعد زغلول ومحمود سامي البـارودي وسليم نقـاش وأديب إسحق وغيرهم . وقد شجع تلاميذه على الكتابة وعلى إصدار الصحف وتكوين الرأي العام . وعمل ضد النفوذ الأوروبي في مصر، ثم انتقل إلى إيران فعمل مستشاراً للشاه واختلف معه

لمنحه امتيازات لشركات بريطانية، وأصدر مع محمد عبده جريدة (العروة الوثقى) في باريس، التي كان لها تأثير كبير في أذهان المتنورين العرب وفي تطوير وعيهم، كما أسس في باريس جمعية بالاشتراك مع محمد عبده وآخرين. وأخيراً صار مستشاراً للسلطان، الذي أكرم وفادته دون أن يسمح له بالاتصال بالآخرين، وبقي معزولاً (معززاً مكرماً) حتى وفاته.

رأى الأفغاني أن الإسلام ليس عقيدة فحسب، وأن الغاية من أعمال الإنسان ليست خدمة الله فقط بل ازدهار الإنسانية ورفاهها وخيرها. واستنتج أن الإسلام سلاح لبلوغ أهداف سياسية واجتماعية، وعلى رأسها تحرير شعوب الشرق عامة والشعوب الإسلامية خاصة من الاضطهاد الاستعماري، وكان عدواً للتدخل الأوروبي في شؤون البلدان الإسلامية، وطالب بوحدة الشعوب الإسلامية (الجامعة الإسلامية) للوقوف بوجه الاستعمار الأوروبي، وتحدث عن استبداد الحكام وشجبه (فالاستبداد يكمن في الحكم المطلق، بينما تكمن العدالة في قوة الضوابط)، ولذلك دعا إلى تقييد سلطات الحكام وإلى ملكية دستورية وشكل من أشكال التمثيل الشعبي (البرلمانية). وطالب بملك عادل يعترف بسيادة الشريعة. ورأى أن ضعف الدولة الإسلامية نابع من الجهل، وأن الإصلاح هو في الرجوع إلى حقيقة الدين.

أما محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) تلميذ الأفغاني النجيب، فقد ولد من عائلة (علم وتقوى) في طنطا بمصر حيث درس فيها، وتابع دراسته في الأزهر وحصل منه على شهادة (العالمية). وتتلمذ خارج ذلك على يدي الأفغاني في بيته. ثم أصبح مدرساً في الأزهر وكاتباً في الصحف المصرية وخاصة (الأهرام)، كما عين رئيساً لتحرير جريدة (الوقائع المصرية). نفي إلى بيروت ومنها سافر إلى باريس وتعلم الفرنسية متأخراً، وأصدر في

باريس جريدة (العروة الوثقى) مع الأفغاني، وانتقل من باريس إلى تونس حيث درّس في جامع الزيتونة، وعاد متنكراً إلى مصر ومنها إلى بيروت حيث كانت داره مركز حوار واتصال مع المتنورين السوريين الآخرين. وعاد إلى مصر عام ١٨٨٨ م وعين قاضياً، ثم عين مفتياً للديار المصرية عام ١٨٨٩ م، فأصلح المحاكم الشرعية وإدارة الأوقاف، وأصدر عديداً من الفتاوى التي هدفت للإصلاح الديني، وانطلقت من فهم العصر ومعطياته وظروفه.

كان محمد عبده مستنير العقل، اهتم بالعقل ومجّده، ورأى أن المسلم الحقيقي هو الذي يستخدم عقله لخدمة الدين والدنيا. وكان من أهدافه الأساسية التوفيق بين الإسلام والفكر الحديث، بين التراث والعلم، ورأى أن الشرائع تتغير بتغير الأحوال والظروف، أي حسب مقتضيات الظروف والزمان والمكان. وعمل من أجل إعادة تفسير الشريعة وتأويلها لتتمكن من استيعاب مستجدات الحياة والتطور في ضوء مبادىء الإسلام الأساسية، وأكد على ضرورة تحرير الفكر وإصلاح الموقف من الدين، والتمسك بجوهر الإسلام والنظر في مقتضيات المجتمع الحديث في ضوء هذا الجوهر لا قشوره، وطالب بتحرير (الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى) (عماره ٤٧٥)، واعتبار ذلك (من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه. . . وإصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير) والتفريق بين الجوهري وغير الجوهري في الدين، وإصلاح التربية الدينية.

وفي مجال نظام الحكم، طالب محمد عبده بالتمييز (بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة) ورأى أن (الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون

وتغلبهم شهواتهم وأنه لايرده عن خطأه ولايقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل). (رشيد رضا، تاريخ محمد عبده ١٥ / ١١) وكان يؤمن أن (ليس في الإسلام سلطة دينية. . . . وأصل من أصوله: قلبها والإتيان عليها من أساسها. . . . والخليفة حاكم مدني من جميع الوجوه. . . . لكن الإسلام: دين وشرع، ولا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود، وتنفيذ الأحكام، وصون نظام الجماعة. . . .) (عمارة ٨٩). ونادى بملكية مقيدة وطالب بالعدالة، واعتبر أن الشورى تعني الديموقراطية والبرلمانية، كما اعتبر أن الاجماع يعني الرأي العام. وطالب بالاقتباس من علوم أوروبا وفكرها وتطورها، وبإعادة تفسير الشريعة لتساعد على هذا الاقتباس، كما نادى بالمساواة أمام القانون للمسيحيين القاطنين في البلدان الإسلامية. وقد كان يؤمن بالتاريخ المشترك والمصير المشترك لأبناء الوطن الواحد مهما اختلفت دياناتهم، وأن أقوى نوع من أنواع الوحدة إنما هو وحدة الذين ينتمون إلى البلد الواحد، أي ذلك المكان الذي لايعيشون فيه فحسب، بل يجدون فيه أيضاً مجالاً لممارسة حقوقهم وواجباتهم العامة وموضوعاً لمحبتهم وعزتهم. وأن انتساب غير المسلمين إلى الأمة لايقل أصالة عن انتساب المسلمين أنفسهم إليها، وأكد على ضرورة قيام علاقات طيبة بين أبناء الأديان كلها.

كانت الظروف العامة في سورية تختلف عن ظروف مصر، وباستثناء عبد الرحمن الكواكبي كان معظم النهضويين من العرب المسيحيين لأسباب أشرت إليها قبلاً، وطالب هؤلاء صراحة بفصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية، ونادوا بالتفاف الجميع حول فكرة القومية العربية، وبتحديث الدولة، وبتحويل النظام السياسي المطلق إلى نظام دستوري، وبإقامة المؤسسات التمثيلية (البرلمانية)، وبنشر الثقافة العربية، وهم وإن

بدأوا بطـرح شعـارات الـلامـركـزية والحكم الذاتي فقد وصلوا إلى المطالبة باستقلال البلدان العربية عن جسم الإمبراطورية العثمانية.

ولـد عبـد الـرحمن الكـواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢ م) في مدينـة حلب، وتلقى علومه فيها، وشغل عدة مناصب إدارية هامة، ثم عمل بالصحافة في صحيفتي (الشهباء والاعتدال)، وحوكم بسبب آرائه المعادية للحكم العثماني الاستبدادي، وهاجر إلى مصر.

أصدر الكواكبي كتابين هما (طبائع الاستبداد) و(أم القرى)، ضمنهما آراءه المتمثلة بضـرورة الإصـلاح الشـامـل والتحـرر السيـاسي، والتطهـر الديني، وإحياء الإسلام والتمسك بجوهره، ومحاربة البدع والتقاليد البالية، والتعصب الطـائفي. ونـادى الكواكبي بالتسامح الديني (ياقوم، وأعني بكم النـاطقـين بالضـاد من غير المسلمـين، أدعـوكم إلى تنـاسي الإسـاءات والأحقـاد، ومـا جنـاه الآبـاء والأجـداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين. وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد).

(ياقوم، وأريد بكم شباب اليوم، رجال الغد، شباب الفكر، ورجال الجـد، أعيـذكم من الخزي والخذلان بتفرقة الأديان، وأعيذكم من الجهل، جهل أن الدينونة لله، وهو سبحانه ولي السرائر والضمائر (ولو شاء ربك لجعل النـاس أمـة واحـدة). (الأعـمال الكـاملة ٢١٠). ونـاضـل ضد الطغيـان والاستبـداد، وطـالب بنشـر التعليم وتنوير الناس. كما طالب بتطبيق قوانين واحـدة على الجميـع، تستنـد إلى مبادىء العقلانية والعدالة الواعية، وقال بتـدبـير شؤون الجـماعة بما يتماشى مع العقل (إن الناظر في القرآن حق النظر يرى أنه لايكلف الإنسان قط بالإذعان لشيء فوق العقل، بل يحذره وينهاه عن الإيـمان اتبـاعـاً لرأي الغـير أوتقليـداً للآبـاء..) (الكواكبي، الأعمال الكـاملة ٢٠١)، وكـان نصـيراً للوطن داعيـاً لحب الـوطن وللنـزعة القومية

العربية، وميز مصالح العرب عن مصالح المجموعات الإسلامية الأخرى في السلطنة العثمانية. ونادى بسيادة الشعب، وحكم الشعب بطريق التمثيل، وانتقد الاستبداد انتقاداً حاداً، وعبر عن إيمانه بملكية مقيدة، وكان صاحب نزعة دستورية ونزعة برلمانية، معادياً للاستعمار الأوروبي والنفوذ الأوروبي، مطالباً بالاستفادة من منجزات الحضارة الأوروبية. ويمكن تلخيص آراء الكواكبي في أهداف ثلاثة:

إصلاح الدين وتحقيق عمل تنويري تربوي وتنفيذ إصلاحات سياسية واجتماعية.

النهضويون السويون:

كان **ناصيف اليازجي** (١٨٠٠ - ١٨٧١ م) من أوائل النهضويين المتنورين في سورية، وكان متحمساً للغة العربية والأدب العربي، تعلم العربية وأحبها وقام بتدريسها، دافع عنها، وكتب في النحو والبلاغة والعروض وفنون الأدب الأخرى. وأظهر خطأ القول الذي كان سائداً (بأن العربية لا تتنصر). وأثبت أن بإمكان العرب المسيحيين أن يساهموا في النهضة الثقافية والأدبية العربية، وطالب كل عربي مهما كان دينه أن يعمل من أجل تراث ثقافي مشترك للعرب، وساهم فعلاً في بعث اللغة العربية، التي أصبحت فيما بعد وسيلة أساسية من وسائل النهضة العربية. وقد اقتصر دوره على هذا الجانب غير السياسي.

أما **فرنسيس مراش** (١٨٣٦ - ١٨٧٣ م)، الذي درس في حلب، وتابع دراسة الطب في فرنسا، فقد نادى بنشر التعليم وتنوير الأذهان، وتغيير العادات والتقاليد البالية، وأكد على أهمية المحبة والتعاون بين مختلف فئات

الشعب، وتحزب للعقل، ونادى بالعدالة والحرية والمساواة، وروج لأفكار الثورة الفرنسية، ومحاربة الاستبداد والاستعباد، وطالب بسريان القوانين بالدرجة نفسها على جميع المواطنين، وبتكافؤ الفرص بين الناس.

ولد أديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٤ م) في دمشق، وتعلم العربية والفرنسية في مدرسة العازاريين، ثم تعلم التركية وترك المدرسة وعمل موظفاً، وانتقل الى بيروت عام ١٨٧١ م ثم إلى مصر عام ١٨٧٦ م. وعمل هناك في المسرح مع سليم نقاش لمدة سنة في الاسكندرية، وانتقل بعدها إلى القاهرة، وتعرف على جمال الدين الأفغاني وانضم إلى حلقته. وأصدر مجلة (مصر) وصحيفة (التجارة) اللتين الغيتا بقرار رسمي لأنهما صحيفتان تنويريتان. وسافر بعد ذلك إلى باريس وأصدر مجلة (مصر) هناك، وعاد إلى مصر عام ١٨٨١ م وعين ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بديوان المعارف. وعاد وأصدر مجلة (مصر) في القاهرة، وساند ثورة عرابي فعطلت المجلة. ثم انتقل إلى بيروت وعمل في صحيفة التقدم.

كان أديب إسحق مناضلاً من أجل الحرية ومدافعاً عن الدستور وحقوق الشعب، وترددت في كتاباته كثيراً كلمات الحرية والمساواة والوطن وحرية الفكر والأمة، عارض الاستعمار والتدخل الأجنبي (من كل الجهات تمتد أيدي الأجانب إلى الشرق) ودعا إلى مقاومة هذا التدخل، حتى لو كان ذلك بالالتفاف حول الدولة العثمانية، كما دعا إلى الوحدة العربية وطرح مبدأها بحرارة، ونادى بالمساواة والعدالة، التي رآها غير ممكنة إلا بالشعب ممثلاً بنوابه وبوجود قوانين، وبالمساواة أمام القانون وبتكافؤ الفرص، وبالحقوق والواجبات على الجميع. ورأى أن الملكية الدستورية هي أفضل أشكال الحكم بالنسبة للدولة العثمانية (إن غايتي المنشودة هي أن أرى حكومة عثمانية دستورية برلمانية) ومن الضروري لسكان الشرق (أن

يفيقــوا من سبــات الجهــل ، وأن ينـزعـوا عنهم التقــاليـد البــالية التي تمزق صفـوفهم ، وأن يلقنـوا الشبيبـة أفكـار الحـريـة والوطنية وإلا صاروا عبيداً) والعبـوديـة (بـوصفهـا نتيجـة للقهر من جانب المستعبدين هي نهب وانتهاك لأقـدس حقـوق الحيـاة) إن غايتي (هي السمـو بتفـوق الدم العربي . . . . وإذكـاء الحـماس في قلوب العـارفـين ، حتى يقف شعبي على الحقـوق التي سلبت منـه ويسـترجعهـا ويستعيـد ما هوله . . . .) ودعا أديب إسحق إلى قيـام (نفـر من أولي العـزم تبعثهم الغـيرة والحميـة على جمع الكلمة العربية فيتـلافـون أحوالها قبل التلف ، متظاهرين متوازرين كالبنيان المرصوص ، أو كصخـور تلاحمت فصـار ركـامهـا جبـلاً حصينـاً لا تؤثـر فيه العواصف ولا تضعضعه الزلازل) (عماد عبد السلام ١٢٢) .

أما إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦ م) فكان شاعراً وأديباً ومفكراً قومياً عربياً ، ولد في بيروت وتعلم العربية على يد أبيه ناصيف اليازجي ونبغ فيها ، كتب في مجلة (الجنان) ثم أصبح رئيس تحرير جريدة (النجاح) . وقام بتعـريب التـوراة للآبـاء اليسـوعيين . وهاجر إلى مصر عام ١٨٩٤ م وأنشأ مطبعـة البيـان ثم أصـدر مجلة البيان ثم مجلة الضياء عام ١٨٩٨ م . وأسس جمعية سرية في بيروت مع مناضلين مسلمين نشيطين ، وكان هدف الجمعية العمل للوحدة العربية ، كما كانت من أهم الجمعيات العربية .

ألقى قصيــدة في أحــد اجتــماعــات الجمعيـة ، مالبثت أن طبعت وألصقت على جدران أبنيـة بيروت دون ذكـر اسم الشاعر ، وقامت السلطة بتمزيقها ، وكان مطلع هذه القصيدة :

تنـبـهــوا واسـتـفـيـقــوا أيهــا الـعــرب
فقــد طمى الخطب حتى غاصت الــركب

وكـانت اجتماعـات الجمعيـة تخصص غالبـاً للتحـدث عن عظمـة العرب، وإلقاء القصائد الشعرية، والتنديد بمظالم الأتراك.

طالب جميـل معلوف (١٨٧٩ ـ ١٩٥١ م) بتقييـد سلطـة السلطـان العثماني، وكـان من أنصـار حزب تركيـا الفتـاة، ونادى باللامركزية والحكم الـذاتي للبلدان العـربيـة، وبـالإصـلاح الدستوري في السلطنة العثمانية، وكـان معـاديـاً للتـدخـل الأوروبي في شؤون السلطنـة. كما طالب بفصـل السلطـة الـروحيـة عن السلطـة الزمنية، وترجم إلى العربية (اعلان حقوق الإنسان) الذي أصدرته الثورة الفرنسية، واعتبره (أساساً للقوانين السياسية العـادلـة في كافـة البلدان المتطـورة) ومن لايستجيب له ولا يعمـل من أجله (لانفع فيه ويعارض الطبيعة).

لعـل فرح أنطـون (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢ م) هومن أهم النهضـويـين السـوريـين. ولـد في طرابلس بلبنان ونزح إلى مصر عام ١٨٩٧ م، وعاش بين مصـر ونيـويـورك، وكـان محرراً لعدة صحف. وترجم إلى العربية عدداً كبيراً من المؤلفات الأوروبية، ثم أصدر دراسة عن ابن رشد فاختلف حولها مع محمد عبده. وصرح بأنه كتب عن ابن رشد بغرض (تقريب الأبعاد بين عنـاصـر الشـرق وغسـل القلوب وجمـع الكلمة. . . . لا بأن يبرهن الفريق الواحد للفريق الثاني أن دينه أفضل من دينه، فهذا أمر قد مضى زمانه. . . فهـذا الـزمان زمان العلم والفلسفة (الذي يقضي) بأن يحترم كل فريق رأي غيره ومعتقـده)، ونـادى فرح أنطـون بالعلمانية وفصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية، وتنطلق نظريته في الدولة من خمسة أسباب (أولها: أن غاية السلطتـين تختلف، فالـدين يبتغي العبادة والفضيلة وفقاً للكتب المنزلة، ولما كان كل دين يدعي الحقيقـة لنفسـه ويطلب من النـاس أن يسلكـوا سبيله لبلوغ الخـلاص، كان من الطبيعي للسلطـات الـدينيـة، إذا ما كانت ذات

سلطـة سيـاسية ، أن تضطهد الذين يخالفونها وبالأخص المفكرين . أما غاية الحكم ، فهي صيـانـة الحـرية البشرية في حدود الدستور. لذلك لا تضطهد الحكـومـات النـاس بسبب آرائهم إذا ماتـركت وشأنهـا . ثانياً : إن المجتمع الصـالـح يقـوم على مسـاواة مطلقة بين جميع أبناء الأمة ، تتعدى الفروق في الأديـان . ثالثـاً : إن السلطات الدينية تشترع للآخرة ، لذلك كان من شأن سلطتهـا أن تتعـارض وغـاية الحكومة التي إنما تشترع لهذا العالم . رابعاً : إن الـدول التي يسيطـر عليهـا الـدين ضعيفـة ، فالسلطـات الـدينيـة ضعيفـة بطبيعتهـا ، لأنهـا تحت رحمـة مشـاعـر الجمهور ، وهي تسبب بدورها ضعف المجتمع ، لأنها تلح على ما يفرق بين الناس ، والجمع بين الدين والسياسة وممـا يضعف حتى الـدين نفسه . إذ ينزله إلى حلبة السياسة ويعرضه لجميع أخطـار الحيـاة السيـاسية . خامساً وأخيراً ، إن الحكومات الدينية تؤدي إلى الحرب ، فمع أن الدين الحق واحد ، فالمصالح الدينية المختلفة تتعارض أبداً بعضهـا مع بعض ، ولمـا كان الـولاء الـديني قوياً بين الجماهير ، فمن الممكن دائـماً أن يثير المشـاعـر) (فـرح انطـون ابن رشـد ١٥١ عن البرت حوراني ٣٠٦) . ورأى أن الـوحـدة تتم بخلق الـولاء القومي والفصل بين السلطتين الزمنية والروحية (فلا مدنية حقيقية ولا تساهل ولا عدل ولا مساواة ولا أمن ولا إلفة ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم في الداخل إلا بفصل السلطة المـدنيـة عن السلطة الروحية) (نفسه ١٦٠) . ويمكن فصل السلطتين برأي فرح انطـون لأن (الحـاكم لا يحكم وفقـاً لإرادتـه الخـاصـة أو معتقـداتـه الشخصيـة ، بل على ضوء القـوانـين التي تضعهـا جمعيـة ممثلي الشعب ، والشعب يجب أن يكـون سيـداً ، وإلا ساد الاستبـداد أو الفـوضى ، ولممثلي الشعب كلمة أوسع من حكمة أي حاكم منفرد ، وذكاؤ هـم المشترك أدق من ذكاء أي واحد منهم بمفرده) (نفسه ١٦١) . وقد توجه إلى (أولئك العقلاء

في كل ملة وكل دين في الشرق، الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر، فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانباً في مكان مقدس محترم، ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً، ومجاراة تيار التمدن الأوروبي الجديد لمزاحمة أهله، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم) (البرت حوراني ٣٠٤).

مارس النهضويون العرب في سورية نشاطهم من خلال الجمعيات التي أسسوها، بدءاً من أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأخذت هذه الجمعيات أسماء غير سياسية، لكنها في الواقع كانت أحزاباً بأسماء جمعيات، وكانت أهدافها الحقيقة أهدافاً سياسية وقومية وتنويرية بالدرجة الأولى، وضمت بين أعضائها مسلمين ومسيحيين دون تفريق، عملوا معاً لنشر الثقافة العربية، وإحياء اللغة العربية والتراث العربي، وتطوير عملية الوعي، وتنوير الشعب بالأهداف القومية العربية، والعمل من أجل انتزاع حقوق العرب من أيدي السلطة العثمانية بمختلف الوسائل والسبل. ومع نهاية القرن الماضي، كانت الجمعيات قد انتشرت في مختلف المدن العربية، وزاد عدد المنتسبين إليها، وأصدرت الصحف والكتب والمنشورات، وقامت بنشاطات ثقافية وسياسية واسعة، وكان من أبرز هذه الجمعيات: جمعية (الجامعة العربية) التي أسست في القاهرة، و(جامعة الدول العربية) في باريس و(الإخاء العربي العثماني) و(المنتدى الأدبي) و(الجمعية العربية الفتاة) و(جمعية العهد) و(الجمعية القحطانية) في الأستانة، وجمعية (اللامركزية الإدارية العثمانية) و(حزب الإصلاح) في بيروت. وتوصل العرب السوريون أخيراً إلى عقد المؤتمر السوري ـ العربي الأول في باريس عام ١٩١٣ م، وكان حوالي نصف أعضائه من العرب المسيحيين.

مالبثت الدعوة القومية أن أصبحت أساساً إيديولوجياً وسياسياً لمعظم التيارات السياسية والفكرية العربية منذ مطلع القرن العشرين ، وقد ضمت هذه التيـارات بدورهـا عربـاً مسلمين ومسيحيين ، واجهوا معاً سلطة الدولة العثمـانيـة ، ثم الغـزو الاستعـماري الأوروبي بعـد ذلك . وقد تبلورت هذه التيـارات فيـما بعد ، وتحولت إلى أحزاب سياسية ، مازال معظمها قائماً حتى عصرنا الحاضر.

الملاحق

ملحق ـ ١ ـ

فيمن تجب عليه الجزية*

قال أبـو يوسـف: والجـزيـة واجبة على جميع أهل الذمة ممن في السواد وغـيرهم من أهـل الحـيرة وسـائـر البلدان من اليهـود والنصـارى والمجوس والصـابئـين والسـامـرة ما خلا نصارى بني تغلب وأهل نجران خاصة، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان، ولا تؤخذ الجزية من المسكـين الـذي يتصـدق عليه، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذمي يتصدق عليه ولا من مقعد. والمقعد والزمن إذا كان لهما يسار أخذ منهما وكـذلـك الأعمى. وكـذلك المترهبون الذين في الديارات إذا كان لهم يسار أخـذ منهم وإن كانـوا إنـما هم مسـاكـين يتصـدق عليهم أهل اليسار منهم لم يؤخذ منهم، وكذلك أهل الصوامع إن كان لهم غنى ويسار، وإن كانوا قد صيروا ماكـان لهم لمن ينفقـه على الـديـارات ومن فيها من المترهبين والقوّام أخـذت الجـزيـة منهم يؤخذ بها صاحب الدير فإن أنكر صاحب الدير الذي ذلك الشيء في يده وحلف على ذلك بالله وبما يحلف به مثله من أهل دينه ما في يده شيء من ذلك ترك ولم يؤخذ منه شيء. ولاتؤخذ الجزية من الشيخ الكبـير الـذي لايستطيـع العمـل ولاشيء له، وكـذلك المغلوب على عقله لايؤخـذ منـه شيء. وليس في مواشي أهـل الـذمـة من الإبل والبقر والغنم زكاة، والرجال والنساء في ذلك سواء.

---

* عن الخراج لأبي يوسف ص ١٢٢.

ملحق ـ ٢ ـ

الرفق بأهل الذمة*

قال أبو يوسف: وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (ص) والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم. فقد روى عن رسول الله (ص) أنه قال «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله (ص) أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم».

قال: وحدثنا هشام بن عروة عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت فقال: ما بال هؤلاء؟ فقالوا عليهم الجزية ولم يؤدوها، فهم يعذبون حتى يؤدوها. فقال عمر: فما يقولون هم وما يعتذرون به في الجزية؟ قالوا: يقولون لانجد، قال: فدعوهم، لا تكلفوهم مالا يطيقون، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول «لا تعذبوا الناس فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة» وأمر بهم فخلى سبيلهم.

قال: وحدثني بعض المشايخ المتقدمين يرفع الحديث الى النبي (ص)

---

* عن الخراج لأبي يوسف ص ١٢٥ .

أنه ولّى عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة فلما ولى من عنده ناداه فقال «ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة».

قال: وحدّثني عمر بن نافع عن أبي بكر قال: مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: اسأل الجزية والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل. ثم أرسل إلى خازن المال فقال: أنظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم «إنما الصدقات للفقراء والمساكين» والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. قال قال أبو بكر: أنا شهدت ذلك من عمر ورأيت ذلك الشيخ.

ملحق ـ ٣ ـ
الكنائس والبيع والصلبان*

وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر أهل الذمة وكيف تركت لهم البيع والكنائس في المدن والأمصار حين افتتح المسلمون البلدان ولم تهدم، وكيف تركوا يخرجون بالصلبان في أيام عيدهم. فإنما كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية وفتحت المدن على أن لاتهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم[1] ويذبوا عنهم فأدوا الجزية إليهم على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم عليه وكتبوا بينهم الكتاب على هذا الشرط على أن لا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة، فافتتحت الشام كلها والحيرة إلا أقلها على هذا. فلذلك تركت البيع والكنائس ولم تهدم.

قال أبو يوسف: حدّثني بعض أهل العلم عن مكحول الشامي أن أبا عبيدة بن الجراح صالحهم بالشام واشترط عليهم حين دخلها على أن تترك كنائسهم وبيعهم على أن لا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة، وعلى أن عليهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الانهار من أموالهم، وأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام، وعلى أن لا يشتموا مسلماً ولا يضربوه، ولا يرفعوا

---

* عن الخراج لأبي يوسف ص ١٣٨.

(١) بهامش البولاقية في بعض النسخ زيادة «وعلى أن يخرجوا الصلبان في أعيادهم».

في نادي أهل الإسلام صليباً ولا يخرجوا خنزيراً من منازلهم إلى أفنية المسلمين، وأن يوقدوا النيران للغزاة في سبيل الله، ولا يدلوا للمسلمين على عروة، ولا يضربوا نواقيسهم قبل آذان المسلمين ولا في أوقات آذانهم ولا يخرجوا الرايات في أيام عيدهم، ولا يلبسوا السلاح يوم عيدهم ولا يتخذوه في بيوتهم. فإن فعلوا من ذلك شيئاً عوقبوا وأخذ منهم. فكان الصلح على هذا الشرط فقالوا لأبي عبيدة: اجعل لنا يوماً في السنة نخرج فيه صلباننا بلا رايات، وهو يوم عيدنا الأكبر. ففعل ذلك لهم وأجابهم إليه، فلم يجدوا بداً من أن يفوا لهم بما شرطوا ففتحت المدن على هذا.

ملحق ـ ٤ ـ

قصة أهالي نجران*

وسألتَ يا أمير المؤمنين عن نجران وأهلها وكيف كان الحكم جرى فيهم وفيها. ولم أخرجوا منها بعد الشرط الذي كان شرط عليهم؟ وما السبب في ذلك؟ فإن النبي (ص) كان أقر أهلها فيها على شروط اشترطها عليهم واشترطوها هم، وكتب لهم بذلك كتاباً، قد ذكرتُ نسخته لك، وبعث إليهم عمرو بن حزم وإلى غيرهم، وكتب لهم عهداً. وأن نسخة كتاب النبي (ص) لهم التي في أيديهم:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ماكتب محمد النبي رسول الله (ص) لأهل نجران ـ إذ كان عليهم حكمه ـ في كل ثمرة وفي كل صفراء[1] وبيضاء ورقيق. فافضل ذلك عليهم وترك[2] ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي في كل رجب ألف حلة وفي كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب. وعلى نجران مؤونة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد

---

* عن الخراج لأبي يوسف ص ٧٠.

(١) في التيمورية «في كل ثمرة صفراء أو بيضاء أو رقيق».

(٢) في التيمورية «وأنزل».

باليمن ومعـرة[٣]. ومـا هلك مما أعـاروا رسـلي من دروع أوخيـل أوركاب أو عروض فهـو ضمـين على رسلي حتى يؤ دوه إليهم . ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمـة محمـد النبي رسـول الله على أمـوالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغـائبهم وشـاهـدهم وعشـيرتهم[٤] وبيعهم وكل ماتحت أيديهم من قليل أو كثير، لايغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته[٥] وليس عليه دنية[٦]. ولادم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضـهـم جيش. ومـن سأل منهـم حقـاً فبـيـنهم النصف غير ظالمـين ولا مظلومـين. ومن أكـل ربـا من ذي قبـل[٧] فذمتي منه بريئة. ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله أبـداً حتى يأتي الله بأمـره، ما نصحـوا وأصلحـوا ما عليهم غير متفلتـين[٨] بظلم، شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر[٩] والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة. وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر.

---

(٣) في التيمورية «ذو معرة».

(٤) في التيمورية «وعبادتهم».

(٥) في التيمورية «ولا رافة من رفاه».

(٦) في التيمورية «وليس عليهم رماية».

(٧) في التيمورية «من ذمي قتل».

(٨) في التيمورية «متغلبين».

(٩) في التيمورية «نضر».

ملحق ـ ٥ ـ

الصلح مع نصارى بني تغلب*

وسألت يا أمير المؤمنين عن نصارى بني تغلب، ولم ضوعفت عليهم الصدقة في أموالهم وأسقطت الجزية عن رؤوسهم؟

قال أبو يوسف: حدثني بعض المشايخ عن السفاح عن داود بن كردوس عن عبادة بن نعمان التغلبي أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين إن بني تغلب من قد علمتَ شوكتهم وإنهم بإزاء العدو فإن ظاهروا عليك العدو اشتدت مؤنتهم فإن رأيت أن تعطيهم شيئاً فافعل. قال: فصالحهم عمر على أن لا يغمسوا أحداً من أولادهم في النصرانية ويضاعف عليهم الصدقة. قال وكان عبادة يقول: قد فعلوا فلا عهد لهم. وعلى أن يسقط الجزية عن رؤوسهم. فكل نصراني من بني تغلب له غنم سائمة فليس فيها شيء حتى تبلغ أربعين شاة فإذا بلغت أربعين سائمة ففيها شاتان إلى عشرين ومائة فإذا زادت شاة ففيها أربع من الغنم. وعلى هذا الحسبان تؤخذ صدقاتهم. وكذلك البقر والإبل إذا وجب على المسلم شيء في ذلك فعلى النصراني التغلبي مثله مرتين ونساؤهم كرجالهم في الصدقة. فأما الصبيان فليس عليهم شيء. وكذلك أرضوهم التي كانت بأيديهم يوم صولحوا فيؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم. وأما الصبي والمعتوه فأهل العراق يرون أن يؤخذ ضعف الصدقة من أرضه

---

* عن الخراج لأبي يوسف ص ١٢٠.

ولا يؤخذ من ماشيته، وأهل الحجاز يقولون يؤخذ ذلك من ماشيته. وسبيل ذلك سبيل الخراج لأنه بدل من الجزية ولا شيء عليهم في بقية أموالهم ورقيقهم.

قال أبو يوسف: حدثنا أبو حنيفة عمن حدثه عن عمر بن الخطاب أن أضعف الصدقة على نصارى بني تغلب عوضاً من الخراج.

قال: وحدّثنا اسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر قال سمعت أبي يذكر قال: سمعت زياد بن حدير قال إن أول من بعث عمر بن الخطاب على العشور إلى ههنا أنا، قال وأمرني أن أغلظ علي نصاري بني تغلب، قال إنهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب فعلهم يسلمون. قال وكان عمر قد اشترط على نصارى بني تغلب أن لا يُنصِّروا أولادهم.

ملحق ـ ٦ ـ

الصلح مع أهالي بصرى*

قالـوا: لما قدم خالـد بن الـوليد على المسلمين بصرى اجتمعوا عليها وأمـروا خالـداً في حربهـا، ثم الصقـوا بها وحاربوا بطريقها حتى ألجأوه وكماة أصحـابـه إليهـا ويقال: بل كان يزيد بن أبي سفيان المتقلد لأمر الحرب لأن ولايتهـا وإمـرتهـا كانت إليـه لأنهـا من دمشق ثم إن أهلهـا صالحوا على أن يؤمنوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية.

وذكر بعض الرواة أن أهل بصرى صالحوا على أن يؤدوا عن كل حالم دينـاراً وجـريب حنطـة، وافتتـح المسلمـون جميـع أرض كورة حوران وغلبوا عليهـا قال: وتـوجـه أبـو عبيـدة بن الجراح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحـاب الأمـراء ضمـوا إليـه فأتى مآب من أرض البلقاء، وبها جمع العدو فافتتحهـا صلحـاً على مثل صلح بصرى، وقال بعضهـم: إن فتح مآب قبل فتـح بصـرى، وقـال بعضهم: إن أبـا عبيـدة فتح مآب وهو أمير على جميع الشام أيام عمر.

* البلاذري فتوح البلدان ص ١٢٠.

ملحق ـ ٧ ـ

الصلح مع أهالي دمشق*

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ماأعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية. فقال بعض المسلمين والله ماخالد بأمير فكيف يجوز صلحه، فقال أبو عبيدة إنه يجيز على المسلمين أدناهم وأجاز صلحه وأمضاه، ولم يلتفت إلى ما فتح عنوة فصارت دمشق صلحاً كلها، وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر وأنفذه.

قال الواقدي: وكان فتح دمشق في رجب سنة أربع عشرة وتاريخ كتاب خالد بصلحها في شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وذلك أن خالداً كتب الكتاب بغير تاريخ فلما اجتمع المسلمون للنهوض إلى من تجمع لهم باليرموك أتى الأسقف خالداً فسأله أن يجدد له كتاباً ويشهد عليه أبا عبيدة والمسلمين ففعل وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم فأرخه بالوقت الذي جدده.

حدثني أبو عبيد، قال: حدثنا نعيم بن حماد عن ضمرة بن ربيعة عن رجاء بن أبي سلمة، قال: خاصم حسان بن مالك عجم أهل دمشق إلى

---

* البلاذري: فتوح البلدان ص ١٢٨.

عمر بن عبد العزيز في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه أياها، فقال عمر إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها، قال ضمرة عن علي بن أبي حملة خاصمنا عجم أهل دمشق إلى عمر بن عبد العزيز في كنيسة كان فلان قطعها لبني نصر بدمشق. فأخرجنا عمر عنها وردها إلى النصارى، فلما ولي يزيد بن عبد الملك ردها إلى بني نصر.

حدثني أبو عبيد، قال: حدثنا هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، أنه قال كانت الجزية بالشام في بدء الأمر جريباً وديناراً على كل جمجمة، ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الورق أربعين درهماً، وجعلهم طبقات لغنى الغنى، واقلال المقل، وتوسط المتوسط قال هشام: وسمعت مشايخنا يذكرون أن اليهود كانوا كالذمة للنصارى يؤدون إليهم الخراج فدخلوا معهم في الصلح.

وقد ذكر بعض الرواة: أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم عليه على أن ألزم كل رجل من الجزية ديناراً وجريب حنطة وخلا وزيتاً لقوت المسلمين.

وحدثني مصعب عن أبيه عن مالك عن نافع عن أسلم بمثله، قالوا: لما ولي معاوية بن أبي سفيان أراد أن يزيد كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق فأبى النصارى ذلك فأمسك، ثم طلبها عبد الملك بن مروان في أيامه للزيادة في المسجد وبذل لهم مالاً فأبوا أن يسلموها إليه، ثم إن الوليد بن عبد الملك جمعهم في أيامه وبذل لهم مالاً عظيماً على أن يعطوه إياها فأبوا. فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكى النصارى إليه مافعل الوليد بهم في كنيستهم، فكتب إلى عامله يأمره برد مازاده في المسجد عليهم فكره أهل دمشق ذلك وقالوا: نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة، وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقاء. وأقبلوا على النصارى

فسألـوهـم أن يعطـوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلـك وأعجبهم، فكتب به إلى عمر فسـره وأمضـاه، وبمسجد دمشـق في الـرواق القبـلي مما يلي المئذنة كتاب في رخامة بقرب السقف مماأمر ببنياته أمير المؤمنين الوليد سنة ست وثمانين، وسمعت هشام بن عمار يقول: لم يزل سور مدينـة دمشق قائـماً حتى هدمـه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بعد انقضاء أمر مروان وبني أمية.

ملحق ـ ٨ ـ

الصلح مع أهالي بعلبك*

ولما فرغ أبو عبيدة من أمر مدينة دمشق سار إلى حمص فمر ببعلبك، فطلب أهلها الأمان والصلح فصالحهم على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب أمان لفلان بن فلان، وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها وعلى أرجائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم مابينهم وبين خمسة عشر ميلاً، ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج شهد الله وكفى بالله شهيداً.

* البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٦.

ملحق ـ ٩ ـ

عقد الصلح مع أهل إيلياء (القدس)

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها؛ أنه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لايؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحضر سنة خمس عشرة. (الطبري ١/ ٢٤٠٦).

ملحق ـ ١٠ ـ

الصلح مع أهالي مصر*

قالـوا: وكـان مسير عمرو إلى مصر في سنة تسع عشرة فنزل العريش ثم أتى الفرما. وبها قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى قدمـاً إلى الفسطـاط فنزل جنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط، وكان اسم المدينة اليونة فسماها المسلمون فسطاطاً لأنهم قالوا: هذا فسطاط القوم ومجمعهم، وقوم يقولون: إن عمراً ضرب بها فسطاطاً فسميت بذلك.

وحـدثني إبـراهيم بن مسلم الخـوارزمي، عن عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي فراس عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: اشتبه على الناس أمر مصر، فقال قوم: فتحت عنوة، وقال آخـرون: فتحت صلحـاً، والفلج في أمـرها أن أبي قدمها فقاتله أهل اليونة ففتحهـا قهـراً وأدخلهـا المسلمـين وكـان الزبير أول من على حصنها، فقال صاحبها لأبي: إنه قد بلغنا فعلكم بالشام ووضعكم الجزية على النصارى واليهـود وإقـراركم الأرض في أيـدي أهلهـا يعمـرونها ويؤدون خراجها فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلائنا، قال: فاستشار أبي المسلمـين فأشـاروا عليـه بأن يفعـل ذلـك إلا نفـر منهم سألوا أن يقسم الأرض بينهم فوضـع على كل حالم دينـارين جزيـة إلا أن يكون فقيراً وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل

---

* البلاذري: فتوح البلدان ص ٢١٤.

وقسطي خل رزقاً للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى المسلمون ، فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أوعدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً وكتب عليهم بذلك كتاباً وشرط لهم إذا وفوا بذلك أن لاتباح نساؤهم وأبناؤهم ولا يسبوا وأن تقر أموالهم وكنوزهم في أيديهم ، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه وصارت الأرض أرض خراج إلا أنه لما وقع هذا الشرط والكتاب ظن بعض الناس أنها فتحت صلحاً ، قال : ولما فرغ ملك اليونة من أمر نفسه ومن معه في مدينته صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح اليونة فرضوا به ، وقالوا هؤلاء الممتنعون قد رضوا وقنعوا بهذا فنحن به أقنع لأننا فرش لامتعة لنا ، ووضع الخراج على أرض مصر فجعل على كل جريب ديناراً وثلاثة أرادب طعاماً وعلى رأس كل حالم دينارين وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وحدثني عمرو الناقد عن عبد الله بن وهب المصري عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب : أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر سماه ، وأن يفرض على القبط دينارين فبلغ ذلك ملك الروم فتسخطه وبعث الجيوش . فأغلقوا باب الأسكندرية وآذنوا عمراً بالحرب فخرج إليه المقوقس ، فقال : أسألك ثلاثاً أن لا تبذل للروم مثل الذي بذلت لي فإنهم قد استغشوني وأن لا تنقض بالقبط فإن النقض لم يأت من قبلهم وإن مت فمر بدفني في كنيسة بالأسكندرية ذكرها ، فقال عمرو : هذه أهونهن علي وكانت قرى من مصر قاتلت فسبي منهم والقرى بلهيت والخيس وسلطيس فوقع سباؤهم بالمدينة فردهم عمر بن الخطاب وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة وكان لهم عهد لم ينقضوه وكتب عمرو بفتح الأسكندرية إلى عمر .

(أما بعد) فإن الله فتح علينا الأسكندرية عنوة قسراً بغير عهد ولا عقد وهي كلها صلح في قول يزيد بن أبي حبيب.

وحدثني أبو أيوب الرقي، قال: حدثني عبد الغفار الحراني عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن الجيشاني، قال سمعت جماعة ممن شهد فتح مصر يخبرون أن عمرو بن العاص لما فتح الفسطاط وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجه خارجه بن حذافة العدوى إلى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك، ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ففعل مثل ذلك ووجه عقبة بن عامر الجهني، ويقال: وردان مولاه صاحب سوق وردان بمصر إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج.

ملحق - ١١ -

الصلح مع أهل الحيرة*

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة، أن خليفة رسول الله (ص) أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أمرني أن أسير بعد منصرفي من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم بأن أدعوهم إلى الله جل ثناؤه وإلى رسوله عليه السلام وأبشرهم بالجنة وأنذرهم من النار فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وإني انتهيت إلى الحيرة فخرج إلى إياس بن قبيصة الطائي في أناس من أهل الحيرة من رؤسائهم، وإني دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا فعرضت عليهم الجزية أو الحرب فقالوا: لا حاجة لنا بحربك ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في اعطاء الجزية، وإني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف، فصالحوني على ستين ألفاً، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والانجيل: أن لا يخالفوا، ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذي أخذه أشد ما أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أوذمة. فإن هم خالفوا فلا ذمة لهم

---

* عن الخراج لأبي يوسف ص ١٤٣.

ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ماللمعاهد وعلينا المنع لهم. فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك لايخالفوا. [فإن غُلبوا فهم في سعة يسعهم ماوسع أهل الذمة. ولا يحلّ فيما أمروا به أن يخالفوا]. وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام. فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم. وإيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأعلى مايقدر عليهم في غير الوكس ولا تعجيل ودفع ثمنه إلى صاحبه. ولهم كل مالبسوا من الزي إلا زي الحرب من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم. وإيما رجل منهم يجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب. وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين عمّالهم منهم، فإن طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا به ومئونة العون من بيت مال المسلمين».

أهم المراجع

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مكتبة الرياض، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨

ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني.

ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩

ابن القلانسي: حمزة، ذيل تاريخ دمشق، بيروت مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.

ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت ١٩٦٥

ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

ابن منقذ: أسامة، الاعتبار، الدار المتحدة، بيروت ١٩٨١

ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٨

أبو يوسف: القاضي، الخراج، موسوعة الخراج، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩

الأحمدي: علي، مكاتيب الرسول، دار صعب، بيروت بدون تاريخ.

الأصبهاني: أبو الفرج، كتاب الأغاني، دار الفكر، بلا تاريخ.

أمين: أحمد، فجر الإسلام، دار الناشر العربي، بيروت ١٩٧٩
ضحى الإسلام، الطبعة العاشرة، دار الناشر العربي.
ظهر الإسلام، الطبعة الخامسة، دار الناشر العربي.
بازيلي: قسطنطين، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦
بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت.
البلاذري: أبو الحسن، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١
تطور الفكر القومي العربي (عدة دراسات)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٦، ساهم في الكتاب عدد من الباحثين.
جونز: أ. هـ. م، ترجمة احسان عباس، مدن بلاد الشام، دار الشروق، عمان ١٩٨٧
حتي: فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٢
الحموي: ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت بدون تاريخ.
الحنبلي: أبو الفلاح، شذرات الذهب، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩
الحوت: محمد سليم، الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت
الحوار القومي الديني (عدة دراسات)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٩، ساهم في الكتاب عدد من الباحثين.
حوراني: البرت، الفكر العربي في عصر النهضة، دار النهار، بيروت ط ٣ ١٩٧٧

الحياة الفكرية في المشرق العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٣، ساهم في الكتاب عدد من الباحثين.

خضر: المطران جورج، المسيحيون العرب، مؤسسة الأبحاث والدراسات، بيروت ١٩٨٦

داسو: رينيه، العرب في سورية قبل الإسلام.

ديورانت: وول، قصة الحضارة، الادارة الثقافية، جامعة الدول العربية.

رافق: عبد الكريم، العرب والعثمانيون، دمشق ١٩٧٤

رباط: أدمون، المسيحيون العرب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط ٢ بيروت ١٩٨٦

رستم: أسد، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، بيروت ١٩٨٨

رؤوف: عماد عبد السلام، تطور الفكر القومي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦

زابوروف: ميخائيل، الصليبيون في الشرق، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦

زكار: سهيل، الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق ١٩٨٤

الزين: حسن، الأوضاع القانونية للنصارى، دار الفكر الحديث، بيروت ١٩٨٨

سباط: الأب بولس، مجلة المشرق، تشرين الأول ١٩٤٥.

سحاب: فكتور، من يحمي المسيحيين العرب، دار الوحدة، بيروت ١٩٨٦

السيد: رضوان، المسيحيون العرب، مؤسسة الأبحاث والدراسات، بيروت ١٩٨٦

السيوطي : جلال الدين، تاريخ الخلفاء، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
الشهرستاني : الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٤
شيخو: لويس، النصرانية وآدابها، دار المشرق، بيروت ١٩٨٩
صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
الضاهر: مسعود، الجذور التاريخية، المسألة الطائفية اللبنانية، معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٨٦
ضو: بطرس، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، دار النهار، بيروت ١٩٧٠
الطبري : محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار سويدان، بيروت بدون تاريخ.
عبد الباقي : أحمد، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠
عبده قاسم : قاسم، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩
عبده : محمد، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٨
علي : جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٠
عماره : محمد، الإمام محمد عبده، دار الوحدة، بيروت ١٩٨٥
العمر: فاروق صالح، تطور الفكر القومي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٦
العودات : حسين، الموت في الديانات الشرقية، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦

غربال: محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٥

فريدبك: محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة ١٩٦٦

قاسم: قاسم عبده الحروب الصليبية، العربية للدراسات، بيروت ١٩٨٥

القرآن الكريم.

القرشي: يحيى بن آدم، الخراج، موسوعة الخراج، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩

القنواتي: الأب جورج شحادة، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت بدون تاريخ.

القومية العربية في الفكر والممارسة (عدة دراسات)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٠، ساهم في الكتاب عدد من الباحثين.

الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس، بيروت.

الكلبي: هشام، الأصنام، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٥

الكواكبي: عبد الرحمن، الأعمال الكاملة، محمد عماره، بيروت ١٩٧٥

كوثراني: وجيه، المسيحيون العرب، المؤسسة العربية للأبحاث والدراسات، بيروت ١٩٨٦

ليفين: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٨

مروة: حسين، النزعات المادية في الإسلام، دار الفارابي، بيروت.

المسعودي: مروج الذهب، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت ١٩٨٢

المسيحيـون العـرب، عدة دراسات، مؤسسة الأبحاث العربية، ط
، بيروت ١٩٨٦

المصري: إيريس حبيب، قصة الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٨٨

معلوف: أمـين، الحـروب الصليبيـة كما رآها العرب، دار الفارابي،
ـروت ١٩٨٩

مغيزل: جورج، المسيحيون العرب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط
، بيروت ١٩٨٦

المقريزي: ـ المواعظ والإعتبار، دار التحرير، القاهرة ١٩٥٦
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٥٨

موسـوعـة الحضـارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات
لنشر، بيروت ١٩٨٧

موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت
١٩٧

يوسف: أبو سيف، الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة
عربية، بيروت ١٩٨٦

صدر للمؤلف

آ ـ التأليف:

١ ـ الموت في الديانات الشرقية (ط ١)، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦ .

٢ ـ السينما والقضية الفلسطينية، دار الأهالي، دمشق ١٩٨٧ .

٣ ـ وثائق فلسطينية (١٨٧٩ ـ ١٩٨٧)، دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٩ .

٤ ـ أشرف على موسوعة المدن الفلسطينية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٠ .

٥ ـ موسوعة الصحافة في بلاد الشام (مع آخرين)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩١ .

٦ ـ موسوعة الصحافة في بلاد المغترب (مع آخرين)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩١ .

ب ـ الترجمــة :

١ ـ الإسلام في فجر عظمته، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٩.

٢ ـ حملة الحقائق، دار الحكمة، بيروت ١٩٨٠.

٣ ـ الجبناء (رواية) وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢.

٤ ـ وسـائـل الإعلام والدول النامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٢.

٥ ـ وسائل الإعلام والدول المتقدمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٣.

٦ ـ الأفريقانية، مؤسسة الوحدة، دمشق ١٩٨٥.

المحتوى